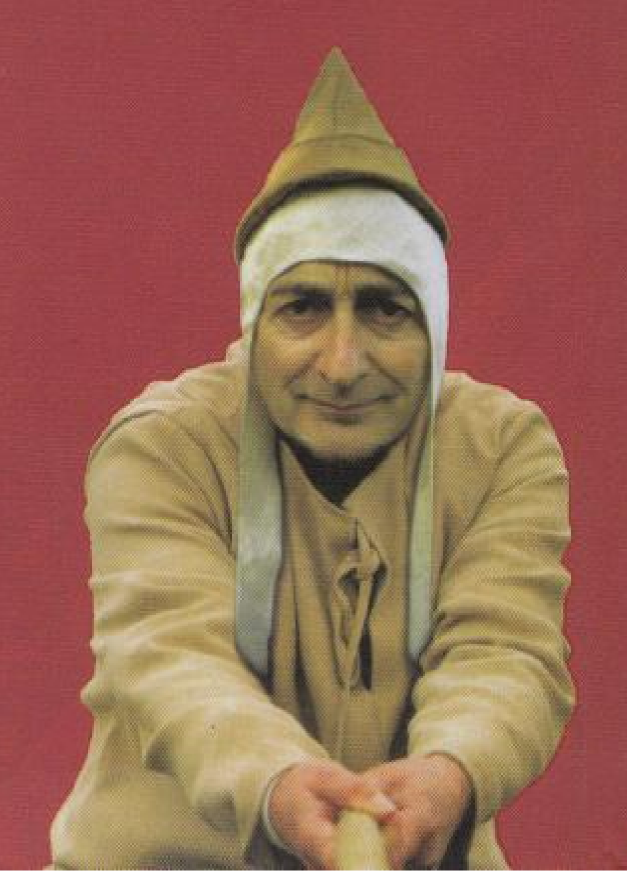



أسوأ المهن في التاريخ

[سرد لقصة ألفي عام من العمالة البائسة]

تأليف: توني روبنسون



ترجمة:
د. عبدالله جرادات



أسوأ المهن في التاريخ

(سرد لقصة ألفي عامٍ من العِمالة البائسة)

تأليف: توني روبنسون

ترجمة: د. عبدالله جرادات

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

HB2673 .R6312 2012

Robinson, Tony

[Worst jobs in history]

أسوء المهن في التاريخ: سرد لقصة ألفي عام من العمالة البائسة / تأليف توني روبنسون، ديفيد ويلكك؛ ترجمة عبدالله جرادات؛ مراجعة أحمد خريس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة»، 2012.

ص 306 ؛ 17×24 سم.

تدمك: 978-9948-01-994-7

ترجمة كتاب: The worst jobs in history

1 - المهن-بريطانيا-تاريخ.

أ- Willcock, David. ب-جرادات، عبد الله.

ج.خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

Tony Robinson

The Worst Jobs in History

First published 2004 by Boxtree

an imprint of Pan Macmillan Ltd



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

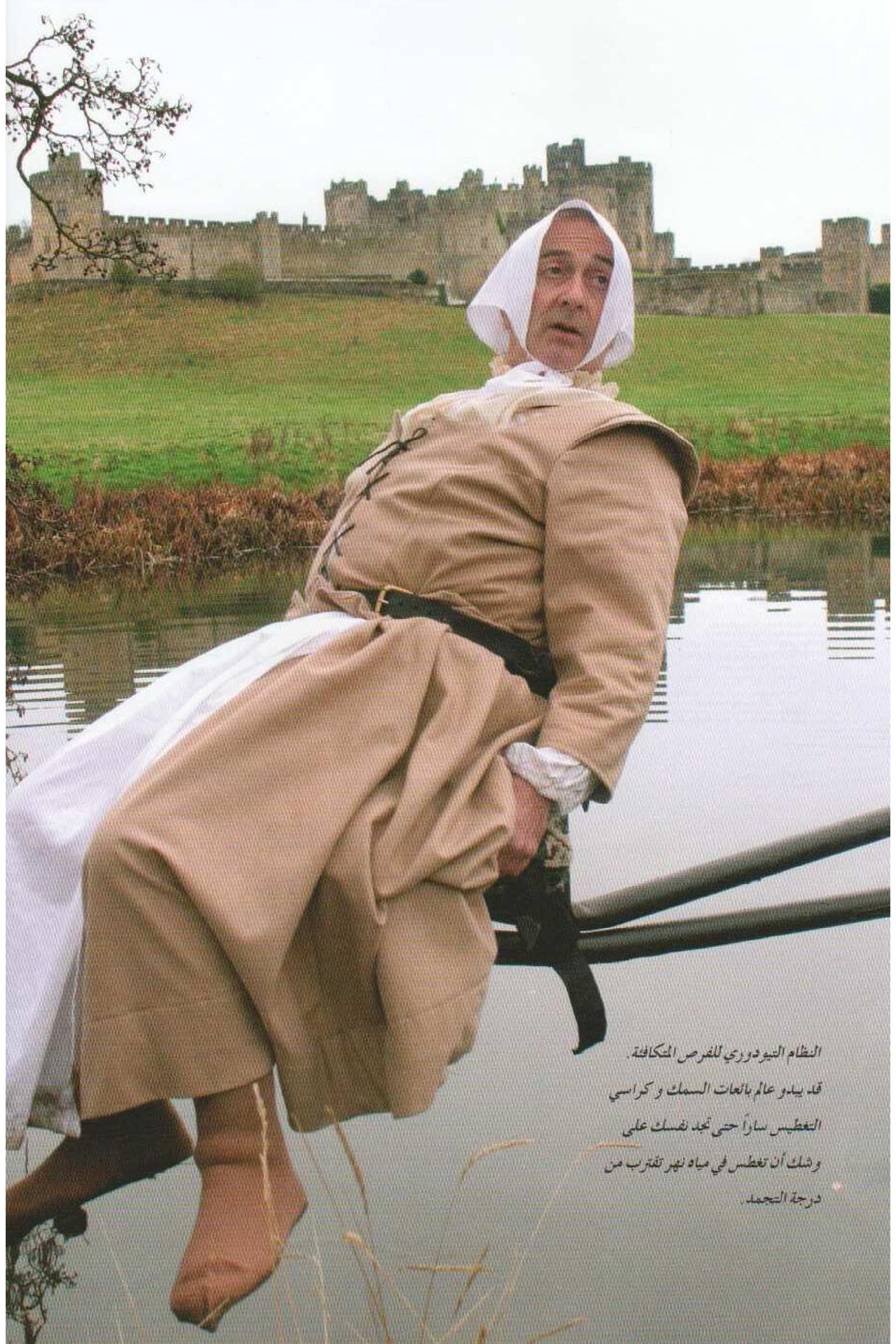
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة

ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

أسوأ المهن في التاريخ

(سرد لقصة ألفي عامٍ من العمالة البائسة)

المحتويات



النظام التيودوري للفرص المتكافئة.
قد يبدو عالم بائعات السمك وكراسي
التغطيس ساراً حتى تجد نفسك على
وشك أن تغطس في مياه نهر تقترب من
درجة التجمد.

المقدمة

يغص التاريخ الذي تعلمناه في المدرسة، بالملوك والملكات والمعارك والجنرالات ورؤساء الوزراء، لكني كنت دائماً على يقين أنّ هذا التاريخ إنما يصوّر نصف الحقيقة، فمعايشة التاريخ البريطاني- بالنسبة إلى معظم الناس- تبدو تجربة فريدة جداً، فَخَلْفَ كثيرٍ من الرجال والنساء الذين سرقوا الأضواء، كان ثمة جيش، لا يؤبه به، يقع على عاتقه القيام بجميع الأعمال الصعبة والخطيرة والمنغصة.

ويشير علم الآثار إلى هذه الحقيقة بشكل لا لبس فيه؛ لأن معظم الاكتشافات ليست دائماً كنوز ذلك الإنسان الصالح أو العظيم، وإنما الجهد الضئيل لجيش جرار من الناس الاعتياديين.

كنت في أثناء عملي في تايم تيم (Time team)، كثيراً ما أجد نفسي في مواجهة مع الحقائق المرة لحياة القدماء، الذين تمكنوا من البقاء أحياءً متعايشين مع أوضاعهم، على الرغم من تغافل التاريخ عنهم.

ولطالما كنت أريد أن أهب هؤلاء الناس أصواتاً، وكنت أجهد بالبحث عن طريقة لتصوير حياتهم بحيوية وإمتاع. ولقد تحادثت قبل سنتين مع المؤرخ الدكتور مايك جونز (Mike Jones) حول حقائق المعركة في عصر الفروسية، وكيف أن فارس القرون الوسطى كان قادراً على التأقلم مع ظروف القتال القاسية وغير المتوقعة، التي كانت تستمر ثماني ساعات على الرغم من ثقل الدروع التي كان يرتديها، وكانت تزن في بعض الأحيان مئات الباوندات.

وصف لي محادثي- بتفصيل مثير- فريق الدعم الذي كان من مهماته الحرص على جاهزية الفارس المدرع للاستمرار في المعركة، وبشكل مشابه تماماً لمهمة فريق الإسناد في سباقات سيارات الفورميولا وَنْ (Formula one). وقد كان أفضل عضو في الفريق- في رأيي- هو حافد الفارس، الذي يعد الحلقة الأدنى في سلم الوظائف المساندة، وتتلخص مهماته في التخلص من العرق، والبول، والبراز، الذي تجمع في درع سيده بعد يوم قضاه ممتطياً حصانه.

بدت لي هذه الوظيفة أسوأ وظيفة في العالم، غير أن محادثي كان له رأي آخر، فقد أصرّ-



توني في لجام السليط. إن فكرة جرّك من جانب شبان صغار السن جيوردين عبر شوارع آلنويك مرتدياً لباس السليط، لهو طريقة غريبة لاكتشاف معاناة السليط الملجم، ولكن كان على أحدهم أن يقوم بهذا العمل.

كما في مشهد فرقة مونتي بايثون المسرحية (Monty Python) الشهير– أن «من يقوم بهذه المهمة كان محظوظاً. ففي العصور الوسطى، كانت هناك طرق عيش أسوأ من هذه بكثير».

ولكن، هل كانت هناك مهن أسوأ من هذه بالفعل؟ قررت أن أَجد أسوأ المهن على الإطلاق. واعتقدت أنني أكتب –رسمياً– تاريخاً اجتماعياً، غير أن أي شخص كان قد قرأ في التاريخ الاجتماعي، سيعرف لماذا أتردد في استخدام هذا التعبير.

قد تعد الدراسة المكثفة للمخطوطات الإقطاعية، التي وثقت الانتقال من المحاريث التي تجرها الثيران إلى تلك التي تجرها الخيل، أو التحاليل الإحصائية لاستهلاك السمك الطازج في قرية في «كنت»، عملاً أكاديمياً مهماً، لكنها لا تصلح موضوعاً مثيراً للقراءة؛ لأن المؤرخين الاجتماعيين نادراً ما يضفون هالة وخيالاً على رعاياهم المجهولين، بعكس ما يفعل كاتبو السير مع أبطالهم وبطلاتهم.

عليّ أن أعترف أن اختياري للوظائف كان جلّه شخصياً، فليس هناك من طريقة موضوعية يمكن لنا من خلالها قياس بؤس الإنسان، ويمكن القول: إنني قد استثنيت الأسوأ من أسوأ

المهن، فلقد كانت حقيقة أنك امرأة منجبة، في أي وقت قبل القرن العشرين، مماثلة في السوء لأي وظيفة تم ذكرها في هذا الكتاب. وعبر التاريخ، بيعت أعدادٌ لا تحصى من البالغين والأطفال، بل تمت الإساءة إليهم من جانب الأغنياء.

إن ما أتوخاه هو أن أتعقب شواطئ العمل الهائجة، فألقابٌ كآكل الضفادع، وقرد البودرة، والباحث عن الأموات، إنما تؤكد حقيقة أن الماضي يحوي وجهاً مختلفاً ومنفراً إلى حد ما لهذا البلد (بريطانيا). ولقد حددت اختياراتي مستفيداً من وجهة نظر أحد أفراد القرن العشرين السريعة التقزز والمدللة.

ومما لا شك فيه، أن طاقة الإنسان وصبره في الماضي كانا أقوى مما هما عليه الآن، فجُلُّ اهتمام الناس في الماضي كان منصباً على مقدار ما سيتقاضون، بغض النظر عن قذارة العمل. ولكن على الرغم من أن منصب الموظف المسؤول عن تنظيف الحمام المتنقل (groom of the stool) في البلاط التيودوري، عدّ رفيعاً، لأنه يجعل شاغله على اتصال مباشر مع الملك، إلا أنني على ثقة تامة أن هناك ألف عملٍ وعمل قد يفضله ذلك الشخص، على أن يقوم بمسح مؤخرة هنري الثامن الكبيرة.

غير أن تلك الوظائف لم تكن كلها قذرة، فلقد أخذت في الحسبان عناصر أخرى كالخطورة، فالضابط المعتلي حصانه في القرن الثامن العشر، والمكلف بمهمة الحد من موجة عنيفة من الجرائم، كان مسلحاً بفرسٍ ومسدسٍ وحسب. وثمة وظائف آمنة جداً، بيد أنها كانت مملة إلى حد قاتل، كناسخ اللفائف الأنبوبية، الذي كان عليه أن ينسخ الكشوف المالية الملكية باليد. كانت هذه المهمة لا تنتهي البتة، فقد كانت تستغرق اثني عشر شهراً لإكمالها. ولهذا، فحالما ينتهي الناسخ من نسخ التقارير، سيكون أمامه عامٌ جديدٌ ينتظره بتقاريره، ليبدأ العمل من جديد.

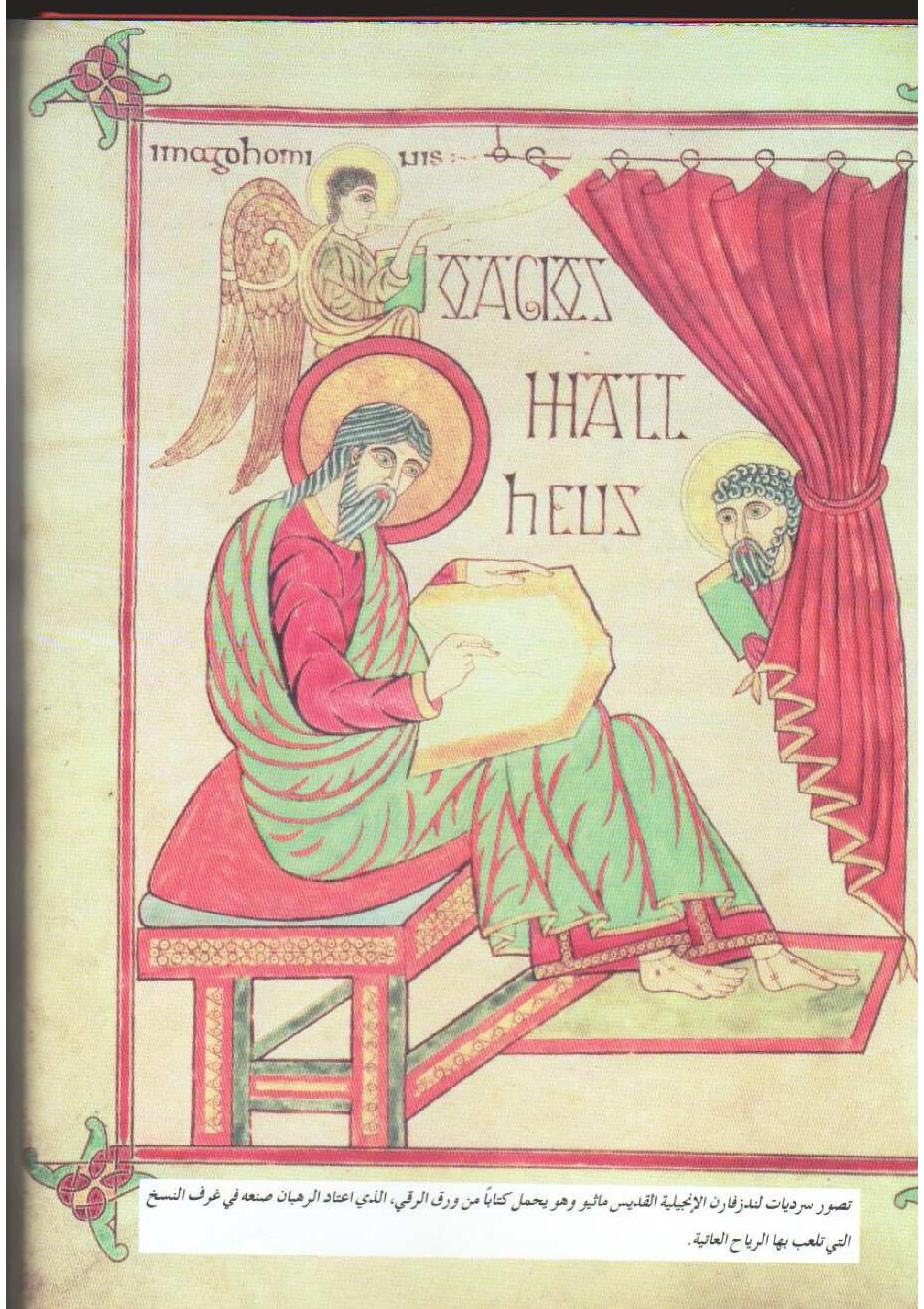
وكنت في بعض الأحيان، أستمد إلهامي من أحداث التاريخ العظيمة. فعلى سبيل المثال، قادتني أحداث ملح البارود إلى رجل الملح الصخري، الذي كان عليه أن يجمع فضلات الإنسان، لما فيها من نترات، من أجل تحويلها إلى ملح بارود. كان شاغلو هذه الوظيفة يتمتعون -بشكل مستغرب- بسلطةٍ مطلقةٍ، فلقد كانوا يدخلون البيوت القديمة بتفويض من الدولة، ويقتلعون الأرضيات الخشبية عنوة، للحصول على الفضلات البشرية الموجودة أسفلها.

وعلى النهج نفسه، ألقينا النظر على أسوأ الوظائف في بناء كاتدرائيات القرون الوسطى الضخمة، كما نظرنا في بحريّة الأدميرال نيلسون، فمعظم البحارة لم يحظوا- عقب موتهم- بالجلبة التي حظي بها نيلسون عقب موته في ترافلغار (Trafalgar)، ولم يحظ معظمهم بقبلة وداع متأججة. فلقد كفنوا في شباك نومهم بعد أن خيطت إلى كرتي مدفع، ثم ألقي بهم في البحر، (على عكس ما حدث مع نيلسون، الذي تم حفظ جثته في مشروب الرّم). وهناك الثورة الصناعية، التي كانت مصدر قرارٍ وسلطةٍ للقلة القليلة من الناس، لكنها في الوقت نفسه، كانت قرناً خصيباً من الوظائف القذرة لجموعٍ غفيرةٍ، لعل أفضل من يمثلها منقبو آلات النسيج.

أخذ عدد الوظائف الغامضة والشنيعة، مع حلول الفترة الفيكتورية، ومع تشدد قوانين الصحة والسلامة العامة، وصرامة التشريعات الاجتماعية، بالتناقص. وبدأ بعض العمال كبنات الكبريت في لندن، يطالبون بقليل من التحسينات. ولكن على الرغم من كل هذا، انتقل كثير من المهام الشنيعة إلى العصر الحديث. فعلى سبيل المثال، استمرت وظيفة جامع بيض طائر الغلموت، التي تتأصل لدى الفايكنغ- وهي تبدو غريبة لنا الآن- في فلامبورهيد في يورك شاير إبان بدايات القرن العشرين تحت مسمى وظيفي مختلف هو المتسلق (climmer).

إن حقيقة أن لديك الوقت والمستوى العلمي لقراءة هذا الكتاب قد تعني- حتى ولو ظاهرياً- أن حياتك ليست قاسية كأولئك الناس الذين سنقابلهم عبر صفحات كتابي هذا. أتمنى أنكم ستتعلمون القليل من هذا الكتاب. ولكن، إن كنتم قضيتم يوماً سيئاً في العمل، وتشعرون أنكم تحت ضغط ما، فأرجو منكم أن تكونوا شاكرين لأنكم لستم من ضمن ملايين لا تحصى، كان لها- عبر التاريخ- مهن أفظع بكثير من مهنكم، مهما تكن سيئة.





تصور سرديات لندزفارن الإنجيلية القديس ماثيو وهو يحمل كتاباً من ورق الرقي، الذي اعتاد الرهبان صنعه في غرف النسخ التي تلعب بها الرياح العاتية.

الفصل الأول

أسوأ الوظائف الأولى

تغير وجه بريطانيا عبر الهجرة والغزو كما تغير خط الساحل تماماً عبر أمواج بحر الشمال والمحيط الهادي. فلقد تم اقتلاع ساكنيها الأصليين، وحل محلهم شعب السلتيك الذي وصل زهاء عام 3500 ق.م. وفي عام 80 قبل الميلاد، استقرت في جنوبي إنجلترا موجةٌ جديدةٌ من قبائل البلجيك المعقدة. وفي عام 43 بعد الميلاد، أصدر الإمبراطور الروماني كلاديوس، الذي كان يشكو من التأتأة ، أمراً بغزو بريطانيا واحتلالها بشكلٍ دائم، وذلك لكسب احترام شعبه في الوطن. وعلى الرغم من ثورة الملكة بوديكا الدموية ضد وريث كلاوديوس– نيرو، كان هذا الغزو بداية حكمٍ مستمرٍ دام ما يزيد على 400 عام، اخترقت خلالها القيم والثقافة الرومانية مختلف جوانب الحياة البريطانية.

أسوأ المهن الرومانية:

كانت كلمة «مهنة» قبيل الغزو الروماني ذات مدلولٍ غامضٍ إلى حدٍ ما، فالعمل بشكل أساسي، هو ما ينبغي القيام به عندما تكون في حالة السلم. ولكن، عندما تصبح ثقافة الأمة أكثر تعقيداً، يصبح العمل أكثر تشعباً ليضم مهمات متعددة ومحددة في آنٍ واحدٍ. كان الرومان يعلمون تماماً طبيعة الوظائف التي يمكن وصفها بالأسوأ. فهم مَن جعل العبيد – بشكل عام– يقومون بما هو مطلوب منهم. بل إن جميع الفتوح العلمية، التي جلبها الرومان معهم، ترتكز على ظروفٍ صعبةٍ جداً، ونفوسٍ اعتادت المعاناة القاسية. فالنظام الهندسي الرفيع، الذي منح الرومان نظام التدفئة تحت الأسطح، على سبيل المثال، كان يحتاج على الدوام إلى غلامٍ يقوم على خدمته وتنظيفه. وكان هذا الغلام يجوب جميع الممرات تحت الأرض، ويمسحها لإزالة السواد الناتج عن عملية الاحتراق، لتنظيف جميع الأنابيب. وعُدَّ هذا الغلام نسخةً مبكرةً لمنظف المداخن الفيكتوري.

ولكن، هل نستطيع أن نسمّي ما يقوم به العبيد مهنةً؟ على الأرجح لا، فلم يكن لديهم

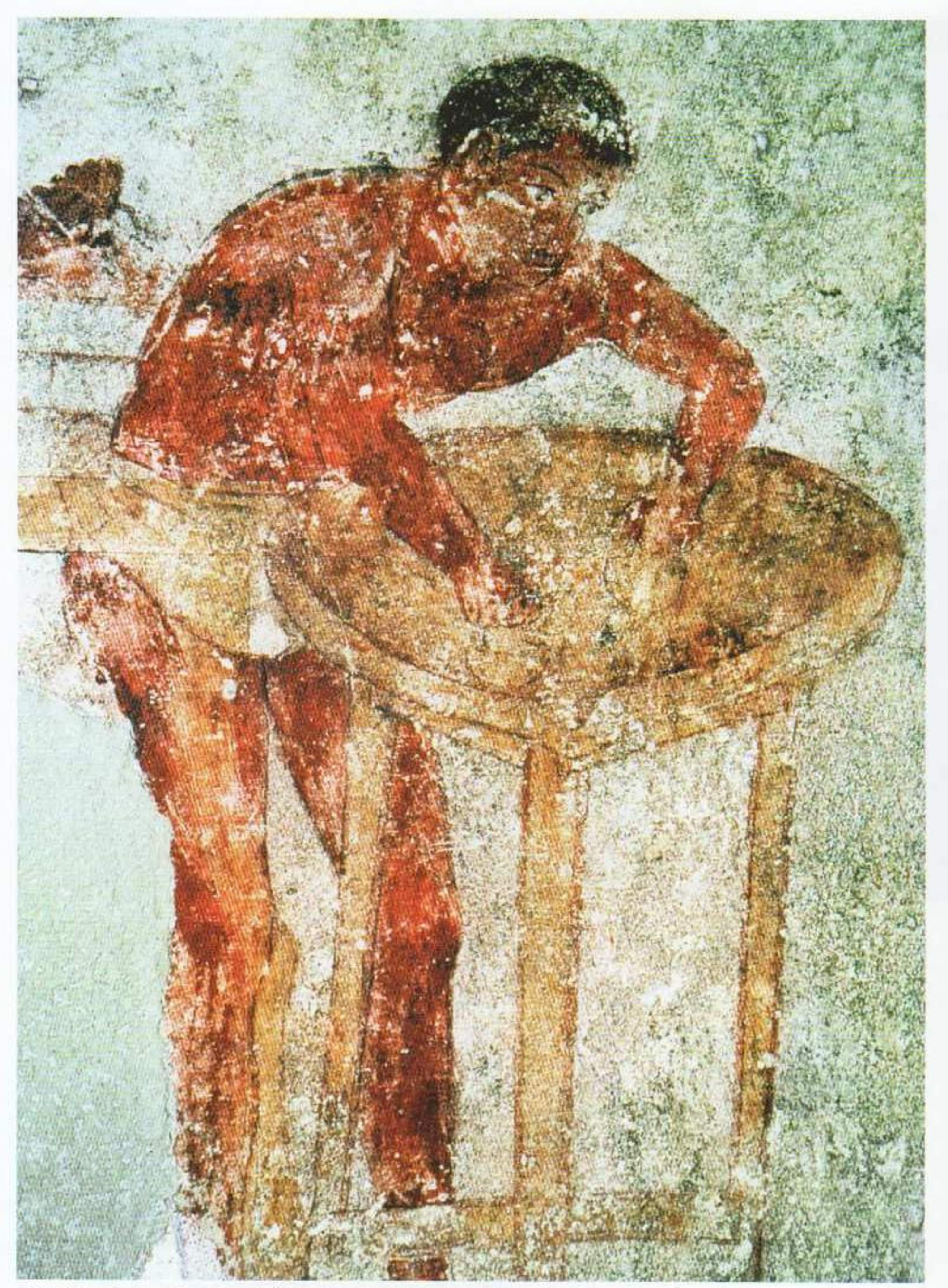
خيارٌ إزاء ما يقومون به، أو مكانٌ للقيام به. غير أن بعض المهام التي دخلت ضمن عمل العبيد كانت تؤدَّى من جانب بعض الرجال والنساء الأحرار. ففي العهد الروماني كانت الإجابات عن بعض الأسئلة مثل: مَن يقوم بهذا العمل؟ وما امتيازات القيام به؟ غير واضحةٍ كما يظن بعضهم. ومما زاد الموقف تعقيداً، أن العبيد العاملين في البيوت كانوا يتقاضون مصروفاً شخصياً، ويستطيعون كسب حريتهم. كانت ثمة تراتبية لأعمال العبيد الجيدة والسيئة، وتستطيع عبر عملك وسلوكك الجيدين أن ترتقي بنفسك في سلم التراتبية. ولقد كانت إحدى شكاوى الطبقة الأرستقراطية حول الإمبراطور نيرو، أنه أحاط نفسه بموظفين ذوي مراكز عالية، كانوا في السابق عبيداً، عوضاً من موظفين من أصلٍ أرستقراطي نبيلٍ.

ومن المرجح أنك كعبدٍ ستحقق بعض التحسن في وضعك، إذا ما كنت تعمل في بيت العائلة التي تملكك، ولن يتحقق هذا، إذا كنت تعمل في ممتلكاتهم على بُعد أميالٍ من بيتهم. وعلى الرغم من هذا يبدأ الكتاب بذكر عملٍ موكلٍ للعبيد يضطلع به شخص مقرب جداً من سيده، وحريٌ بنا أن نقول إنه مقربٌ بشكلٍ وثيقٍ. فلقد جلب الرومان معهم إلى بريطانيا تعقيدات الثقافة والمطبخ المتوسطيين. وعندما كان الملك توجيدوبونس (Togidubnus) يريد أن يقيم مأدبة رومانية فارهةٍ بحقٍ في فيلّته في فيشبورن، فإنه كان بحاجة إلى عبدٍ ليقوم بشيءٍ مقززٍ جداً.

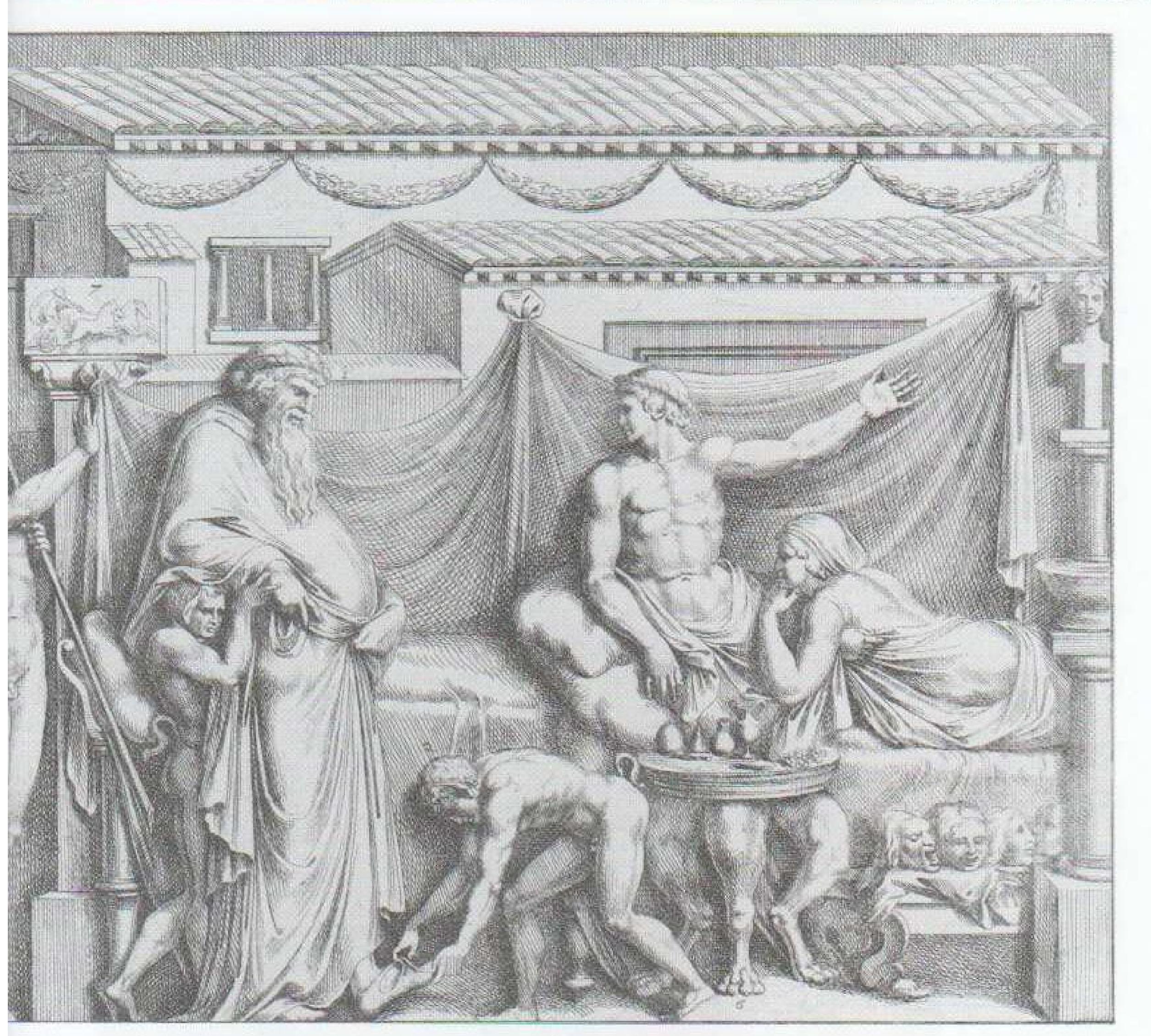
جامع القيء (Puke Collector):

هناك حقيقتان، قد يعرفهما معظم الناس عن الولائم الرومانية. أولاهما: أن المشاركين المدعوين كانوا يتناولون قوارض ذات زغبٍ بالعسل، وثانيهما: أنهم كانوا يندفعون إلى مكانٍ يسمى «المقيئة»، للتخلص منها، وإفساح المجالِ أمامَ المزيدِ من الطعام.

في الحقيقة، واحدةٌ من هاتين الحقيقتين صحيحةٌ، فالرومان كانوا بالفعل يتناولون القوارض المغطسة في العسل، والمزينة بحبوب الخشخاش، وذلك بعد أن يقوم أحد العبيد بانتزاع أحشائها وحشوها، ولم يكن هناك مكانٌ يدعى «المقيئة» في البيت الروماني. كانت كلمة «المقيئة» تطلق على ممرٍ في المدرج الروماني، وسمي بهذا الاسم؛ لأنه كان يؤمّن لآلاف الرومان حرية الوصول- في غضون دقائق- إلى الشارع، حيث يستطيعون التقيؤ.



كان الطعام الرفيع المستوى يعبر عن مكانة مقدمه الاجتماعية. يقوم البيت الروماني الراقي بتجريب أكثر من طباخ للوصول إلى ما يمكن عدّه طباخ الدرجة الأولى، الذي يعمل في العادة مع مجموعة من عبيد المطبخ، كالظاهر في اللوحة الجدارية التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.



قد لا يكون لدى الأرستقراطيين الرومان مكانٌ خاصٌ للتقيؤ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يتقيؤون. حتى إن مستشار نيرو، الفيلسوف سينيكا، قال: إن الرومانيين «يتقيؤون ليتمكنوا من تناول المزيد من الطعام، وهم يأكلون ليتقيؤوا».

وصف سيسرو في واحدة من رسائله كيف أن القيصر قد تجنب محاولةَ اغتياله عندما «أبدى رغبته في التقيؤ بعد العَشاء»، وبدلاً من الذهاب إلى الحمام حيث كان القتلة، ذهب إلى غرفة نومه وتقيأ فيها.

وتشير كثيرٌ من الأدلة إلى أن المجتمِعين على العشاء لم يكونوا يكترثون بمغادرة الغرفة، عندما يكونون بحاجة لأن يجعلوا أنفسهم مغتثة، فقد كانوا يتقيؤون في أوانٍ يتم تزويدهم

بها لهذه الغاية، أو ببساطةٍ على أرضية الغرفة. وكان ثمة من يتنقل بين الضيوف، وحولهم، ومن يزحف تحت الكنبات، التي كانوا يسترخون عليها، ويتحيّن لقيئهم. كان هذا الشخص «جامع القيء». وليست هذه الوظيفة من بنات أفكار الكاتب. وتشير فقرةٌ أخرى لسينيكا إلى عادة البصق والتقيؤ المعقدة والفاتنة: «فعندما كنا نسترخي في الموائد، كان أحد العبيد يمسح البصاق، وكان آخر، وعادةً ما يقبع في الأسفل، يجمع قيء المخمورين».

يا له من عمل مقزز! أن يقوم بمسح خليط الطعام الحاد الرائحة، والأخلاط المتكتلة للخمر الفاليرني، واللحوم المحمرة، والصلصة الرومانية الموجودة في جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية، والمكونة من السمك المخمر، ناهيك عن القوارض نصف المهضومة.

المأدبة الباذخة التي أمر بها حديث النعمة الروماني تريمالكيو، كما تم تصويرها في الساتيركون التي كتبها بيترونيوس.

تعد «مأدبة تريمالكيو» واحدةً من أشهر أجزاء العمل الأدبي المسمى «ساتيريكون»، الذي وضعه بيترونيوس، وهي كوميديا رومانسية خُطَّت في عهد نيرو، وهو الوقت ذاته الذي دخلت فيه الثقافة الرومانية بريطانيا. وكان الهدف من هذا العمل إضفاء المرح حول شطط الرجل السوقي المحرر تريمالكيو (Trimalchio) – وقد كان عبداً في الماضي– في تبذير المال. ويعدّ هذا العمل مصدراً رئيساً لمعلوماتنا حول القوارض بالعسل، ويرسم لنا صورةً شفافةً للمهانةِ التي وصل إليها العبيد، إذ كان يتوقع منهم القيام بكل ما يطلبه أسيادهم.

نادراً ما كان مينالوس يتوقف عن الكلام، عندما كان تريمالكيو يطقطق بأصابعه. وكان على الخادم، عند سماعه الإشارة أن يحمل إناء الغرفة لسيده، بينما كان يقضي حاجته، وكان بعد أن يريح مثانته، يطلب ماءً ليغسل يديه، فيبلل رؤوس أصابعه ويجففها على رأس العبد.

انتقل بنا المشهد، وكلنا دهشة، لمقابلة أغاممنون (Agamemnon) على الباب الخارجي، حيث ثُبت لوحٌ صغيرٌ على ساريته نقشٌ يقول:

«لا يسمح للعبد أن يغادر المبنى وملحقاته دون الحصول على إذن من سيده، فالعقوبة مئة جلدة».

وبعد فترة، استلقينا، وقام الأولاد العبيد من الإسكندرية بسكب الماءِ المبردِ بالثلج على أيدينا، بينما كان آخرون يهتمون بأرجلنا، وأزالوا أظافرنا الطويلة بخفةٍ ومهارةٍ، ولم يكونوا خلال هذه العملية صامتين، بل كانوا جميعهم يغنون، وهم يقومون بعملهم.

وكان هناك على الصينية حمارٌ من البرونز الكورنثي، يحمل سلالاً تحوي الزيتون، الأبيض في واحدة، والأسود في الأخرى. وأحاط به من جانبيه طبقان، حُفِر على حوافِّهما اسم تريمالكيو، ووزن الفضة في كلٍ منهما، وكانت القوارض المرشوشة ببذور الخشخاش والعسل تقدم على وصلات لُحمت إلى الأطباق. وكانت النقانق الحارة على شبكات للشيّ من الفضة، وتحتها كان الخوخ الدمسوني وبذور الرمان.

دخل تريمالكيو، وهو يمسح جبينه ويغسل يديه بالعطر، فقال بعد فترةِ صمتٍ: «اعذروني أيها النبلاء، ولكن معدتي مازالت مضربة عن الطعام منذ بضعة أيام، واختلف الأطباء حول السبب، لهذا إن أراد أي منكم أن يقوم بما هو مضطر للقيام به، فليس هناك داعٍ لأن تشعروا بالخجل، فلم يولد أي منا بلا عيوب أبداً، ولن أعترض على أن يريح أي منكم نفسه في غرفة طعامي عندما يكون مضطراً إلى ذلك، فالأطباء ينصحوننا بعدم دفعه. كل شيء قد تحتاجونه متوفّر في الخارج، وإذا كان الأمر أكثر جديةً، فهناك الماء، والكرسي المغلق، وأي شيء آخر قد تحتاجونه».

ولكن على الأقل يتفيأ جامع القيء ظلال الأسقف التي تعتلي رأسه، ويتمتع بترف التدفئة المركزية الرومانية. هل فكر جامع القيء عقب مغادرة آخر ضيفٍ متخمٍ مكان الوليمة، وبعيد انتهائه من مسح آخر قطرات دهن القوارض المزغبة المتكتل، عن أدواتٍ مائدة سيده، هل فكر بمن هم أقل حظاً منه؟ أقصد أولئك البؤساء المبتلّين، والمرتعشين برداً دوماً في بعض الأراضي القصيّة، الذين كانوا يحفرون بحثاً عن المواد الخام المستخدمة في صنع هذه الأدوات؟

عامل مناجم الذهب (Gold Miner):

إن أحد الأسباب التي دفعت الرومانيين إلى غزو بريطانيا، هو الاستيلاء على معادننا ومصادرنا. كان الرصاص مطلوباً بشدةٍ؛ كي يستخدم في صنع أنابيب المياه، وكان عندما يصهر، يخلط مع القصدير لصنع السبائك. وفضلاً عن ذلك، تم استخراج الفضةِ الموجودة في الرِّكاز لصنع نقودٍ وأدوات للمائدة. وبحلول عام 70 بعد الميلاد، أصبحت بريطانيا المزوِّدَ الأكبر للإمبراطورية من الرصاص والفضة. وأشار الكاتب بلايني ذا إيلدر (Pliny the Elder) في كتابه *التاريخ الطبيعي* إلى توفّر هذه المعادن في المستعمرة الجديدة: «إن الرصاص الذي نستخدمه في تصنيع الأنابيب والصفائح يستخرج من إسبانيا والمقاطعات «الغالية» (Gallic) بجهدٍ وفيرٍ، أما في بريطانيا فهو متوافرٌ على السطح بكمياتٍ ضخمةٍ، حتى إنه تم سنّ قانونٍ لتحديد الإنتاج». ولقد فرض هذا التقنين بعد أن قام الإسبان بالتقدم بشكوى للإمبراطور– فيما يمكن عدّه نسخة مبكرة لتوجيهات أنظمة الاتحاد الأوروبي. وتطلّبَ الحصول على هذا المستوى من الإنتاجية –على الرغم من أن المناجم كانت سطحيةً ومكشوفةً– عملاً مضنياً. ولهذا لقيت ما يزيد على 10 بالمئة من القوة العاملة حتفها سنوياً.

وعلى الرغم من ذلك، كان هناك في بريطانيا الرومانية عمل مناجم أسوأ من هذا بكثير، ونقصد به ذلك الذي يتم من خلاله البحث عن أنَفَس المعادن على الإطلاق: الذهب. كان البحث عن الذهب أسوأها؛ لأنه يتطلب الحفر لأعماقٍ كبيرةٍ. ولقد كان الدخول تحت الأرض عملاً شديد الخطورةِ، وقد يتبادر إلى ذهنك أن هذا العمل كان مخصصاً للعبيد، غير أن هناك أدلةً مستمدةً من مناطق أخرى في أوروبا تشير إلى أن الأحرار كانوا يقومون بهذا العمل أيضاً.



تا ج ذهبي يعبر عن علو كعب الحضارة الرومانية، ولكن لم يكن ليصاغ لولا وجود مهنة تعدّ من أسوأ المهن في التاريخ، ألا هي مهنة عامل مناجم الذهب.

كان ثمةَ منجم روماني للذهب في دولاكوثي (Dolaucothi) في ويلز، وظّف الرومانيون فيه آخر ما توصلوا إليه من تكنولوجيا، فقد كانوا ينقلون الماء لأميالٍ عبر نظامٍ من القنوات إلى خزانين ضخمين فوق تلةٍ مجاورةٍ، ثم يدَعون هذا الماء يتدفق كسيلٍ جارفٍ، لإزالة ما عليها من خضرة وتربة، كاشفاً الصخور الغنية بالكوارتز، التي قد يوجد فيها الذهب. كانت تتمة عملية البحث عن الذهب، بعد هذا العرض المفاجئ والأخّاذ لقوة الهندسة الرومانية، مسألة عملٍ شاقٍ جداً. وتقدر كمية الصخور التي أزالها الرومانيون من دولاكوثي خلال الثلاثمئة عام التي كان خلالها المنجم فاعلاً بنصف مليون طنٍ، تمت إزالتها جميعاً يدوياً.

قام العبيد بهذا العمل، باستخدام أكثر الأدوات بدائية كالمعاول اليدوية، والسلال، والحمالات الخشبيّة المستخدمة في نقل الخامة. ويكمن سبب نقل كمياتٍ ضخمةٍ من الصخور في الطريقة التي يوجد فيها الكوارتز الذي يضم الذهب. إنّ معدنا كالفحم يعدُّ سهل الاستخراج إذا قورن باستخراج الذهب، فالفحم يوجد في طبقاتٍ جيولوجيةٍ تمتد بشكلٍ قطريٍ مع السطح، لكنه دائماً يكمن على شكل ضفائرٍ معروفةٍ بين الطبقات الصخرية ذاتها. وعلى الرغم من أن الكوارتز نتاجٌ لنشاطٍ بركاني قديم، إلا أن لعملية تَقْسية الخام المذاب دوراً في دفعه في فجواتٍ غير منتظمة في الصخر، ولهذا لا يوجد الكوارتز في الطبقات الصخرية الموازية للسطح، ولكن يمكن الحصول عليه في العروق المتشعبة عبر الجبل، التي لا يحكمها نظام، فبعضها يرتفع، وبعضها ينخفض، وبعضها قد يتسع ليصبح مساحةً ضخمةً من الخام، بينما قد يتلاشى بعضها إلى لا شيء. وتعد عملية تعقب العروق لعبةً محبطةً ومخيبةً للآمال تقوم على التجربة والخطأ.

لقد اقتضت طبيعة عمل عمال المناجم، الوجود في متاهاتٍ من الأنفاق. وكانت سقوفها تدعم بالخشب، الذي سرعان ما ينكسر -وفقا لحركة التربة الطبيعية- كعيدان الكبريت. ولهذا، كانت ظروف العمل ضيقةً وخطرةً ومظلمةً. وعلى الرغم من أن عمال المناجم كان لديهم مصابيح توقد بدهن الحيوانات أو زيت الزيتون، إلا أنها بعثت أدخنةً كثيرةً وضوءاً قليلاً. ومن المحتمل أن يشق عمال المناجم طريقهم أحياناً في ظلمةٍ دامسةٍ، كانوا خلالها لايستطيعون التمييز بين الصخر الطيني، والكوارتز الحاد إلا عن طريق اللمس.

ولتنظيف الصخور المحيطة بالطبقة الجيولوجية، قام عمال المناجم بتكديس حزم الحطب على وجه الصخر، وأشعلوا النار فيها، وأبقوها مشتعلةً يومين متصلين، وذلك لتسخين الصخر إلى درجة حرارةٍ عاليةٍ. ولا بدّ أن الظروف قد أصبحت لا تحتمل لأولئك القائمين على إبقاء النار مشتعلة، مع ازدياد درجة الحرارة واندفاع الدخان عبر الأنفاق. وفي ظل هذه الظروف الخانقة، عُدَّت المصابيح القاتمة عديمة الجدوى، ولكن أسوأ جزء لمّا يُذكر بعد.

يبدأ الصخر، عندما يصبح ساخناً جداً، باللمعان، ثم يبرَّدُ بشكلٍ مفاجئٍ عبر رشه بالماء أو الخل، فتنتج عن التقلص المفاجئ الناتج عن اختلاف درجات الحرارة انفجاراتٌ عنيفة.

وكان على عمال المناجم المعرضين للاختناق من أدخنة النار المشتعلة ليومين، أن يتعاملوا مع الصخور المنهارة، والحطام المتطاير في ظلامٍ دامسٍ. وكان عليهم أن يزيلوا الصخور المتراكمة عبر الأنفاق الطويلة يدوياً، ويفرغوها قبل أن يستطيعوا اقتطاع الكوارتز المنكشف لديهم باستخدام معاولهم. انظر القطعة التالية حول هذا الموضوع:

70. وتشبه الطريقة الثالثة لاستخراج الذهب إنجازات العمالقة. يقوم العمال اعتماداً على ضوء المصابيح، بقطع ممراتٍ طويلةٍ في الجبال، كان الرجال يعملون في مناوباتٍ طويلةٍ تقاس بالمصابيح. وقد لا يرون ضوء النهار لأشهرٍ في نهاية الأمر. يسمي المحليون هذه المناجم «العروق الكامنة». وكثيراً ما كانت أسقف هذه المناجم، عرضةً للسقوط وسحق العمال ودفنهم وهم أحياء، مما جعل الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، أو للحصول على سمكٍ أرجوانيٍ من أعماق البحر، إذا ما قورن بالبحث عن الذهب، عملاً آمناً. فلقد تركنا الأرض وراءنا أكثر خطورةٍ. وكان يتم نصْب القناطر على أبعادٍ متكررةٍ لدعم الجبل فوقها.

71. كان عمال المناجم- سواءً في حالات التنجيم المكشوفةِ أو تلك العميقةِ- كثيراً ما يجدون كتلاً من الصوان، التي كانوا يشقونها بإشعالِ النارِ واستخدام الخل. وجعل إشعالُ النار في الممرات العمال يشعرون بحرارةٍ خانقةٍ من الدخان، وكان البديل عن النار استخدام كسّارات من الحديد تزن إحداها مئة وخمسين باونداً. ويقوم العمال بعد ذلك بإزالة الخام من طريقهم، عبر حمله على أكتافهم. كان كل عاملٍ حلقةً من سلسلةٍ بشريةٍ تعمل في الظلام، ومن ير ضوء النهار هو من يحتل آخر الحلقات في السلسلة.

بلايني، ذا إيلدر، التاريخ الطبيعي، الفصل 33.

لقد كان الوصول إلى العروق يمثل البداية فقط، إذ كان عليهم أن يكسروها إلى قطع صغيرةٍ كي يتم حملها، ثم كانت تنقل إلى العراء. إن الكوارتز قاسٍ جداً وهش، ونقاط الذهب فيه ضئيلةٌ للغاية. ولهذا كان يتم تكسير الكوارتز بشكل دقيق، ووضعه في أقمشة صوفية. وبعد ذلك، كان يتم التخلص من الزوائد الصخرية عبر غسلها بالماء، تاركة الذهب– الذي يعد أثقل وزناً– في قاع القماش الصوفي، الذي كان يحرق مخلفاً وراءه نقاطاً ذهبية ضئيلة في الرماد.

لا نعرف كم عاملاً لقي حتفه في دولاكوثي في استخراج الذهب، الذي قد يغدو قطع حليٍ للمواطنين الأثرياء في جميع أرجاء الإمبراطورية. إن من ذهب إلى الجبال الويلزية في الشتاء فقط، يستطيع أن يعرف مدى قسوةِ الأحوال هناك. كان الحصن في دولاكوثي أصغر من أن يتسع لجميع القوى العاملة هناك، ولهذا أسكن العبيد في أخشاشهم. لا بد أن عدداً قليلاً منهم قد ذرف دمعةً واحدةً عندما هجر المنجم في بداية القرن الخامس، وتُرك هامداً حتى بداية العهد الفيكتوري.

ولكن، إذا كان البحث عن الذهب رمزاً للفترة الاستعمارية، فقد كان رمزاً لتعقيد علم الاقتصاد والثقافة الرومانيين أيضاً. إنّ ما حدث بعد تركهم بريطانيا لا يمكن تسميته بالتحسن على الإطلاق.

أسوأ الأعمال في العصور المظلمة

وصل ألاريك القوطي (Alaric the Goth) إلى مشارف روما سنة 410 بعد الميلاد. وكانت الإمبراطورية الغربية في تلك الأثناء تتعرض لاجتياحاتٍ متعاقبةٍ من قبائلٍ معاديةٍ قادمةٍ من الشرق، تكنّ عداء للإمبراطورية. وقد امتدت فيالق الإمبراطورية إلى نقاطٍ بعيدة يمكن القول إن لها أثراً سلبياً على الإمبراطورية، لهذا تم استدعاء القوات من الحدود القصية لحماية القلب النابض لإيطاليا.

وتَرَكَ استدعاء القوات من الحدود فراغاً في السلطة في بريطانيا. وحاول البريطانيون– الرومانيون بعد تعرضهم لهجمات من البيكتس (Picts) والإسكتلنديين والإيرلنديين– أن

يستبدلوا بالفيالق مرتزقةً من القبائل الجرمانية من السكسونيين وظفوا لهذا الغرض.

وكان المحاربان هنجست (Hengest) وهورسا (Horsa) من أوائل من تم استئجارهم. وصل المحاربان بريطانيا عام 450 بعد الميلاد، ومعهم ثلاث سفنٍ من المحاربين. وقع فورتيجيرن (Vortigern) -وهو من كان يقود البريطانيين- في حب ابنة هنجست، ومنحه كنت مهراً للزواج منها. وتكمن المشكلة في أن المرتزقة قد أحبوا المكان كثيراً، كما أخبروا أصدقاءهم. لهذا لم ينقض سوى عامٍ واحدٍ حتى أخذ السكسونيون بالإغارة على القرى والمدن البريطانية.

ورغم المقاومة المستميتة للبريطانيين - الرومانيين، إلا أن البلد سرعان ما أصبح مقراً لسيلٍ لا ينقطع من القبائل القادمة من شمال أوروبا. فاستقر الجوت (Jutes) في الجنوب، وغمر الإنجليز (Angles) الشمال والشرق، مانحين اسمهم لأنجليا الشرقية (East Anglia) وأنجل لاند أو إنجلترا. وأحكم السكسونيون قبضتهم على جنوب شرق أنجليا أو إسيكس (Essex)، والمنطقة الغربية (Wessex)، والمنطقة الجنوبية (Sussex)، والمنطقة المتوسطة ميدلسيكس (Middlesex). إن قسماً كبيراً من لغتنا مستمدٌ من القبائل الأقل شهرةً: الفريزيين (Frisians)، الذين جاؤوا من هولندا.

واستسلمت- في ظل هذا الهجوم الوحشي لثقافةٍ وثنيةٍ حربيةٍ- باقي مناطق بريطانيا الرومانية. واضطر السكان الأصليون من السلتيك (Celtic) إلى اللجوء نحو التلال، ونُسيت الثقافة الكلاسيكية كاملةً، وتم طمسها في فترة نسميها العصور المظلمة.

استقر الغزاة في تجمعات قبلية، وتجنبوا المدن والمعابد. وأصبحت الصروح الرومانية العظيمة معطلةً، ونُسي من بناها. وفي هذا الشأن تمعن قصيدة من القرن العاشر التفكير في البقايا: «إن ما يثير الدهشة هو البناء الذي كان قدَره التهديم، وسقوط أبنية المدينة، وعمل العمالقة الذي أصبح كلّه حطاماً، سقطت الأسقف وأصبحت الأبراج دماراً، وانهدمت البوابات، هناك صقيعٌ وبؤسٌ على القصور، وانهدمت الملاجئ العميقة، وتمزقت وقَوّض أساسها الزمن».

وأصبحت ما تسمى بإنجلترا اليوم تقبع تحت سيطرة ثلاثة محاور قوة: وسيكس في الجنوب، وميرشيا (Mercia) في الوسط، ونورثمبريا (Northumbria)؛ التي كانت تمتد شمالاً حتى

الحدود الإسكتلندية. كان لكل مملكةٍ من هذه الممالك مجتمعٌ له هيكل بالغ التعقيد. وكان على رأسه الملك، ويأتي تحته مباشرة الأرستقراطيون، وهم المحاربون الأشداء الذين قاموا بالقتال ونفذوا إرادة الملك. وبعدهم كان الفلاحون الذين كانوا يقومون بكل شيءٍ آخر. كان أحد الفلاحين يدعى (Ceorl) التي اشتق منها كلمة (Churlish). وهو رجل حرٌ يقبع في أدنى المراتب الأنجلو–سكسونية، وقد كان البقاء على قيد الحياة لهؤلاء أسوأ مهنة.

فلاح العصور المظلمة (Churl):

حمل فلاح العصور الوسطى على كتفيه العبء الاقتصادي لإنجلترا. وعلى الرغم من أنه كان فلاحاً حراً، إلا أن وضعه في العصور المظلمة، وبشكلٍ مثيرٍ للسخرية، ساءَ إلى حدٍ كبيرٍ. فمن المحتمل أنه كان في القرن السادس يمتلك قطعة أرضٍ، ومسؤولاً أمام الملك عن أفعاله، لكن وضعه قبيل الغزو النورماندي تغير تماماً. فقد أصبح يُطلَب منه تقديم الكثير من الخدمات لسيده، وعند وفاته تنتقل أرضه إلى مالك العزبة. كانت حياة هذا الفلاح مليئةً بالعمل المضني الذي لا نهاية له. ولكن علينا ألا نغفل عن حقيقة أن هذا الرجل لم يكن يعمل بمفرده، وإنما كان رئيس عمالٍ كادحٍ، لأولئك الذين ينحدرون من عائلته الممتدة. ولم يكن لهذا الفلاح سوى كرامة تسميته بِحُرٍّ فقط.

لم تكن زوجته، وأطفاله واثنان من العبيد اللذان يشاطرانه القيام بالواجبات بأوفر حظا منه. فلقد كانوا يعدُّون ممتلكاتٍ للفلاح كمعوله وفأسه. وكان الفلاح– بالإضافة إلى عمله الرئيس– حطاباً، ومزارعاً، وطحاناً، وبناءً، وزوجته طحّانةٌ، وحائكةٌ، وخيّاطةٌ وطبّاخةٌ. وكان يتوقع منها، إضافةٍ إلى الإنجاب دون مخدّرٍ معظم سنوات خصوبتها، أن تزرع وتقطع اللحم، وأن تحصد وتغربل، وأن تجر وتكدح. أما أبناء الفلاح، الذين لم يتلقوا تعليماً إطلاقاً، فقد كانوا رعاة أبقارٍ، وخنازير، وأغنام، ونقّالين، وحمّالين معاونين في كل عملٍ. وكان على الفلاح نفسه، نظراً لعدم الاعتراف بفرقة الإسناد التي تعمل معه، وعدم دفع أجورٍ لهم على هذه الأعمال، أن يؤمن لهم سبل العيش، حتى إن أبسط المهام كالبقاء دافئاً كان يتطلب ساعاتٍ طويلةٍ من العمل المضني. كان تقطيع الحطب عبئاً دائماً في العصور السكسونية، فالحطب ضروريٌ لإبقاء نار البيت مشتعلةً. وقد يستغرق تقطيع كمية الحطب المطلوبة يومياً

أربع ساعات. احتاج الفلاح الخشب أيضاً لبناء منزله، فإذا احتاج منزلاً، كان عليه أن يبنيه. وكانت الطريقة المتبعة آنذاك تعتمد على القضبان الخشبية والطين. استخدم الفلاح عصياً رفيعةً ومستقيمةً من أجمة البندق، التي كانت تحنى وتخاط بجهدٍ بالغٍ إنشا بإنش لعمل سياجٍ حاجزٍ، وعليه بعد ذلك تثبيت الأجزاء المخيطة لتشكيل حائط. ولسد الثغرات التي قد يتسرب منها الهواء، توجبت تغطية الجدران بطبقةٍ قاسيةٍ من الطين. ولهذه الغاية، كان الفلاح يستخدم الطين، والقش، وكثيراً من مُكوّنٍ سحريٍ ثالثٍ هو روث الحصان. كان يقوم بخلط المكونات الثلاثة، لتشبه قوام الفطيرة، ثم يلطخها على القضبان الخشبية بيديه العاريتين. ولكن لماذا يستخدم الروث؟ تقوم الألياف المهضومة طبيعياً في الروث بدور اللاصق، فالطين وحده سيسقط عن الجدران عندما يجف.

ولكن حتى مع وجود جدران جديدة حوله وسقف فوق رأسه، كان على فلاحنا أن يبقى حياً، وكانت أبسط المهام تحتاج إلى كثيرٍ من الوقت والجهد، ليس جهده وحده طبعاً، وإنما



تظهر هذه الصورة التي تعود إلى القرون الوسطى أحد مالكي الأراضي وهو يشرف على فلاحين يقومون بحصد القمح، وهؤلاء هم ورثة فلاحي القرون الوسطى.

جهد زوجته أيضاً. فعلى سبيل المثال، لصنع خبز الشعير، وهو الخبز المنتشر حينها، كان على النساء أن يقمن بطحن الشعير يدوياً باستخدام حجر الرحى، ثم كنَّ يعجنَّ الطحين ويخبزنه على النار. كانت عملية طحن الشعير للحصول على طحين يكفي عائلة من اثني عشر فرداً تحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل. لا عجب إذاً أن أسطورة الملك السكسوني ألفرد العظيم كان لها وقعٌ كبيرٌ لدى مستمعي القرن العاشر. إن حرق الخبز يعني ضياع ساعاتٍ طويلةٍ من العمل سدى.

إن كونك فلاحاً لم يكن يعني أن لك عملاً مستقلاً. فإضافة إلى الأعمال القاسية التي عليه القيام بها لإبقاء عائلته حيّة، كان عليه القيام بعملٍ لأجل سيده، ومع مرور القرون، أصبح هذا العبء يثقل كاهله أكثر فأكثر.

كان مقياس الأرض الرئيس في معظم أرجاء إنجلترا السكسونية هو هايد (hide)— وهي المساحة التي يتوقع الفلاح أن يقتات منها. وينص قانون تملك مساحةٍ تعادل عشرة هايدات في وسيكس على أن يقوم الفلاح بمدّ سيده بما هو آت: عشرة أوعيةٍ مليئةٍ بالعسل، وثلاثمئة رغيف، واثني عشر آمبراً (Amber) من شراب المزر (Ale) البريطاني (ويعادل الآمبر ستة غالونات) وثلاثين آمبراً من شراب المزر الصافي. وثورين، وعشر إوزات، وعشرين دجاجةٍ، وعشرة أجبانٍ، وآمبر من الزبدة، وخمسة سلموناتٍ، وما يعادل عشرين باونداً من العلف، ومئة سمكة أنقليس. وكان على فلاحي هيرستبورن بريورز في هامبشاير أن يدفعوا أجراً يبلغ 40 بنساً في العام لكل هايد، والعمل ثلاثة أيام في الأسبوع لمدة تسعة وأربعين أسبوعاً في العام لسيده، وعليه أيضاً أن يقوم بحرث ثلاثة هكتارات من أرض سيده وبذرها، وأن يقص نصف هكتار من مروجه. ليس هذا فحسب، وإنما كان عليه أن يغسل صوف أغنامه ويجزها، وأن يسلم حمولة أربع عربات من الصوف المجزوز والمصنف، بالإضافة إلى ستة عشر عاموداً من عمدان الأسوجة، ونقل الأغنام والخراف، وأشربة المزر، والشعير والقمح. ولكن هناك وظيفة أخرى تقع في قلب العمل الزراعي، وتتطلب القوة والمهارة. فإن كان اسمك (Plowman) أو (Ploughman)، فلا بد أن أجدادك قد مشوا في حقول إنجلترا مجهدين، وذلك لتقديم أساسيات الحياة السكسونية والعصور الوسطى.

الحرّاث (Ploughman):

إن لم تحرث في العصور المظلمة، فلن تتمكن من العيش. إن محصولاً غير وفيرٍ بسبب عدم حرث الحقل بشكلٍ كافٍ، قد يعني المجاعة. كان الجوع حقيقةً يوميةً ملازمةً لطبيعة الحياة هناك. كانت ظروف الحياة قاسيةً جداً، إلى حد أن قانونا أنجلو–سكسونياً قد سمح للأب ببيع ابنه ليغدو عبداً، إذا تبين أنه يحتاج إلى نفقات كبيرة ليس في مقدوره تأمينها. ويشير المؤرخ والراهب السكسوني بيد (Bede) إلى حزم مجموعات الانتحار التي كانت تشهدها سسيكس في القرن السابع عندما كانت تضربها المجاعات، حيث «كان ما ينوف على أربعين أو خمسين شخصاً هزيلاً، يئنون من وطأةِ الجوع، يذهبون إلى جرفٍ عالٍ أو حافة البحر، وهناك يربط بعضهم أيديهم بأيدي بعضهم الآخر، ويقفزون ليموتوا عند ارتطامهم بالأرض أو غرقا».

السيد: ماذا تقول يا حراث؟ كيف لك أن تقوم بعملك؟

الحراث: نعم، يا سيدي، أنا أعمل بكدٍ يا سيدي. أخرج للعمل مع ضوء النهار، سائقاً الثيران إلى الحقل، ثم أضع عليها النير لنبدأ الحراثة. وخوفاً من سيدي، لا أستطيع المكوث في البيت، حتى في أشد ظروف الشتاء قسوةً. وبعد ربط الثيران بالنير وتثبيت شفرات المحراث، علي أن أحرث أكراً واحداً، أو أكثر كل يوم.

السيد: هل لديك مرافقون؟

الحراث: عندي صبي يقوم بقيادة الثيران باستخدام المهماز، وهو الآن أجش الصوت بسبب البرد والصراخ.

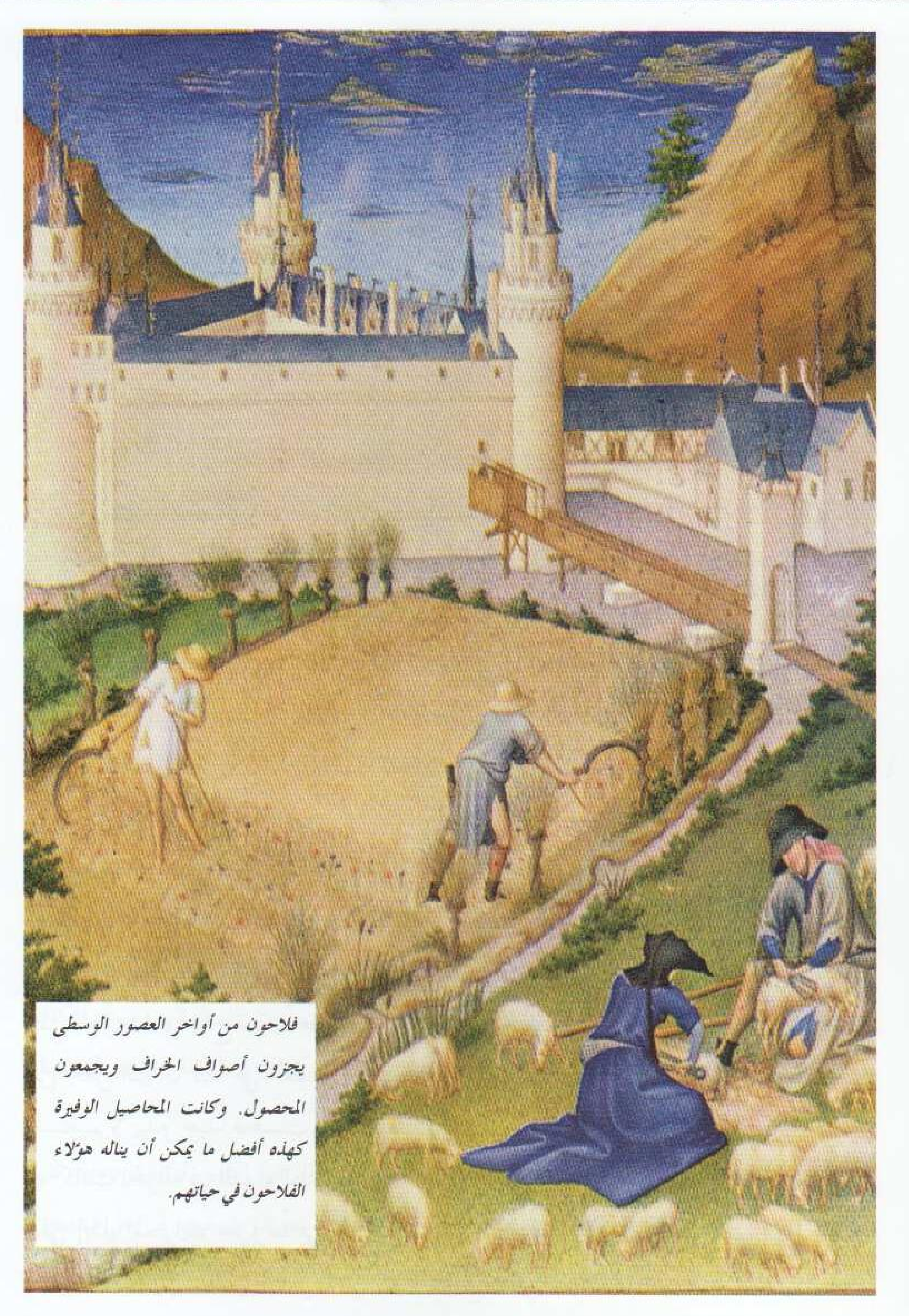
السيد: وماذا تفعل غير هذا في يومك؟

الحراث: أقوم بأكثر من هذا، بالتأكيد علي أن أملأ صناديق الثيران بالقش وأسقيها، وعلي أن أتخلص من روثها.

السيد: نعم، نعم، إنه عملٌ قاسٍ.

الحراث: إنه عملٌ مضنٍ، سيدي، وذلك لأنني لست حراً.

حديث ألفريك، كتبت نحو نهاية القرن العاشر.



فلاحون من أواخر العصور الوسطى يجزون أصواف الخراف ويجمعون المحصول. وكانت المحاصيل الوفيرة كهذه أفضل ما يمكن أن يناله هؤلاء الفلاحون في حياتهم.



فلاحان يقومان بحرث الأرض باستخدام المحراث ذي الخشبة الطويلة المثبتة على ثيران لعوبة.

والحراثة هذه الأيام سهلةٌ إلى حدٍ كبيرٍ، ليس لأن لدينا جرارات، وإنما لأن المحراث المعدني الحديث قد تم تشكيله بصورة مذهلة؛ فهو يغرس في التربة، ويقلبها بسهولةٍ تامةٍ. أما في العصور المظلمة، فقد كانت التكنولوجيا بدائية، وتحتاج إلى مهاراتٍ إضافيةٍ للعمل بها. كان المحراث الأنجلو- سكسوني، يسمى آرد (ard)، وكان يتكون من جذع شجرةٍ طويلٍ ونصلٍ خشبيٍ أو شفرةٍ تبرز أسفل منها. لهذا كان التحكم به صعباً، ويحتاج إلى ضغطٍ دائمٍ لإبقائه في العمق المناسب من الأخدود.

وقد استخدمت الثيران في الحراثة، لأن الحصان كان أسمى من أن يستخدم في هذا الغرض، فهو مناسب في الحرب وشؤونها. (انظر فصل العصور الوسطى، الذي يوضح الثورة في عالم الحراثة، عندما ربطت الخيول بنير الحراثة). إن الثيران بطيئةٌ، ولكنها قادرةٌ على القيام بالعمل على أتم وجه، وتحتاج تدريباً متواصلاً وقدرةً على التحكم بها. وتكمن الحيلة- إذا تمكنت من جعل الثيران تبدأ في العمل- في إبقائها تمشي بخطٍ مستقيمٍ دون توقف. فالأخدود المستقيم لا يبدو جيداً فحسب، وإنما يعطيك أقصى غايات التأثير في إنتاجية التربة.

كانت الحراثة في الهواء الطلق بطيئةً وقاسيةً، وقد كان العمل ثنائياً دائماً، فهناك من يعمل على إبقاء المحراث مغروساً في الأرض، وهناك من يقود الثيران. وفي صورة على تقويم أنجلو- سكسوني، يظهر الرجل الذي يقود القطيع حافي القدمين. نحن لا نعرف إذا كان هذا

هو الوضع الطبيعي، ولكن ستدرك، إذا انغرست أقدامك في الوحل، وإذا اكتست قدماك بالطين، كيف أن المشي وأنت حافي القدمين، قبل اختراع الحذاء طويل الساق، كان أفضل من الخوض في الطين بحذاءٍ خفيفٍ.

لهذا، ليس من المستغرب أن بعض الشباب الواعدين من العائلات الأيسر حالاً قد خرجوا من الحلقة الزراعية وأُرسلوا للدراسة مع النساك، الذين وعدوهم بتعليم وحياةٍ أفضل بتلقينهم الثقافة الرومانية واللغة اللاتينية، اللتين بقيتا موجودتين رغم هيمنة الطرق السكسونية الوثنية لما يزيد على قرنٍ بعد مغادرة الرومان. وحوفظ على هذا الإرث عبر مجتمعاتٍ سلتيةٍ مترهبةٍ في إيرلندا والجزر الإسكتلندية كأيونا (Iona). ومن هذه النقاط الصخرية العصية، انطلق المبشرون المتهيئون لهداية القادمين الجدد من الوثنيين، وأسسوا مجتمعاتٍ أخرى كتلك التي أقيمت في لنديسفارن (Lindisfarne) في نورثمبريا (Northumbria)، حتى إن بعض الرهبان الإنجيلين قد عادوا إلى أوروبا لنشر رسالة المسيح هناك. وبحلول عام 600 بعد الميلاد، كانت حركة إعادة نشر المسيحية في بريطانيا تمشي على قدمٍ وساق.

كانت المسيحية الرهبانية السلتية بطوليةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فقد أدرك الرهبان أنهم إذا أرادوا هداية شعبٍ مقاتلٍ، فعلى ممثلي المسيح أن يكونوا قساةً كالشعب المقاتل تماماً. ولهذا، كانت حياة الرهبنة، التي أصبحت في العصور الوسطى مترفةً ومنحطة القدر، واحدة من أسوأ الأعمال في الفترة الأنجلو- سكسونية.

الراهب المبتدئ (Novice Monk):

ليس لدينا سوى القليل من التفاصيل حول حياة الرهبان السلتيين؛ لأن قوانينهم كانت تنتقل شفوياً، وبقيت غير مكتوبةٍ. غير أن قتامة حياة المجتمعات السلتية وقسوتها كانتا أسطوريتين. نحن نعلم بالتأكيد أنهم كانوا يصومون، وينقادون لطرق إهانة الجسد القاسية، وهي ممارسة مازالت موجودة في الحياة الروحانية الإيرلندية.

ونحن نعرف أيضاً أن الرهبان السلتيين كانوا مختلفين تماماً عن الصورة النموذجية التي نختزنها عن الأخوّة الرهبانية الاعتيادية. فإذا ما ذكر الراهب، استحضرتَ صورة رجلٍ مبتهجٍ- كتلك التي قد تتشكل على هيئته بعض الأكواب- ذي رقعة جرداء فوق رأسه، يرتدي لباساً

أسود ذا قلنسوةٍ، ويردد بعض الأغاني التي تعود إلى العصور الوسطى، غير أنك مخطئٌ لا ريب. فقد ارتدى الرهبان السلتيون أقمشةً غير مصبوغةٍ من صوف الخراف، وكان لهم أناشيدهم السلتية الخاصة بهم عند غناء الترانيم. وكانوا يتعبدون في أبنية أقرب إلى خيام الكشافة منها إلى الكاتدرائيات. حتى إن طريقة قص شعورهم كانت مختلفة؛ لأنها من موروثات الثقافة الرومانية، فقد اتبع الرهبان الطريقة التي كان يحلق بها العبيد رؤوسهم، لإظهار عبوديتهم للمسيح. وبينما كان الرهبان اللاحقون يحلقون الجزء العلوي من الرأس، كان السلتيون يحلقون شعرهم من الجبين إلى الخط الواصل بين الأذنين كما لو كان شعرهم يبدأ من تلك المنطقة.

إن السقيفة التي قد يسكن فيها الراهب المبتدئ عند دخوله الدير لا تختلف في بساطتها وبدائيتها عن تلك التي خرج منها قبل قدومه للترهب. وفي هذا السياق يقول بيد (Bede) «كان عدد البيوت الملاصقة للكنيسة قليلاً جداً، في الحقيقة، لم يكن هناك أكثر مما هو مطلوب لتأمين إقامةٍ يوميةٍ للرهبان». ومما لا شك فيه أن البيوت كانت مصنوعةً من الخشب، والجدران المضفرة والطين، وكانت باردةً جداً في الشتاء. وكان لكل راهبٍ سريره الخاص، الذي لايشبه بأي شكلٍ فرشات سلمبرلاند. وورد عن كاهن اسمه أدومنن (Adomnon) أنه قال: «كان الصخر العاري أريكته، والحجر وسادته».

ولم يكن هناك وقتٌ للراحة على الإطلاق، فلقد كانت حياتهم صلاةً وتعبداً، وتعد مخيمات التدريب العسكري عند مقارنتها بحياة الرهبان منتجعاتٍ ترفيهيةٍ. كان على الرهبان النعسين أن يتركوا رفاه أسرتهم القاسية في الساعة الثانية صباحاً لأداء صلاة الصبح، وكانت تستمر ما يقارب الساعة. وكان في الأديرة الكبيرة ما يسمى بالموقظين، الذين كانوا يطوفون حاملين مصابيحهم لتبهر وجوه أولئك الذين كانوا يغلبهم النعاس. وبعد الانتهاء من صلاة الفجر، كان الرهبان يعودون إلى «زنزاناتهم»؛ ليأخذوا قسطاً من النوم قبل التسبيح عند الفجر، الذي عادة ما يتبعه قداسٌ، فصلاة الساعة الثالثة من النهار، ويتبعها صلاة الساعة السادسة من النهار عند الظهيرة، فصلاة الساعة التاسعة من النهار عند الساعة الثالثة، وصلاة الغروب عند الساعة السادسة، وقبل الذهاب إلى السرير مرةً أخرى عند الساعة الثامنة أو التاسعة. وكانت هذه الصلوات طويلةً، وباللغة اللاتينية. ولهذا ليس مستغرباً، أن قسوة وسائدهم لم تمنعهم من النوم مباشرة.

لم تكن حياة الرهبان قاسيةً فحسب، وإنما كانوا يخضعون لأنظمةٍ قاسيةٍ، فلقد كانت هناك عقوباتٌ محددةٌ لعددٍ من الانتهاكات، التي كان أحدها سرقة نصف ساعة نوم إضافيةٍ. وكانت هذه العقوبات المستمدة من قواعد القديس بينيدكت تتراوح من الضرب إلى الإسجاء أمام الأخوة الرهبان، و(الإسجاء) يعني: «أن يقوم مرتكب الذنب بالاستلقاء على الأرض، ووجهه للأسفل، دون أن ينطق بكلمةٍ، أمام مدخل المنبر تحت أقدام المارّين، وعليه القيام بهذا مراراً وتكراراً حتى يحكم رئيس الدير بانتهاء العقاب. وبناء عليه، وبعد أن ينصاع لأمر رئيس الدير، عليه أن يرمي نفسه على أقدام رئيس الدير، ثم أقدام الجميع ليصلوا له بالغفران».

ولكن معظم النظام والانقياد الموجودين كانا ذاتيي الدافع. فلقد كان الرهبان يشعرون أن الجسد يشكّل عائقاً أمام حياة الروح، ولهذا سلَّم بعضهم أنفسهم لأفعال إهانة الجسد، في حين أن بعضهم الآخر مارس «الاستشهاد الأبيض»، إذ كانوا يعتزلون الناس عزلةً تامةً، ويقضون حياتهم في الصيام والصلاة. ولكن بعضاً منهم قد ذهب إلى أبعد من هذا، فالقديس كوثبيرت (Cuthbert) من ليندیسفارن (Lindesfarne) كان مشهوراً بأفعال التحمل التي كان يقوم بها، والتي نالت احترام السكسونيين القساة:

«وهنا أيضاً كما في أي موضع آخر، تجاوز كوثبيرت المدى، فعندما كان ينام الآخرون كان يقضي ليله يقظان، ويعود إلى بيته في وقت صلاة الصبح. رآه أحد الأخوة في إحدى الليالي يخرج وحده، فتبعه ليرى ما سيفعل، وبعد مغادرة الدير توجه إلى البحر ونزل فيه حتى غمره الماء إلى عنقه وذراعيه، وقضى ليله بالذكر والتحميد، وعندما اقترب الفجر، خرج من الماء وسقط على ركبتيه يصلي، وبينما هو كذلك خرجت من البحر قضاعتان من ذوات الأرجل الأربع، وتمددتا أمامه على الرمال، ونفختا على قدميه، ومسحتاهما بشعرها وبعد أن تلقتا مباركته، قفلتا عائدتين إلى موطنهما الأصلي. ثم عاد كوثبيرت إلى البيت في الوقت المناسب للانضمام إلى الترتيلة الاعتيادية مع باقي الإخوة».

كتاب بيد حياة القديس كوثبيرت

وإذا ما ظن مبتدئٌ قادمٌ من الريف أن هذه الجرعة الهائلة من الروحانية، والتردد المكثف على الكنيسة سيحررانه من الأعباء اليومية القاتلة، التي كان على الفلاح القيام بها، فإنه مخطئٌ تماما. كانت أحكام القديس بينيديكت تستند إلى وجهة النظر القائلة بأن الروحانية شيءٌ سيءٌ ما لم ترتكز على واقعٍ مماثلٍ. كان العمل ركناً أساسياً في حياة الراهب، ولهذا كان عليه أن يقوم بتقطيع الحطب، ورعاية الأغنام، والحراثة، والحصاد، والانغماس في المزيد من الطرق الرهبانية. كانت ساعات العمل، لأسبابٍ عمليةٍ، تتقلب مع تقلب الفصول، كما تنص عليه قاعدة القديس بينديكت:

> كانوا يخرجون– من عيد الفصح حتى مطلع أكتوبر– مع الفجر لمدة أربع ساعات للقيام بما عليهم من أعمالٍ، ثم يكرسون الساعتين التاليتين للقراءة. وبعد ست ساعات، ويكونون حينها قد تناولوا غداءهم، دعهم يستريحون في أسرتهم بهدوءٍ تامٍ. وإذا أراد شخصٌ منهم أن يقرأ لنفسه، فدعه يقم بذلك على ألا يزعج الآخرين. اجعل صلاة الساعة التاسعة مبكرةً بعض الشيء، حول منتصف الساعة الثامنة من النهار، ثم، دعهم يعملون مرة أخرى فيما هو ضروريٌ حتى صلاة الغروب.

وبعيداً عن الأعمال اليومية الاعتيادية، كان هناك مهمة خاصة قام بها الرهبان تستحق أن تسمى أسوأ مهنة.

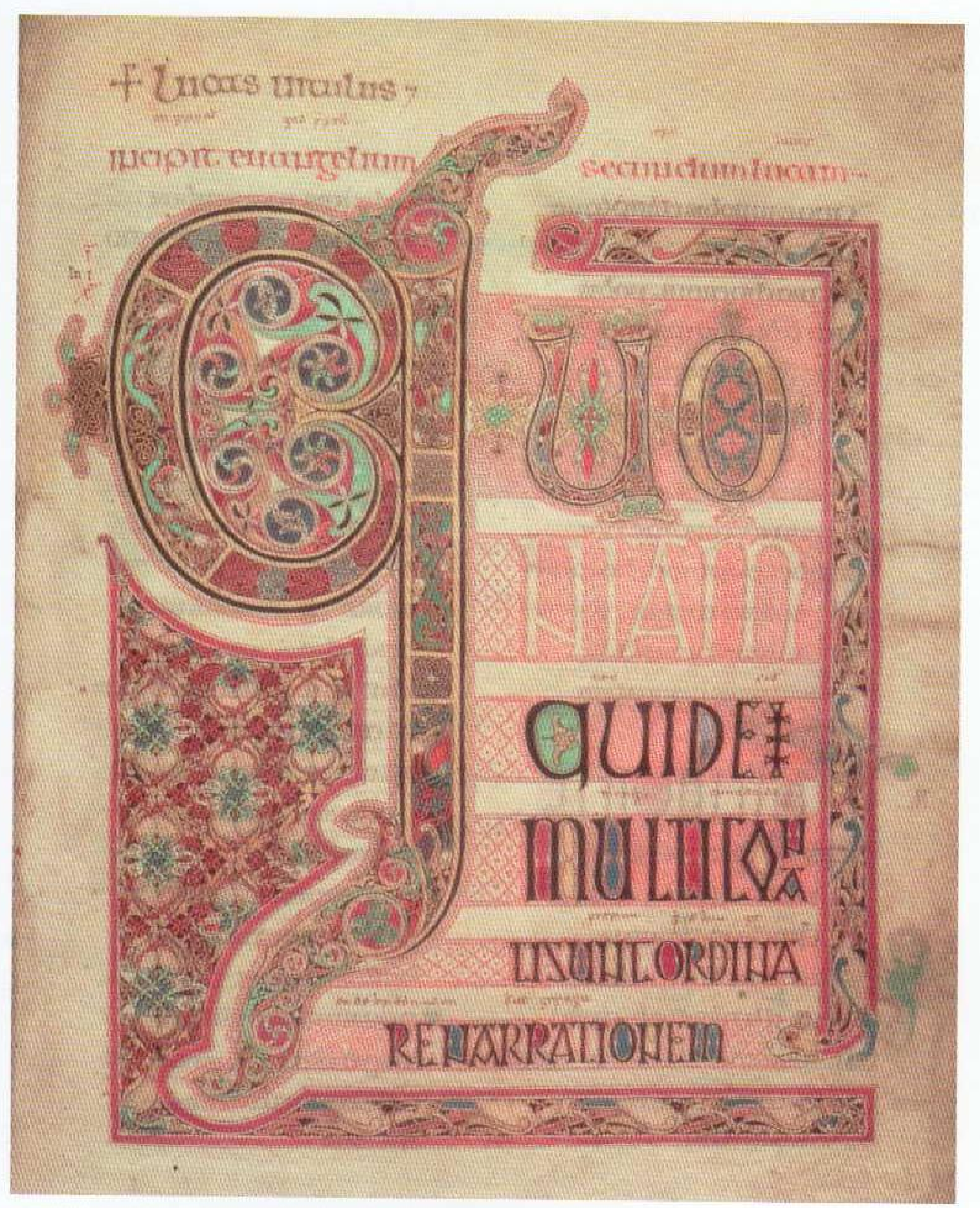
الناسخ المزخرف (Illuminator):

إن أكثر ما تشتهر به كنائس أديرة ليندیسفارن (Lindesfarne) وأيونا (Iona) هي مخطوطاتها المزخرفة. فقد كان لكل دير غرفة كتابةٍ، أو نسخٍ تصنع فيها الكتب وتنسخ. وكغيرها من أبنية الدير، كانت غرفة النسخ لا تعدو كونها بناءً مسقوفا بقش جاف، وفي مثل هذه الأكواخ البسيطة، تم حفظ المعرفة الأوروبية للأجيال اللاحقة. كانت عملية نسخ الكتب في الأيام المظلمة للقرنين السادس والسابع، لا تعدو جزءاً من المجهود التبشيري العظيم لحفظ الثقافة

المسيحية، وكانت توكل عملية النسخ للإخوة الأقل نباهةً.

كان الإنجيل ضرورياً للنشاطات التبشيرية للكنيسة. وعلى الرغم من أن معظم الوعظ والتبشير كان يتم عبر الكلمة المحكية، إلا أن الكنائس والأديرة كانت تحرص على المرجعية المذهبية. وهذا أدى إلى طلبٍ شديد على النصوص المخطوطة، فقد كان المبشرون البريطانيون المنتشرون في مختلف أرجاء القارة، يرسلون مطالباتٍ عاجلةٍ لمراكزهم في الوطن، لتزويدهم بالأعمال المسيحية الأساسية. كان الاهتمام منصباً على ما كان يدعى بالصفحات السجادية المحكَّمة، والمفصلة في المخطوطات السلتية، ولكن العمل المضني الحقيقي هو عملية نسخ هذه الكتب صفحةً تلو الأخرى. لقد أعاد الرهبان إنتاج جميع أنواع الكتب، فاهتماماتهم لم تكن مقتصرةً على الأناجيل، والأعمال المتعلقة بالطقوس الدينية، وعلم اللاهوت، وأعمال الآباء الأوائل في الكنيسة فحسب، وإنما امتدت لتطال النصوص الكلاسيكية لمؤلفين كأمثال: سيسرو، وأفلاطون، وسقراط. فإذا اعتقدتَ أنّ هذا العمل سهلٌ عند مقارنته بالحراثة، فإني أدعوك إلى إعادة النظر في الموضوع.

وتُظهر بعض الصور التشخيصية من العصور الوسطى بعض الرهبان يكتبون في كتب مجلدة، غير أن هذه الصورة كانت خيالاً محضاً. فالكتابة كانت تتم على أوراقٍ منفصلةٍ من الرق المصنوع من جلد الحيوانات، وتضم هذه الأوراق إلى بعضها لإنتاج كتابٍ. كانوا يعملون وهم جلوسٌ على مقاعدٍ طويلةٍ، واستخدموا قرون الحيوانات محابر كانوا بحقٍ ينقشون الحروف على الأوراق، وعندما كانوا ينتهون من ضبط الأسطر للتأكد من استقامتها، كان عليهم ثقب الرق لضبط دليل للنقاط على الحروف. وبدا العمل أشبه بالوشم منه بالكتابة بقلم حبر سائل. كان الحبر صعب المسح، ولهذا كان هذا العمل الصعب مهماً جداً؛ لأنه خالٍ من الأخطاء. وتوجب على الناسخين صنع كل شيءٍ يحتاجونه في عملهم، فللحصول على الحبر، كان عليهم البحث عن شجرة بلوطٍ مناسبةٍ، والبحث فيها عن بيوض الزنابير التي تضعها عادةً في لحاء الشجر قبل أن تموت بعد ذلك، وينتج البيض، عندما يبدأ بالتفقيس، بعض اللعاب، الذي قد يثير استجابة في اللحاء منتجا طبقة قاسية حول اليرقات تعرف بالعفصة. وللعفصة جدارٌ خارجيٌ، وطبقةٌ من نسيجٍ إسفنجي، وشكلٌ داخليٌ صلبٌ يشبه البذرة، وداخلها كانت اليرقات الزنبورية تنمو. يجمع الرهبان تلك العقد من الأشجار ويسحقونها بالمدق والجرن،



أدّت المجتمعات السلتية الرهبانية دوراً مميزاً في تقديم إسهامات خاصة بها في الفن الغربي، إضافة إلى دورها في حفظ الحضارة اللاتينية، ونشر معرفة القراءة والكتابة، والمسيحية. وتعد المخطوطات المصورة واحدة من أعظم الأعمال الفنية التي تم إنتاجها في أوروبا الغربية، كما تعدّ واحدة من أفضل الأعمال المنتجة في بريطانيا قبل عصر النهضة. فقد تم إنتاج كتاب كيلز العظيم في منطقة أيونا، وتم إنتاج إنجيل لينديزفارن تكريماً للقديس كوثبرت على يد أيدفيرث، زهاء العام 700 بعد الميلاد في هولي أيلاند. وتظهر في الصورة الصفحة الأولى لإنجيل القديس لوك، التي تعد غيضاً من فيض إرث تاريخي عظيم.

ويخلطونها بحامض الكبريتيك، والصمغ العربي مع إضافة الخل، وبياض البيض، وماء المطر والبيرة، أو الخمر للحصول على الكثافة والتوازن الحمضي المطلوبين.

كان الرهبان، عند انتهائهم من صنع مستلزمات الكتابة، يبدؤون العمل المضني. ولم يكن شمال شرق إنجلترا بالمكان الملائم لقضاء ساعات طوال في الجلوس دون تدفئة، غير أن هذا كان وضع رهبان ليندسفارن. واعتمد الرهبان على ضوء النهار للحفاظ على بصرهم، بيد أن النوافذ لم تكن مزججة في العصور المظلمة. وكثيراً ما شكا الرهبان من صعوبة الكتابة في أكواخهم المفتوحة لتيارات الهواء. كان النسخ بطيئاً إلى حد بعيد، ويتطلب كثيراً من التركيز. وأمكن معالجة أخطاء ثانوية بمسحها باستخدام سكين، لكن بقعة كبيرة قد تعني إعادة العمل من جديد. وعلى الرغم من أن النسّاخ كانوا يقضون وقتهم جالسين بلا حراك، إلا أن عملهم كان مضنياً للجسد.

ترك لنا بعض الرهبان غير المعروفين سجلا توثيقياً عن شعورهم تجاه هذا العمل السيئ. ففي بعض مخطوطات العصور الوسطى، ترك بعضهم إشارات عابثة على هوامش نصوصهم، مشيرين إلى ما مروا به من ظروفٍ إنسانيةٍ مريرةٍ خلال عملهم في حفظ الثقافة الغربية قبل عصر الطباعة. شكا أحدهم قائلا: «إن فن الكتابة شديد الصعوبة، فهو يتعب العين، ويؤلم الظهر، ويؤدي إلى تشنجات في الأذرع والأرجل». وقال آخر ببساطة: «يا إلهي إنّ الجوّ باردٌ هنا». بينما احتفل ثالث بنهاية يومه في المنسخة بقوله: «لقد أنهيت عملي، أعطني زجاجة من الخمر».

لقد أنتج هؤلاء النسّاخ أعمالا لا تنسى، وذات قيمةٍ عاليةٍ. ولقد كانت المخطوطات الأكثر أهمية تُحاط بأغلفةٍ مكسوة بالجواهر والمعادن النفيسة. ونَتج عن هذا أن أصبحت الأديرة أهدافاً للغزاة، فعندما بدأ الفايكنج في شن غارات على الأرض البريطانية إبان القرن الثامن، تعرضت بعض الأعمال التي استغرق إنتاجها مئات الساعات من العمل المضني للسرقة من أجل غلافها، أو افتُدي بعضها وأعيد إلى المجتمع. قام الفايكنج عام 793 بتدمير لانديسفارن وسرقوا الأناجيل المشهورة. ومما يثلج الصدر أنها استُرجعت بعد غرقها في البحر.

أصبحت هذه الغارات، على مدى مئة سنةٍ لاحقةٍ أسوأ وأسوأ. نزل جيش الفايكينج العظيم أرض أنغليا الشرقية (East Anglia) عام 875، وهزم الغزاة الإسكندنافيون ممالكات

استيقظ ليجد ألسنة اللهب تشتعل عالياً في الهواء- أنه قد خسر أطناناً من الفحم وأياماً من العمل المضني. ولتجنب حصول ذلك الشيء، كان على الفحام الجلوس على مقاعد ذات رجل واحدة، فهو عرضة للسقوط في أية لحظة قد ينحني فيها رأسه ويغشيه النعاس.

عاش الفحامون حياة شبه بدوية في الغابات، فقد كانوا يخيمون حيث يعملون. وتحددت مساكنهم، وفقاً لحاجتهم إلى مراقبة الفرن باستمرار. وعملوا جنباً إلى جنب مع الحطابين، واستخدموا الخشب الصغير، أو ذاك الذي لا يصلح للبناء. كان عليهم جمع اثني عشر طناً من الخشب- كأيكة البندق، والبلوط والزان الأبيض- لإنتاج ثلاثة أطنان من الفحم. وتوجب عليهم قضاء يوم آخر في تقليب التربة لتشكيل كومة ضخمة قطرها سبعة أمتار، وحينها فقط يصبح الفحامون جاهزين لبدء أعمالهم.

بدا عمل الفحام مرهقاً، فحتى إن كان هناك من يساعده ليتناوب معه على المراقبة، فإن ذلك يعني نمطاً غير طبيعي من النوم. والعمل غير صحي أيضاً، فلقد استنشق الفحام دخان الخشب المحترق دائماً.

وكان على الفحام- فور إكمال عملية التفحيم- أن يقوم بتفريغ الفرن، ومن الضروري في هذه الحالة، أن يتأكد من أن الفحم قد وصل إلى البرودة المطلوبة، وإلا فإنه سيشتعل مرة أخرى من غير سابق تحذير. كان عليه- بعد انتهاء فترة مناوبته- التي قد تدوم اثنتين وسبعين ساعة، أو ستاً وتسعين ساعة، أن يقوم بتفريغ الفرن ليلاً. ففي ضوء النهار، يكون الفحم الساخن أبيض اللون، غير أنه يتوقد في الظلام بلون أحمر.

وكان هناك عملٌ آخر عليه القيام به قبل أن ينتقل إلى مستعمرةٍ جديدة بحثا عن عمل، فقد توجب عليه أن يحفر ويعبئ التربة المحترقة من قاع الكومة في أكياس. فهذه التربة تعد مصدراً قيما يوازي في أهميته قيمة الفحم نفسه. فهي المادة الوحيدة، التي قد تشكل غطاء فعالاً لفرنه التالي، وذلك لأن التربة الطبيعية كثيرة المسامات.

ويتلقى الفحام مقابل كل هذا العمل نزراً يسيراً من التقدير على المستويين المادي والنفسي. بيد أن هذا العمل كان شائعاً. ويعد مشهد الفحام، عبر تاريخ بريطانيا الممتد إلى ألفي عام، واحداً مّن المشاهد المألوفة. بل إن عمل الفحام واحد من أسوأ الأعمال الأطول عمراً في هذا الكتاب. ففي أيامنا هذه مازال ثمة فحامون. اعلمْ إذا ما اشتريت كيس فحم بريطاني تقليدي

من أحد المحال المحلية، أن هذا الفحم قد أعده واحد ممن يقاربون ألف فحام، ما يزالون فاعلين في غابات بريطانيا وأحراجها هذه الأيام.

كيف تحرق الفحم

تحتاج إلى ثلاثين أو أربعين ساعة من فراغك، وبعض الحبوب المعينة على اليقظة وأربعة أطنان من الخشب، والنتيجة هي طن واحد من الفحم وبعض الإضافات الفريدة لمفرداتك.



1. هيئ حفرتك: أزل الطبقة العشبية من دائرة قطرها ما يقارب الثلاثة أمتار، تخلص من الحجارة؛ لأنها قد تنفجر في درجة الحرارة العالية.



2. راكم كومتك: كوّم كومة ضخمة من الخشب حول وتد مركزي مستخدما الأغصان والقطع الثانوية. ضع وتدا في الأعلى، فيه فراغ في منتصفه، لتتمكن من إزالته بسهولة. اجمع أجمة السرخس والخنشار، وراكمها فوق الحطب، وغربل التربة التي تم حرقها سابقا لصنع طبقة خارجية للكومة بأكملها. وتسمى هذه الطبقة (sammel) راكمها فوق كومة الخشب، والسرخس، والخنشار لتشكيل طبقة لا ينفذ منها الهواء. وعلى ارتفاع خمسة عشر سنتيمترا، اترك فتحة تسمى





(flipe) وتسمح هذه للهواء بدخول الكومة من الأسفل.

3. أشعل النار: انصب مصدات الرياح والأغصان الملتوية، التي كانت تسمى بالطبقة الغضة، والهدف منها ألا تؤثر الرياح على النار.

اسحب الوتد ذا المقبض، أسقط بعض الفحم المشتعل، وعند إشعال النار، ابدأ بتكويم الفحم، وأغلق الكومة بطبقة عشبية. وتسمى هذه العملية بالخاتمة. ملاحظة: تستمر العملية الأخيرة ست ساعات من لحظة إشعال النار، وذلك عندما تبلغ درجة الحرارة 270 درجة مئوية. احفر ثقوبا في أعلى الكومة، وراقب الدخان. يتغير الدخان من أبيض إلى بني ثم إلى أزرق، وهذه هي اللحظة الحرجة. فعندما يجف الخشب نتيجة الاحتراق، تبدأ طبقة التربة الواقية بالتشقق، وإذا حصل هذا فإن الكثير من الهواء سيدخل وستحترق كومة الخشب. وهذه الطبقة دائمة التقلص، ولهذا ستظهر التشققات بشكل مستمر. أَغلق الثقوب عندما يتغير الدخان ليصبح أزرق، واجعل هناك أخرى في أسفل التل، وذلك لأن الفحم يحترق من الأعلى إلى الأسفل. ويكون الخشب جميعه، عندما يبدأ الدخان الأزرق بالخروج من أسفل ثقب، قد تحول إلى فحم.

4. أطفئ الكومة: اقلب جزءاً من طبقة التربة المحمصة بينما يقوم مساعدك برش الماء على الكومة. ثم أغلق الكومة وراقبها أربعاً وعشرين ساعة حتى تبرد قليلاً. ثم أخرج الفحم.

ولكن إذا كان الفحّام لا يكافأ بما يليق بجهده وساعات عمله الطويلة، فإنه على الأقل قد

يحصل على بعض التعويض على عمله الشاق. وعلى أي حال، هناك من يدين بعمله للفحم الذي صنعه الفحام، ولكنه لم يكن أوفر حظاً من الفحام.

سكّاك العملة (Coin Thrall):

أقام الملك ألفرد نظاما من الحصون، كان بعضها مستعمرات رومانية تم تجديدها، في حين أن بعضها الآخر كان جديدا تماما، وبنيت من الأخشاب والتراب. كانت الحصون ناجحة جدا كقواعد في صدّ الفايكنغ. وشعر التجار بالأمان لإنشاء بعض الأعمال داخل جدران تلك الحصون، حتى إن بعضهم سرعان ما بدأ بإدارة دور لسك العملة. ومع الوقت ازدهرت بعض هذه المستعمرات، وأصبحت بعض أولى مدن إنجلترا الناجحة.

وقد سُكت العملة في بريطانيا قبل العصر الروماني. بيد أن السكسونيين هم من أدخل العملة الرئيسة: القرش عام 765. كان اقتصاد العصور المظلمة في معظمه يقوم على المقايضة والدفع بالمثل، ولكن– ومع استقرار البلد– أصبح سك العملة أكثر أهمية. وقد تلقى سك العملة والتجارة دعماً إضافياً عندما قام ألفرد العظيم بصد الفايكنج إلى منطقة دانلو.

وخضعت دور سك العملة رسمياً إلى إدارة الملك المباشرة. غير أن الملك منح الأثرياء تراخيص لفتح دور سك العملة، وزودهم بالأصباغ والقوالب لإنتاج العملات الرسمية، وكان هؤلاء الأثرياء قادرين– بكل ما تحمله الكلمة من معنى– على كسب ثروات طائلة عبر سك العملة المحلية باسم الملك، غير أن أرباحهم لم يصل منها شيء إلى العاملين معهم.

ولم يتلق هؤلاء العمال أجراً ثابتاً، وإنما كانوا في العادة عبيداً، تلقى على عاتقهم مهمة محبطة، تتمثل في قضاء يومهم وهم يسكون العملة، بينما لا يتلقون قرشاً واحداً كأجر. غير أن قلة المال لم تعوض عبر الرضا الوظيفي. كان عملهم النسخة الأولى من أكثر الأعمال ذات التفاصيل إملالاً.

ويتلخص عمل ساكّ العملة في طبع الخاتم على العملة. كان الحداد يسخن قضيب الفضة، مستخدماً الفحم، حتى يصبح أحمر اللون، ثم يقوم بتبريده، لا في الماء طبعاً، وإنما في مادة قد تجري كجدول ذهبي، إذا ما أسيلت على هذا الكتاب، وهي واحدة من أكثر المواد تنوعا في عالم أسوأ الأعمال. هذه المادة هي البول القديم. إن المعادن الموجودة في البول، تجعله فعالاً



كان لكل ملك محلي في العصور السكسونية الأولى عملة نقدية خاصة به. وقد صنع هذا البيني للملك أوفا، ملك ميرشا (757–796 بعد الميلاد)، وهو الملك الذي قام ببناء سد أوفا.

في تبريد الفضة بسرعة. وبعد أن يبرد، يطرق القضيب ليصبح منبسطاً، ثم تقص أسطوانات فارغة منه عبر أداة قاطعة تشبه مقص المعجنات، أو يدوياً، ثم يتم تشذيبها.

وبعد ذلك تأتي لحظة مجد ساكّ العملة، فيضع القطعة الفارغة على قالب يحمل نقشاً مثبتاً على نضد، ثم يضع قالباً آخر من الأعلى، ويبدأ في طرقه بمطرقة، مما يترك نقشا على جانبي العملة.

يحتاج وصف هذه العملية، بأجمل طريقة ممكنة إلى أربعين كلمة. ولكن العمل نفسه لم يَرُق إلى نصف متعة وصفه. كان ساكّ العملة يعمل يوماً تلو الآخر بين أكوام من الصفائح الفضية، مشكلا مئات الكيلوات من العملة. ولهذا كانت إغراءات السرقة كبيرة جداً. ولا بدّ أن نفسه قد راودته مراراً لسرقة بعضها. ولكن إذا ما طاوعها، فإن العقوبة شديدة القسوة.

فإذا ما وُجدت النقود صغيرة الحجم، فإن ساكّ العملة كان أول من يشار إليه بأصابع الاتهام أنه قص جزءاً منها. ويستطيع الساكّ، إذا قص من القطع ما يزيد على الحد، أن يشكل مخزونا من الرقاقات التي يمكن صهرها وبيعها. وتعد هذه الفعلة تشويها لصورة الملك (وهي

كذلك حتى يومنا هذا) وسرقة في الآن نفسه، وكان مرتكبها يعاقب بإخصائه.

لم يكن قيم دار السك بمأمن إذا ما أراد أن يختلس شيئا، فقد كان يتعرض لبتر أحد أعضائه، إذا وجد أنه كان ينقص من وزن العملة، أو يستخدم خليطا خاطئاً من المعادن. وفي عهد حفيد ألفرد، آثيلستن (Aethelsten)، كان لكل مدينة محصنة دار سك يقوم عليها عدد من المشرفين. سن الملك بنفسه نظاماً من القوانين الصارمة للتحكم بوزن العملة وجودتها:

> يجب أن تكون هناك عملة واحدة فوق الأراضي الخاضعة للملك، وألا يكون لأي دارة سك نقود مرفأ، أو أن تكون قريبة من مرفأ. وإذا ما وُجد ساكّ النقود مذنباً، تقطع يده لقاء ما اقترفت من ذنب، وتعلق في دار سك النقود لتبقى تذكاراً ووصمة على ذلك الشخص، ولتطهير نفسه، يؤخذ الحديد الساخن، وتقطع تلك اليد التي ارتكبت الجرم. وإذا تبين أنه مذنب،



يظهر لنا أولاس ماغنوس (Olaus Magnus) عام 1555 بعض ساكّي العملة المحترفين، وهم يرتدون ثياباً جيدة، ويطرقون صفائح معدنية ساخنة عليها صليب. فقبل ثمانمئة عام كان ساكّو العملة يرتدون خرقا بالية، ويجهدون في ختم تصميم محدد على أطباق أصغر حجماً.

فإن هذا العقاب يغدو سُنّة لكل من تراوده نفسه بالقيام بمثل ما قام به.

ولسوء الحظ، ذهب نصيب كبير من عمل ساكّ النقود المرهق للخارج في عمليات تصدير غير مقصودة. فلم تخف حدة عمليات توسع الفايكنغ حتى بداية القرن الحادي عشر. وبدلاً من أن يقوم الملك الإنجليزي إثيلريد (Ethelred) القليل الخبرة، والذي كان يفتقر إلى النصح، بحشد شعبه للذود عن حدود مملكته كما فعل الملك ألفرد، حاول ببساطة أن يشتري السلام بدفع جزية، أو ما كان يسمى بدانغلد (Danegeld). وعدت هذه الخطوة، شكلا ثقيلا من أشكال الحماية المالية لوقف سلب الفايكنغ لمملكته. دفع الملك للفايكنغ عام 991م، ذهباً يزن عشرة آلاف كيلوغراماً. ولكن عندما أدرك الفايكنغ أن إثيلريد غض البنان، رجعوا طالبين المزيد، ودفع لهم عام 1012م، عشرين ألف كيلوغرام من الجزية. ولكم أن تتخيلوا وقع هذه الفعلة على الاقتصاد. كان عدد القطع النقدية الإنجليزية السكسونية التي وجدت في الدنمارك يكافئ عدد تلك التي وجدت في إنجلترا.

ولكن ماذا عن الفايكنغ؟ لقد جعلوا حياة جميع من يقطن في دائرة غاراتهم المنطلقة من الساحل بائسة. ولكن توجب عليهم هم أنفسهم القيام ببعض الأعمال البائسة.

أسوأ أعمال الفايكنغ

إن الصورة التي نملكها عن الفايكنغ هي الصورة نفسها التي أرادوها لأنفسهم. كانوا يقفزون من سفنهم التي تحمل رؤوس التنانين، مسرعين عبر الساحل بكامل عددهم ولباسهم الحربي، منقضين بلا رحمة على أعدائهم الذين تملكهم الخوف. فهؤلاء هم الفايكنغ، الذين لا يليق بهم سوى الملاحم. ولكن لم تكن خوذهم ذات قرون، فهذه الصورة من محض خيال رسامي الكرتون، والرجال العارضين أجسادهم في حفلات وداع العروس، بل كانوا يدركون في قرارة أنفسهم أنهم أبطال، وأن البطولة تليق بهم. كانت حضارتهم، مثل السكسونيين تماماً، تقوم على المحارب، وكان أعظم مجد فيها الشجاعة الفردية العسكرية، حتى إن جنتهم فالهالا (Valhala) كانت نسخة ربانية من وليمة نصر محارب. كان لدى

الفايكنغ أسماء مشهورة كإريك بلودكس (Eric Bloodaxe) وثورفين العظيم (Thorfinn، the Mighty)، وكانوا يحرصون على أن تهول إنجازاتهم في شعرهم الشعبي.

ولم يكن هناك شك أنهم قساة، فقد كان عليهم أن يكونوا كذلك. وليغزوا، كان عليهم تجشم مشقات كبيرة. إذ كانوا يقضون ليال طوال على متن قوارب مفتوحة في البحر الشمالي ذي البرد القارس.

وكانت سفنهم السريعة مصنوعة من ألواح خشبية متداخلة، ونعني بذلك أنها مبنية حول عارضة صلبة تمتد من المقدمة إلى المؤخرة، ثم تثبت ألواح متداخلة على طول الخط المركزي، إما بتسميرها، أو ربطها بالحبال ببساطة، مما قد يمنحها المزيد من المرونة؛ لتتمكن من ركوب الأمواج، بدلاً من أن تتحمل تأثير الأمواج العاتية. غير أن طريقة الصنع هذه كان لها بعض السلبيات، فقد كان هناك فجوات بين الصفائح، يتم ملؤها عادة بالطحالب، وشعر الحيوانات والقطران. لكن هذا لم يمنع من بقاء السفينة عرضة للغرق. ولهذا كان هناك



بقايا قارب طويل ذي انعطافات أنيقة معروض في متحف سفن الفايكنغ. ويعد هذا القارب واحداً من السفن التي أغرقت في الجروف البحرية زهاء عام 1100، لتكون مصداً للغزاة.

من يقوم بنضح الماء باستمرار وتحت كل الظروف. وأشارت القصة البطولية الأيسلندية (Grettir's saga)، التي تعود إلى القرن الرابع عشر إلى «عملية نضح الماء بالدلو أو الوعاء، أنها عملية شاقة ومضنية». وكان الطاقم المبتل بقارب يتسرب الماء إليه، يتذمر من أن أصابع أفراده قد أصبحت متجمدة وأصابها الخدر. وقد اكتسب البطل غريتر (Grittir) أصدقاءه من خلال نضحه الماء على وتيرة سريعة، كانت تحتاج لثمانية رجال كي يفرغوا الدلاء التي كان يناولهم إياها من قاع القارب.

وأشارت قصة بطولية أخرى تسمى البحار (The Seafarer) إلى المعاناة التي كانوا يتحملونها في البحر:

كيف قاسيت مراراً وتكراراً في أوقات عسرة،
أيام الكدح؟ وكيف دافعت
اللوعة المريرة؟ إن وطني المتأرجح
على ظهر سفينة تقاذفتها الأمواج
حيث كان نصيبي منها مناوبة ليلية كئيبة
على مقدمة المركب بينما يمر بالجروف.
كنت وقد أخمدني البرد، وكبل الجليد قدمي بأغلال جليدية
أغلي بالمشاكل التي أحاطت بقلبي،
وكان الجوع يمزق روحي التي أتعبها البحر.
لا يعرف، من يعيش هونا على اليابسة، كيف
أني قضيت شتائي في البحر القارس؟
بائساً وقلقاً في دروب المنفى،
مفتقدا الأصدقاء الأعزاء، ومحاطاً بالكتل الجليدية المتدلية
بينما كان البرد يتساقط زخات.

ولكن النوم في أعالي البحار، ووصول الخدر إلى يديك، لم يكن سوى بداية مشاكل الفايكنغ. وعادة ما كان العمل الشاق يبدأ عند رؤية اليابسة، وإصدار القبطان أوامره بنقل البضائع إلى البر بالتعدية.

حمال البضائع (Portager):

عندما يصدر الأمر بنقل البضائع، كان كل من على السفينة، بمن فيهم النساء، يغدون حمالين. وكان هذا العمل صعباً للغاية، فقد كان الفايكنغ- إذا تطلب العمل ذلك- يحملون سفنهم الطويلة، وهي التي صنعت خصيصا للماء، ويدفعونها فوق اليابسة.

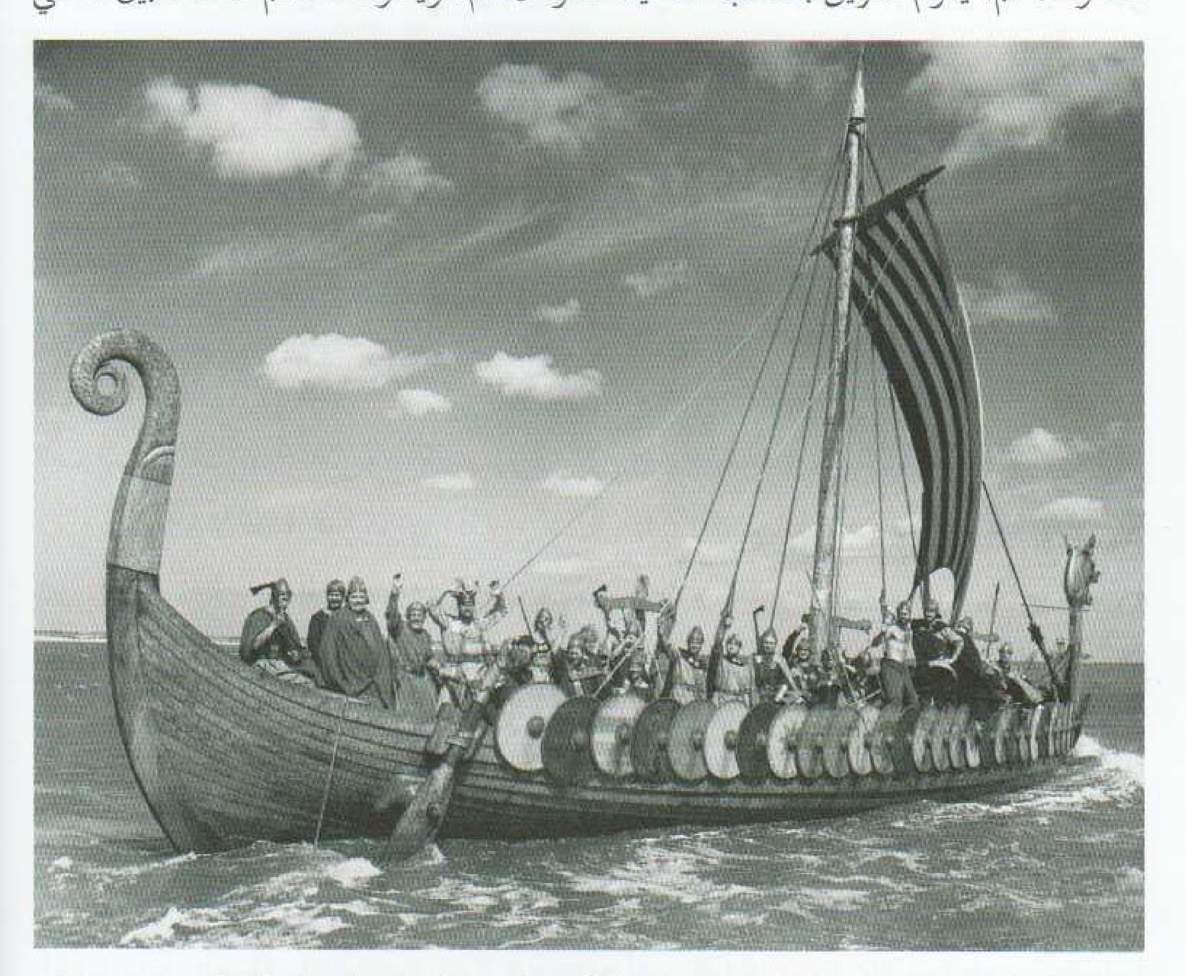
لم يكن العمل بهذا الجنون دوماً. فقد كان لدى الفايكنغ سفن فيها أحدث تكنولوجيا عصرها، إذ كان بإمكانهم- إذا أبحروا- الوصول من الدنمارك إلى بريطانيا في يوم وليلة. لكنهم كانوا يلجؤون، عند اقترابهم من الشاطئ، أو في أوقات لا تجري فيها الرياح حسب ما يشتهون، إلى استخدام قوة العضلات التي قد تقصم الظهور. وحينها تنزل السارية وتخرج المجاديف، ويعرف من جدف في قارب منا، بشكل جدي، مدى صعوبة هذا الأمر. تخيل أن تبحر عكس الريح والمد أياماً متواصلة. كان الفايكنغ إذا وقفوا أمام مضيقين بحريين، أو نهرين أو خليجين تفصلهما مسافة ضيقة من اليابسة، يختارون نقل السفينة فوق اليابسة. وبذا يستطيعون- عبر اتباع هذه التقنية- القفز فوق الأنهار، واختراق مساحات كبيرة من اليابسة لم يتوقع عدوهم وصولهم إليها.

نعرف عن التعدية عند الرومان، من خلال الرسوم التي أدرجها الفنان أولوس ماجنوس (Olaus Magnus) في كتابه حول تاريخ اسكندنافيا، المنشور عام 1000. فقد كان على الفايكنغ رغم قسوة العمل، التعامل مع القارب برفق كي لا يلحقه دمار من أي نوع، وكانت ألواح سفن الفايكنغ لا تعدو عن كونها جذوع أشجار نشرت بشكل نصف قطري، مما جعل هذه العملية دقيقة وتتطلب وقتا طويلاً، ولهذا لم تكن عمليات الإصلاح بعيدا عن الوطن بالفكرة الجيدة. قام الفايكنغ، لحماية العارضة الرئيسة ومنع سفينتهم من الغوص في الأرض، بدفع قواربهم على مجرى خشبي.

فقد كانوا في بداية الأمر يدفعون المركب إلى الشاطئ، ويتخلصون من الوزن الميت كله- ونقصد به السواري، والصناديق والحبال الزائدة وما كان على شاكلتها. ثم يقطعون الجذوع الخشبية إلى أنصاف، ويرصفونها جنباً إلى جنب بعد وضع الجانب المنبسط إلى الأسفل، بزوايا حادة بالاتجاه المراد نقل السفينة إليه. وكانت الفكرة هي الآتي: فمع اندفاع السفينة فوق المدرج، كان على مجموعة من الرجال الإسراع لسحب الألواح الخشبية التي تجاوزتها السفينة

لنقلها أمامها مجدداً. ولجعل العملية أسهل، دهنوا الألواح بالزيت. وتقول أحدث النظريات أن الزيت المستخدم كان زيت سمك الهلبوت، على الرغم من أن أي شيء لزج قد يفي بالغرض. وعلى الأرجح أنهم استخدموا أحشاء السمك المتعفن، أو السمك الصغير، أو حتى الشحم المتبقي من وليمة غنية بالسعرات. لا بد أن رائحة سمك الأسمقري الذي مضى على طبخه أسبوعان، بعد دهنه على جذوع الصنوبر لم تكن من دواعي الفخر في حياة الفايكنغ الملحمية.

وعلى أية حال، فإنه إذا قدر لك عيش بؤس حياة الحمالين القاسية، فستكون شاكراً لزيت السمك. ولقد أدخلت المجاديف الطويلة- التي عادة ما تسبب تقرح الأيدي في غضون دقائق- في فتحات صغيرة على جانبي السفينة، ويستخدمها الدافعون في إحراز تقدم ملحوظ. ثم، يقوم الفريق بسحب السفينة نحو الأمام، ويكون الطاقم مقسما بين دافعي



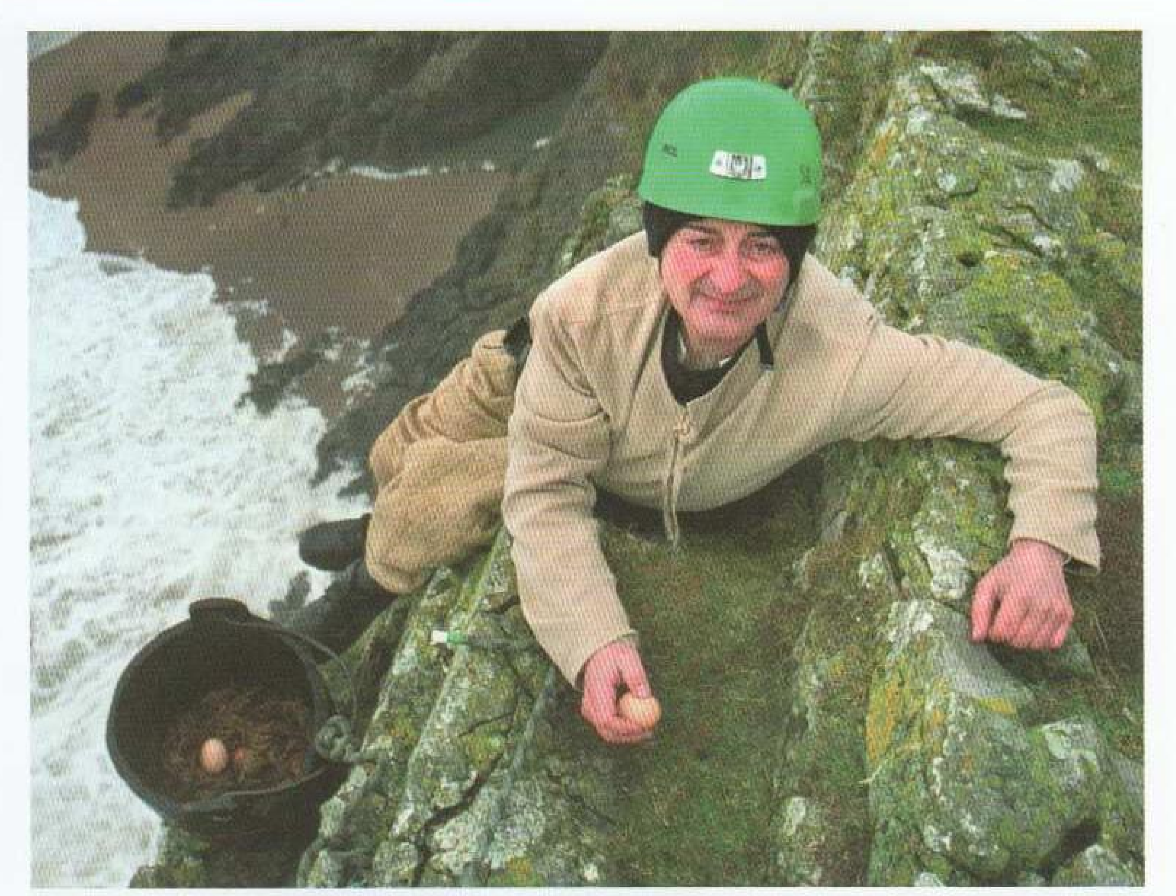
بعض الرجال على متن نسخة من سفينة الفايكنغ هيوغن. وتستطيع قوارب التنين المخيفة ذات الرأس المميز أن تكتسب- بوجود الرياح الملائمة- سرعة تعادل سرعة القوارب ذات المحرك هذه الأيام.

السفينة، وناقلي الجذوع، وأولئك الذين يوجهون السفينة في منتصف الرصيف الممتد من الجذوع. وتكمن الخدعة في التوقيت. وتندفع السفينة بسرعة بمجرد إحراز حركة قوية. غير أن موضع الخطر يكمن في أن تخرج السفينة عن مسارها، وتنجرف نحو الأرض، أو أن تكبح إلى حد الوقوف لعدم وجود مدرج تنزلق عليه، لأن ناقلي الجذوع لم يتمكنوا من مواكبة تقدم السفينة. ومن المؤكد أن هذا العمل سيشعل حرارة عالية فيك، ويشعرك بالإنهاك، وستفوح منك رائحة السمك العفنة، وقد تشعر ببعض الراحة عند شعورك بالبهجة؛ أن السفينة قد انزلقت أخيراً في الماء حيثما قُرّر لها.

ولكن وبعد أن يغسل الفايكنغ الأرقاء أيديهم، فما الطعام الذي قد يتوقون إلى تناوله على العشاء احتفالاً بتحقيق هدفهم؟ كانت خياراتهم محدودة، فقد كان ثمة سمك طازج، وآخر مدخن، وسمك قُدّ مالح وقاس كالصخر، أو بعض الطعام الشهي الذي جعل استهلاك الفايكنغ له واحداً من أسوأ الأعمال. ونعني بهذا الطعام سمك القرش المختمر.

ومازال هذا الطعام لذيذا حتى هذا اليوم في أيسلندا وغرينلاند، على الرغم من أنه ليس له حضور في ساحة المطاعم اللندنية. ولا بد أن هناك من حاول أن يتذوق لحم سمك قرش غرينلاند الطازج دون أن يخمره. بيد أنهم لم يكتبوا عن عملية التخمير؛ لأنها كانت تقوم على استخدام السيانيد. ولكي يصبح السمك آمنا للأكل، كان يدفن في الأرض (بعد إزالة أحشائه والغضروف والرأس). ويترك مدفونا في الأرض مدة ستة أسابيع صيفاً، وثلاثة أشهر شتاء. وخلال هذه الفترة تقوم البكتيريا باختراق السيانيد، ويبدأ السائل بالتدفق من لحم سمك القرش. ويعتقد بعض المؤرخين أنه في العصور القديمة كانت العملية البكتيرية تبدأ بالتبول على اللحم قبل دفنه، ويكون سمك القرش المختمر، عندما يبدأ بالظهور من قبره، ناعما وله رائحة الأمونيا. وبعدها يتم غسله وتعليقه في كوخ تجفيف مدة شهرين. وبعد ذلك، يمكنك إزالةُ القشرة المتشكلة فوقه، وتقطيع السمك إلى أجزاء صغيرة والأكل بنهم شديد، وحينها يمتلك السمك قوام الجبنة الناعمة.

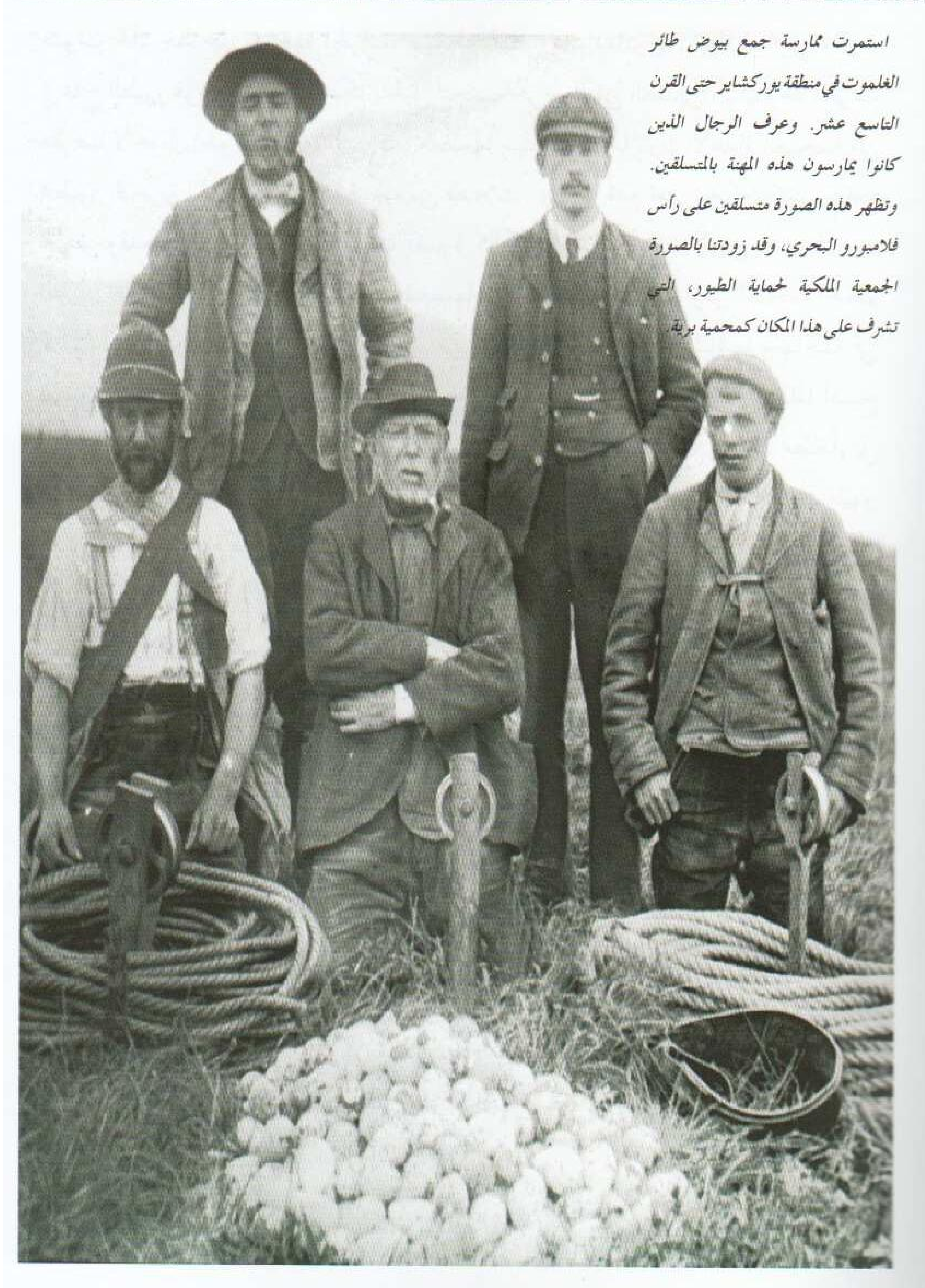
وهكذا، رأينا كيف أن الفايكنغ قد تناولوا طعاما كريها، وكيف أن حياتهم كانت قاسية إلى حد النزول من السفينة، ودفعها فوق اليابسة، ولكن كل عمل قاموا به عدّ نزهة عند مقارنته بأسوأ الأعمال على الإطلاق.



*لم يسبق لي أن قمت بالانحدار من على سفحٍ مرتفع إلا عندما قمت بالنزول على هذا الجرف البالغ ارتفاعه **100** متر بحثاً عن البيض؛ بيض الدجاج لا بيض طائر الغلموت المحمية. فقدت خلال هذه العملية، حذائي السكسوني الجلدي، وانتهى بي الأمر ببعض الإصابات في الركبتين والقدمين، وهو سعر باهظ قد يدفعه أي شخص مقابل أكل العجة.*

وقد تحدث حوادث بالطبع، فالحبل قد يهترىء على الصخور الحادة، وقد تنحل بعض العقد. ولكن الخوف من المرتفعات والشعور الدائم بالتعرض للخطر ليس لهما علاقة باحتمالية حدوث شيء خاطئ. لا بد أن عمل جمع بيض قد بدا خطراً حتى عندما كان يسير العمل على خير ما يرام.

كان العمل شاقاً إلى أبعد حد. فطيور الغلموت تضع بيضها في أفاريز الجروف الصخرية، التي كانت طويلة وحادة، ولهذا كان على جامعي البيض الدوران حول محورها بدلاً من الاقتراب من الجروف من جوانبها، ثم الالتفاف عليها. ولكنهم مازالوا معرضين للخطر، حتى إن أمنوا هذه المخاطر. كان على جامع البيض أن يتحرك بهدوء ورفق، بين الطيور الهاجعة. إن أية حركة مفاجئة، أو انزلاقة قد تدفع أعداداً ضخمة من طيور الغلموت لإطلاق

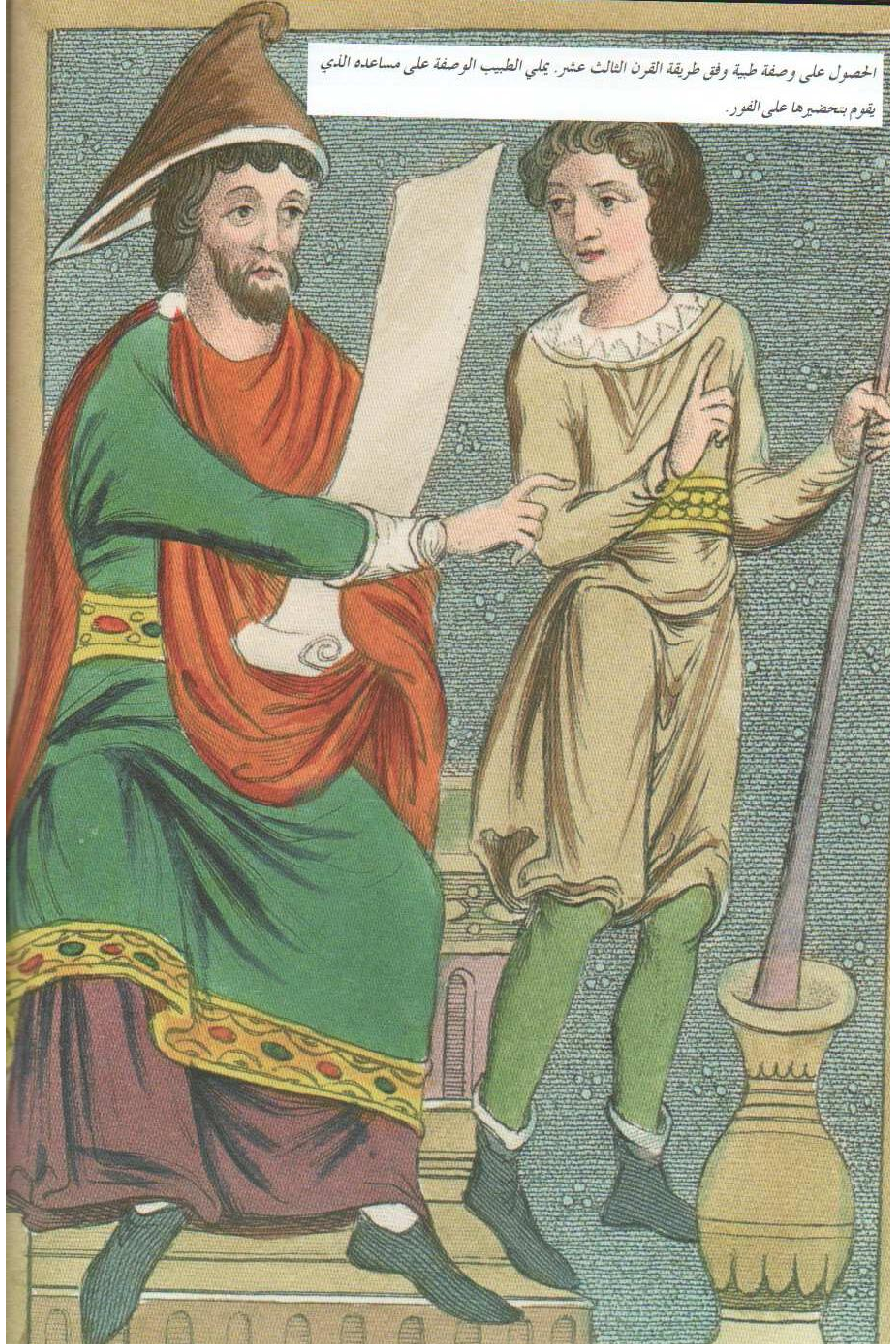


استمرت ممارسة جمع بيوض طائر الغلموت في منطقة يوركشاير حتى القرن التاسع عشر. وعرف الرجال الذين كانوا يمارسون هذه المهنة بالمتسلقين. وتظهر هذه الصورة متسلقين على رأس فلامبورو البحري، وقد زودتنا بالصورة الجمعية الملكية لحماية الطيور، التي تشرف على هذا المكان كمحمية برية.

صوت حاد جدا على واجهة الجرف، مسقطة البيض عند مغادرتها. تتطلب الحركة دون إزعاج الطيور قوة عظيمة، وتمسكاً بالحبل لتجنب جرح ملتقى العقدين. كان وجه الجرف معرضا لأحوال الجو المختلفة، التي كان معظمها سيئاً وعادة ما تترك الأعداد الضخمة من الطيور البحرية الجروف زلقة بما تنتجه من فضلات. إن زلة قدم تعني جرح ركبتي جامع البيض وقدميه، أو التعلق لفترة ليست قصيرة كالكستناء البرية. وفضلاً عن ذلك، ليست الطيور جميعها وديعة كطائر الغلموت، فبعضها كنورس الفسيخ، والنوارس الضخمة الحجم كانت أكثر عدوانية، فهي تحوم فوق رأس من قد يقترب من مواقع أعشاشها وتهاجمه في بعض الأحيان. قد يعتقد بعضنا، نظراً لطبيعة هذا العمل الخطير، أنه اختفى حالما أصبح هناك مصدر طعام كافٍ جعل الناس في غنى عن الغلموت. ولكن هذا لم يحدث مطلقاً، بل إن العمل استمر في بعض أجزاء بريطانيا حتى القرن التاسع عشر. ولحسن الحظ، تعد طيور الغلموت هذه الأيام من الأصناف المهددة بالانقراض في جميع أرجاء الجزر البريطانية. غير أن الوظيفة انقرضت الآن، وتستطيع طيور الغلموت أن تبني أعشاشها في سلام.

انتهى، وبشكل مفاجئ، عهد غارات الفايكنغ عام 1066، عندما قاد هارالد هاردرادا (Harald Hardrada)؛ أحد أكثر محاربي أوروبا هيبة، أسطولاً ضخماً في نهر أوس (Oase) إلى يوركشاير (Yorkshire)، غير أن محاولة الهجوم الضارية قد جوبهت، وصدت من قبل الملك هارولد الثاني ملك إنجلترا في معركة جسر ستامفورد (Stamford Bridge). كان نصره حاسماً شاملاً إلى حد جعل الفايكنغ يجرون أذيالهم مبحرين وعائدين إلى وطنهم، جازمين بعدم العودة مرة أخرى. حافظ الفايكنغ على وعودهم، ولم تتعرض إنكلترا لغارات إسكندنافية أخرى، جعل هذا النصر الملك هارولد يعتلي أعلى مراتب العمل العسكري، غير أن هذا النصر قد انطفأ بهزيمته بعد ثلاثة أسابيع في معركة هاستنغز (Hastings). كان موت هارولد، آخر ملوك الإنجلو- سكسون، علامة على نهاية فترة زمنية وبداية أخرى. وجاء مع وليم الفاتح شعب جديد، ومن عجائب القدر أنّهم منحدرون من الفايكنغ، وجاءت معهم مجموعة جديدة من أسوأ المهن.





الحصول على وصفة طبية وفق طريقة القرن الثالث عشر. يملي الطبيب الوصفة على مساعده الذي يقوم بتحضيرها على الفور.

الفصل الثاني

أسوأ الأعمال في القرون الوسطى

نادراً ما تكون المصطلحات التاريخية أنيقة ودقيقة كما يريدها بعضهم، وقد يكون مصطلح «العصور الوسطى» أقلها دقة على الإطلاق.

لقد وضع هذا المصطلح قبل قرون، للإشارة إلى الفترة الانتقالية بين العصر القديم، الذي يفتقد إلى طراز محدد، والفترة الحديثة التي تبدأ بحكم التيودوريين (Tudors). وإذا كان هذا التعبير مقصوداً، فإنه «عديم الفائدة»، إذ ليس ثمة من شك أننا– في وقت ما– سنتوقف عن استعماله، لأن تلك الفترة ستكون ضاربة في التاريخ، وسنضطر للبحث عن مسمى آخر، بيد أن هذا المصطلح هو ما نملكه الآن.

وتكمن المشكلة في استحالة تحديد تاريخ لبداية العصور الوسطى، فلقد رافق انتهاء الفترة السكسونية الغزوُ النورماندي عام 1066، والإحلال العرقي الكامل للأرستقراطية الإنجليزية، غير أن بذور التغيير الاجتماعي التي آتت أكلها خلال الفترة التي أسماها المؤرخون العصور الوسطى كانت قد غُرست قبل أن يعدَّ وليم الفاتح قواربه استعداداً للحملة الإنجليزية المرجوّة.

وبغض النظر عن تاريخ بداية القرون الوسطى، إلا أنها الفترة التي تبوأت فيها أسوأ المهن مكانة مستقلة، فمع اندماج المدن حول المستعمرات السكسونية والسلتية، وإنشاء هياكل اقتصادية معقدة خاصة بها، بدأ الأفراد بالتوجه نحو التخصص، وأصبحت بعض المهام التي كانت جزءاً من الحياة اليومية وظائف قائمة بذاتها، وعندها سارع العمال المتخصصون لتنظيم أنفسهم في نقابات، ووضعوا لها قوانين ولوائح لتنظيم أعمالهم. وعلى الرغم من شناعة مهنهم، إلا أنها حفظتهم من غدر زمانهم.

إن الصفة المميزة للقرون الوسطى هي التحلل البطيء للنظام الإقطاعي، الذي فرضه وليم الفاتح ومحاربوه. وكان الملك نفسه على رأس هذا النظام القائم على منح الأرض مقابل

الولاء والخدمة. ففي ظل هذا النظام، حارب البارونات العظام من أجل الملك، للإبقاء على مناطقهم وألقابهم، واحتل عبيد الأرض أدنى مراتب النظام الإقطاعي، إذ كانوا ملكا لأسيادهم. وستتفهم دافعك- إذا ما كنت واحداً من أفراد الطبقة الجديدة من المزارعين المتمرسين الأحرار- بألّا تعدّ من أفراد الطبقة الدنيا التي كانت تحرث الأرض.

كان إيقاع التغيير في القرون الوسطى- عند مقارنته بالفترات اللاحقة- بطيئاً. ويمكن عدّه أكثر تطوراً من كونه ثورة. ومن المغري في بعض الأحيان، أن نعدّ فترة الأربعمائة عام بأكملها عملاً سيئاً وكئيباً وطويلاً، اعتماداً على توفر بعض الصور المجازية التي قدمتها لنا فرقة مونتي بايثون المسرحية (Monty Bython) في فيلمها الساخر «الكأس المقدسة» (The Holy Grail). بيد أن هذه الفترة لم تكن بهذا السوء من وجهة نظر شاغلي هذه الوظائف، فمما لا شك فيه أنهم كانوا يرون أنهم يعيشون في العصور الحديثة. ففي لحظة من اللحظات، أصبح أدنى العمال مرتبة مسلوبي العقل أمام أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا من اختراعات غيرت حياتهم. فعلى سبيل المثال، مكنتهم المحاريث الحديثة من استخدام الخيل بدلاً من الثيران، وجعلت طواحين الهواء طحن الذرة عملاً أقل مشقة. وفي بداية القرن الثالث عشر، زودت الدواليب المائية أولى آلات الصناعة بالطاقة، وبذا أصبح عمل القصار (المكلف بإزالة فضلات الأغنام من صوفها) محتملاً إلى حد بعيد.

وتغير مع هذه التغيرات الطابع العام للقرون الوسطى، فقد تم بناء أسوار دفاعية عالية حول مدن كلندن ويورك. وأنشئت قلاع، وأديرة، وكاتدرائيات باستخدام التكنولوجيا القادمة من الخارج. وعلى النهج نفسه، انتشرت بيوت المزارع الحجرية والأبرشيات في جميع البلاد. فأصبح معظم أجزاء إنجلترا- على مدى قرنين من الزمن- مواقع بناء.

ولكن ليست الحجارة ولا البلاط هي التي ميزت القرون الوسطى بشكل عام، وإنما الصورة المثالية للفارس في درعه اللامع. قد تكون هذه الصورة نتاج جرعة مفرطة من الأفلام والمسلسلات التي تفتقر إلى البحث الرصين حول الملك آرثر وإيفانهو (Ivanhoe)، ومن كان على شاكلتهما، وذلك لأن البزة المصفحة لم تُصمّم قبل نصف هذه الفترة.

غير أنه يمكننا القول: إن المعارك كانت من أبرز المعالم السياسية الرئيسة على امتداد العصور الوسطى. فهناك معركة هاستنغز (Hastings)، والحملات الصليبية، وهي الحملات

المسيحية الدولية الوحشية المضلّلة لاستعادة القدس، التي دامت ما يزيد على قرن، وهناك أيضاً المواجهة بين الإنجليز والإسكتلنديين في معركة جسر ستيرلنغ (Stirling Bridge) وبانوكبيرن (Bannockburn)، ومعارك الإنجليز بأقواسهم الطويلة المدمرة ضد الفرنسيين في غريسي (Grecy) وآجنكورت (Agincourt). وأخيراً المعركة التي انتهت بها هذه الفترة، وهي بوسورث (Bosworth)، التي لقي فيها ريتشارد الثالث حتفه، فكان آخر ملكٍ إنجليزيٍ يقتل في معركة.

كانت المعارك حقيقية إلى حد بعيد، غير أن صورة الفارس اللطيف كانت– في مجملها– محض خيال. فلقد تم الترويج لقيم الفروسية المثلى منذ بداية القرن الثاني عشر وما تلاه في كتيبات للخدم، وتم توظيفها في الأدب، ولاسيما تلك القصص التي كانت تدور حول الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة. وقد كانت هذه القصص بعيدة كل البعد عن شؤون حروب القرون الوسطى، كبعد بيغلز (Biggles)؛ الشخصية الرئيسة في سلسلة مغامرات بيغلز للمراهقين، عن الأشياء المرعبة والخنادق. وفي الحقيقة، كثيراً ما كان يتم تكريم الفروسية عند خرقها التعليمات منها عندما يتم الانصياع لها. كنا محقين في قولنا: إن الدرع كان لامعاً، على الأقل في بداية المعركة، ولكن هذا اللمعان لم يكن للفارس دور فيه، فهو لم يستخدم قط قطعة قماش بالية، وعلبة تلميع من نوع براسو (Brasso) لتنظيف درعه، وإنما يعود هذا الفضل لحافد الفارس الذي لا يحسد على عمله.

حامل الدروع / حافد الفارس (Arming Squire):

كان حافد الفارس تابع الرجل النبيلِ في عصر الفروسية. فقد كان متدرباً شاباً يعمل بالمجان، ويقبع في أدنى مراتب الفروسية، وكانت مكافأته المستقبلية أن ينتهي به الأمر فارساً. كانت الفروسية أفضل عمل في ذلك العصر، فقد كان يدر حصصاً مالية مكللة بالمجد، عبر قليل من المخاطرة. كان الأرستقراطيون المقعقعون في دروعهم، آمنين داخل صفائحهم المعدنية، ولكن كيف كانت تبدو حياة الغلمان الذين كانوا يقومون على خدمتهم منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر؟ إن أفضل جواب وأقصره هو أنها كانت تتصف بالقذارة لتعاملها المباشر والدائم مع أسوأ القاذورات (الغائط). ونحن هنا نقصد ما

تعنيه الكلمة حرفياً. فقد يظن بعضنا- والشكر هنا للأفلام والتلفزيون- أن المعركة لا تستمر أكثر من بضع دقائق، ولكنها- في الحقيقة- كانت تستمر لساعات، إذ كان القتال يحدث على فترات وجيزة متقطعة ومتجددة، قد يتمكن خلالها الفارس من شرب كأسٍ من الخمر، أو رشفةٍ من الماء. ولم يكن هناك بالطبع وقتٌ مخصصٌ لقضاء الحاجة. فالبزة المدرعة لم يكن بها أزرارٌ سهلة الفك، أو بناطيلٌ سهلة الإرخاء. فإذا ما أراد الفارس أن يقضي حاجته، فعليه التعايش مع هذا الأمر حتى ينتهي القتال.

ولهذا، قد ينتهي الحال بالفارس في نهاية يوم من القتال إلى وضع مزر، فهو من الخارج ملطخ بالطين ودماء الخيل والرجال، ونحن في غنىً عن وصفه من الداخل، فمعظم المعارك كانت تحدث في الصيف، ولهذا كان يقطر عرقاً حتى إن لم يتحرك قيد أنملة. ولك أن تتخيل مقدار ما يتصببه من عرق في أوج المعركة. وحديثنا هنا عن النصف العلوي للفارس، أما



شكلت مسرحية شكسبير انطباعنا عن معركة آجنكورت، وقد حوت فيما حوت جندي المشاة نيم وباردولف. بيد أن الحقيقة أسوأ من هذه الصورة بكثير، وأكثر ازدحاماً مع وجود أشخاص غير مشتركين في القتال مهمتهم القيام بأسوأ الأعمال.

تعنيه الكلمة حرفياً. فقد يظن بعضنا- والشكر هنا للأفلام والتلفزيون- أن المعركة لا تستمر أكثر من بضع دقائق، ولكنها- في الحقيقة- كانت تستمر لساعات، إذ كان القتال يحدث على فترات وجيزة متقطعة ومتجددة، قد يتمكن خلالها الفارس من شرب كأسٍ من الخمر، أو رشفةٍ من الماء. ولم يكن هناك بالطبع وقتٌ مخصصٌ لقضاء الحاجة. فالبزة المدرعة لم يكن بها أزرارٌ سهلة الفك، أو بناطيلٌ سهلة الإرخاء. فإذا ما أراد الفارس أن يقضي حاجته، فعليه التعايش مع هذا الأمر حتى ينتهي القتال.

ولهذا، قد ينتهي الحال بالفارس في نهاية يوم من القتال إلى وضع مزر، فهو من الخارج ملطخ بالطين ودماء الخيل والرجال، ونحن في غنىً عن وصفه من الداخل، فمعظم المعارك كانت تحدث في الصيف، ولهذا كان يقطر عرقاً حتى إن لم يتحرك قيد أنملة. ولك أن تتخيل مقدار ما يتصببه من عرق في أوج المعركة. وحديثنا هنا عن النصف العلوي للفارس، أما



شكلت مسرحية شكسبير انطباعنا عن معركة آجنكورت، وقد حوت فيما حوت جنديي المشاة تيم وباردولف. بيد أن الحقيقة أسوأ من هذه الصورة بكثير، وأكثر ازدحاماً مع وجود أشخاص غير مشتركين في القتال مهمتهم القيام بأسوأ الأعمال.

النصف السفلي، فوضعه أسوأ، وبخاصة إذا ما كان الفارس مرتعد الفرائص، وحينها ستكون البزة كما لو أنها جاءت من الجحيم.

وأسوأ عمل يقوم به حافد الفارس هو مقابلة سيده فور عودته من المعركة، والتعامل مع القذارة المتراكمة على بزته أو داخلها. كان على حافد الفارس بعد إزالة البزة عن سيده، وإنقاذه بكأس من الخمر، أن ينظف البزة الدرعية ويجهزها لليوم التالي. ولا يستطيع حافد الفارس استخدام الماء في تنظيفها، فهو عظيم القيمة في مثل هذه الظروف، بل كان عليه أن يستخدم مادة كاشطة. وكانت أنجع الطرق وأقلها قذارة تتم بوضع أجزاء الدرع في براميل من الرمل، ومن ثم دحرجتها. ولكن في ظروف المعركة، تصبح براميل الرمل نادرة، لهذا كان على الحافد أن ينظف المعدن بخليط من الرمل والخل وبعض البول.

وكانت العناية بالدرع جزءاً بسيطا من العمل. فقد كان حافد الفارس رهن إشارة سيده، فعليه إلباسه، وقيادة حصانه إلى المعركة. وعليه خدمته أيضاً بينما يتناول طعامه باتّبا ع السلوك المناسب. (وكانت إحدى مهامه أن يتعلم كيف يقطّع له اللحم بطريقة لائقة). وبينما كان الفارس يخلد للنوم على فراش وثير، كان الحافد ينام على الأرض، أو قرب الباب بجانب فراش سيده متحفزاً لتلقي المزيد من الأوامر. ونادرا ما كان الحافد يشارك في المعارك، وإنما كان ينتظر–بفارغ الصبر– عودة سيده، لأن أسلوب صيانة الدرع قد يعني موت صاحبه أو بقاءه حياً.

إلباس الفارس

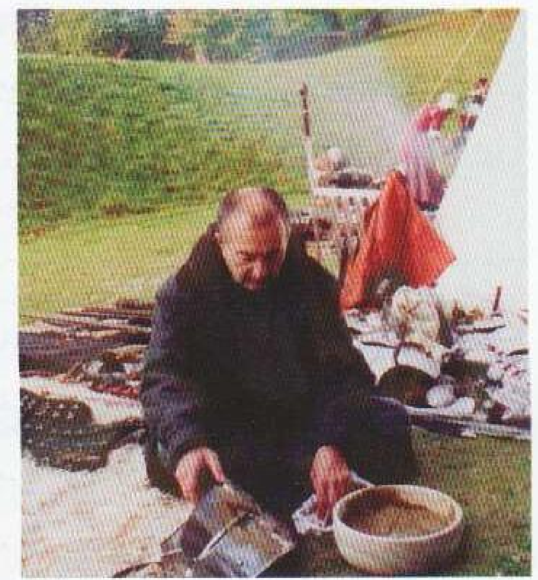


كان لباس الفارس يتكون من أربع وعشرين قطعة منفصلة. تزن هذه القطع أربعة وعشرين كيلوغراماً، وكان الفارس يرتدي تحت الدرع سترة ضيقة، محشوة بالأطلس وزوجاً من البناطيل الداخلية تسمى سراويل ضيقة. ويتم لف ركبتيه برقاقات إضافية من القماش لحمايتها من الاحتكاك مع المعدن. وأول قطعة يرتديها الحذاء المدبب، وهي أحذية مصنوعة من درع مجنزر. ومن ثم، يرتدي درع الساق، وتسمى الأجزاء التي ترتدى على الجزء العلوي من الساق فخذية، وكانت تثبت بمشدات جلدية، ومن ثم، تثبت تنورة درعية إلى الشناكل المتدلية من الشيالات. وبعد ذلك، يضاف الجزء الخلفي المبطن والألواح الدرعية الخلفية، إضافة إلى المعاصم والقفازات التي تحمي ذراع الفارس ويديه. أما أهم جزء في الدرع فهو الخوذة، وهي آخر ما يرتديه الفارس.

وتقع على عاتق الحافد الكثير من المهام التي عليه إنجازها قبل الاقتراب من أرض المعركة، فلقد كان يقضي 90٪ من وقته مسافراً، باحثا عن عدوه، ومحاولاً البقاء على قيد الحياة. إن أي حملة أجنبية قد تعني قضاء شهرين أو ثلاثة على الطريق، وقد تعرضه لمعركتين كاملتين، وبعض المناوشات، إن حالفه الحظ بالبقاء حياً.

ويقضي الحافد وقته خلال فترة السفر والانتظار، في تسلية أصدقائه، أو قراءة آخر قصة من قصص لانسيلوت وجونيفير، ولم يكن لديه وقت للأعمال الهينة ذات المردود السريع،

فلقد كان عليه نصب المخيم ونقضه، ولم يكن يتوقع من الفرسان أن يتنازلوا عن بعض جوانب الرفاهية، التي يعيشونها في حالة السلم، بل كانوا يصرون على الحصول على مستوى الحياة الرفيع ذاته، الذي يعيشونه في الوطن، فقد كان هنري الخامس يجلب معه فرقة موسيقية. وهكذا كان على الحافد أن يضمن لسيده درجة رفيعة من الراحة، فبالإضافة إلى كونه ضابطاً غير مفوض، كان مرافق طريق، ورئيساً للخدم، ومشرفاً على المرحاض.



خليط من الرمل، والخل، والبول؛ يعد هذا الخليط رفيق حافد الفارس حيثما ذهب.

لم يعتد الفرسان السفر بخفة، وتزودنا وثيقة «هاستنغز» التي تعود إلى منتصف القرن الخامس عشر بقائمة ما يجب على الحافد عمله وجلبه إلى ميدان المعركة:

عليه أن ينصب خيمة في الميدان
وعليه أن يحضر كرسياً
وحوض حمام
وخمسة أرغفة من الخبز
وغالون خمر
ومؤونة من اللحم أو السمك
ولوحاً خشبياً ودعامتين لوضع لحمه ومشروبه عليها
وقماشاً عريضاً
وسكيناً لتقطيع اللحمة
وكأساً للشرب
ودزينة من أشرطة ربط أجزاء الدروع
ومطرقة ومسامير وقبعة ذات زوايا

ودزينة من مسامير الدروع
ورمحا وسيفا طويلاً وآخر قصيراً وخنجراً
ومنديلاً لتغطية فتحة الرؤيا في الخوذة
وعلماً مخروطي الشكل ليحمله بيده عند بدء المعركة

ولمعرفة ما يعني هذا على أرض الواقع، دعونا نتناول أشهر معركة في العصور الوسطى، معركة آجينكورت (Agincourt). فماذا عسى الحافد أن يفعل بين شوق الفارس إلى الحصول على إلهام رباني لخوض الحرب، واندفاعه للكرّ مرة أخرى!

كان على الحافد، وباقي المشاة، قبل وصولهم إلى ميدان المعركة، أن يقطعوا 260 ميلاً في سبعة عشر يوماً، يحرصون خلالها على حماية حمولة الدروع، والأثاث والسلاح وأدوات المائدة.

لم يضمر هنري الخامس القتال في معركة آجنكورت، إنما كان يريد نهب مدن شمال فرنسا، وكان موسم الحملة قد شارف على الانتهاء. تلقى الفرسان والحَفَدة في الثامن من أكتوبر أمراً بمغادرة مدينة هارفلير (Harfleur) حاملين معهم مؤونة تكفيهم لثمانية أيام، وذلك لأن وباء الديزينطاريا قد تفشى بالمدينة. وكانت الخطة بأن يفروا من المرض، ويتوجهوا مباشرة إلى إنجلترا عبر ميناء كاليه (Calais).

غير أن الفرنسيين كان لهم رأي آخر، فلقد نصبوا كميناً للإنجليز عند نقطة العبور على نهر سوم (Somme)، مما اضطر الإنجليز للسير على طول النهر باحثين عن نقطة عبور أخرى، ولقد واصلوا مسيرهم مجهَدين في ظروف جوية بالغة السوء، فالمطر الغزير لم يتوقف مطلقاً، وكان على الحافد أن يشرف على نصب الخيام المبتلة، والاعتناء بالدرع السريع الصدأ. وكان على الكثير منهم الاعتناء بأسيادهم خلال نوبات الديزينطاريا التي رافقت الجيش من هارفلير. ولم يضعف الجيش من المرض فحسب، وإنما من قلة الطعام وشح الماء النظيف أيضاً. وقد فاق عدد الإنجليز الذين قضوا نحبهم على الطريق، إلى آجينكورت عدد أولئك الذين لاقوا حتفهم في المعركة نفسها.

ولكنهم اكتشفوا، عندما وجدوا بعد طول عناءٍ وانتظارٍ طريقا فوق نهر سوم، بأن

الفرنسيين قد سدّوا الطريق إلى كاليه بين قرى تريمانكورت (Tremancourt) وأجينكورت
ولهذا كان قرار خوض معركة آجنكورت، التي كانت مسرحاً لأحد أعظم الانتصارات في
التاريخ الإنجليزي، قراراً لا يملك هنري فيه أي خيار.

جاءت الأمطار، التي مُنيَ بها الإنجليز، لمصلحتهم، فلقد جعلت الأرض الواقعة أمام
موقعهم سبخة، وغاص فيها الخيالة الفرنسيون تحت وابل الأسهم الإنجليزية. كان الفرسان
الفرنسيون يحتمون بدروعهم المصفحة، بيد أن خيولهم لم تسلم من ضربات السهام، فرمت
ممتطيها في الطين، وانطلقت مذعورة تخترق مختلف مراتب الجنود الفرنسيين، الذين كا
بعضهم ملتصقاً ببعض في محاولة لتفادي وابل السهام الإنجليزية.

لم تكن سلامة الحافد مضمونة، على الرغم من عدم اشتراكه في القتال. فهو مجرد فرد من
حاشية ضخمة لا *تخوض قتالاً، يطلق عليها «قطار البضاعة»، وتضم، إضافة إلى الحاف*
صانع الدروع، ومساعديه، وصانع الأقواس، وصانع السهام، والطبّاخين وكل من كان ع
شاكلتهم، وما من شأنه ضمان تقدم الجنود وتمكنهم من القتال. ووفقا لمسرحية شكس
«هنري الخامس»، قام الفرنسيون في آجينكورت بالقضاء على قطار المؤن، وكان هذا الهج
مغايراً لقواعد الحرب، مما أغضب هنري وجعله يأمر بقتل السجناء الفرنسيين. ولكن، حر
بنا ألا نقبل رواية شكسبير كحقيقة تاريخية مسلّم بها، فوفقاً لقواعد الفروسية، كان الفرس
الذين يقعون في الأسر يُحجَزون أحياء، وتتم إعادتهم إلى عائلاتهم مقابل فدية. غير أن هنر
واجه في آجينكورت مشكلة لوجستية، فلقد فاق عدد السجناء الفرنسيين قدرة سجاني
الإنجليز على السيطرة عليهم، فأصدر أمراً وحشياً بإعدامهم، لهذا قد تكون قصة الهج
على قطار المؤن ضرباً من الخيال حيك لتبرير هذه المذبحة.

وقلما كان يطلَب من الحافد الانضمام إلى سيده في ميدان المعركة، وإذا طلب منه ذلك
فلن يكون محميا كسيده، وقد يسبّب له ذلك إصابات بالغة، أو يعاني الموت المحتم. ولم يك
هناك سيارات إسعاف القديس جون تجوب المكان بحمالاتها باحثة عن مصابين. وكان عل
الرماة، الذين أحرزوا النصر في آجينكورت، أن يقوموا بعملٍ أخيرٍ فور توقف القتال، فلق
كانوا يجوبون ميدان المعركة المغطى بالدماء بحثاً عن المصابين إصابات بالغة، ليضعوا ح
لبؤسهم بغرس خنجر عبر فتحة الخوذة أو في منطقة الأعضاء التناسلية الحساسة حيث توج

طبقة سميكة من القماش غير مغطاة بالجنزير أو الدرع المصفحة.

إن حياة الحافد مليئة بالقسوة، والتعب، والغائط. وقد ينتهي به الأمر، وببساطة تامة، قتيلاً في ميدان المعركة. ولكن إذا كان كل ما يريده الفتى في حياته هو الدم، والأحشاء ورائحة فضلات جسم الإنسان، فليس عليه السفر عبر أوروبا، بل الاشتغال في عالم طب القرون الوسطى المظلم.

الجراح الحلاق (Barber Surgeon):

إلى من تسعى إذا ما تهشمت يدك؟ إلى عالم فلكٍ، أم إلى طبيب حوادثٍ وطوارئ، أم إلى الحلاق؟ لم يكن هناك في القرون الوسطى خيارات واسعة كتلك التي نشاهدها هذه الأيام، ذلك لأن عمل الجراح الحلاق كان يضم جميع المهارات الآنفة الذكر.

خضعت جميع المهن والصناعات الرئيسة لرقابة النقابة، التي وضعت مواصفات لأعضائها المؤهلين. وسمح لأعضاء نقابة الجراحين الحلاقين باستعمال الشفرات، فهم مؤهلون تماماً لحلاقة ذقنك، أو قص شعرك، أو قطع رجلك. إن العمود المخطط بالأبيض والأحمر، الذي كنا نشاهده حتى فترة قريبة خارج محال الحلاقين، كان رمزاً معبراً عن



صورة لبعض الأطباء الأجلاء رسمها أولاس ماغنوس، وهم يحاولون التخلص، وبحرص، من مخلفات الجراحة.

مهنة الجراح الحلاق. ويرمز اللون الأبيض إلى الضمادات، بينما يرمز الأحمر إلى
النازف من الجرح.

كانت رسوم الاستشارة والجراحة مرتفعة، لهذا كان الزبائن قليلين جداً ومتفرقين
جعل مهاراتهم في تصفيف الشعر ذات فائدة بالغة، فهي تدرّ دخلاً ثابتاً عليهم في أوق
الشدة، هذا إلى جانب أعمال طب الأسنان المتفرقة. وقد تتم في بعض الأوقات الس
مقاضاة الحلاق، وقد يصبح من المتعذر عليه جمع رسومه من الزبائن. ولهذا قام بع
أصحاب هذه المهنة بالاحتفاظ بصكوكٍ، أو ضماناتٍ من الزبائن تحسباً لقيام الزبون بر
دفع الرسوم في حال كانت العملية خاطئة. غير أن هذا الإجراء كان خطيراً. فعلى س
المثال، تلقى مريضٌ يدعى أليس ستوكينج تعويضاً مقداره 32 جنيهاً استرلينياً عام 1230، وذ
بعد أن قام أحد الجراحين بأخذ ما قيمته 20 شيلناً من ممتلكات بيت المريض كتعويض، لأ
يقم بدفع فاتورته.

وعدت الجراحة الطارئة أكثر أعمال الحلاق سوءاً، فقد تحتاج بعض الأعضاء المهش
والجراح المصابة بالغرغرينا إلى البتر، الذي تم دون استخدام مخدر لعدم توفره، وكان ع
الجراح الحلاق أن يقطع اللحم والعضلات، ويرفع اللحم عن العظم ككم قميص صو
وينشر عظم اليد أو الرجل، ويخيط الجلد، وكان هذا مصحوباً بصرخات الألم والرعب، ا
يصدرها صاحب الجسم المتلوي ألماً وتعباً. وجوهر هذه العملية هي السرعة. لهذا كا



يتأمل المؤلف الحقنة الشرجية الطويلة، والباردة، التي تدور حولها علامات استفهام كثيرة من حيث جدواها الطبية، لكنها قد تكون مفيدة إن استخدمها من هو عالم بها.

بعض الأدوات كالسكين الملفوفة، التي كا
تستخدم في قص العضو من جميع أطرافه د
أن يتم تغيير النصل، لا تقدر بثمن.

كان الجراح الحلاق بحاجة إلى مهارات
علم التنجيم، فطب القرون الوسطى كان يق
على علم زائف عمره 1500 عام، ولم يكن قا
على الدراسة التشريحية، وإنما على مفاه
صوفية قديمة حول طبيعة العالم. فقد تأثر ط
القرون الوسطى بشكل كبير بأفكار الكات

الإغريقي أبقراط (Hippocrates)، الذي ذهب إلى أن العالم بأكمله مكون من أربعة عناصر هي: التراب، والهواء والنار والماء. وتبعا لهذه الفكرة، يختلف الناس فيما بينهم تبعاً لتفاوت هذه العناصر في أجسامهم أو ما كان يسمّى «حالة النفس». والشخص السليم هو من كانت العناصر الأربعة في جسمه متوازنة بشكل صحيح.

ولم يطرأ بعد مرور ألف وخمسمئة عام على نظرية أبقراط أي تغيير جذري. ويستطيع الجراح بالنظر إلى شكل المريض وبشرته، أن يحدد المزاج المهيمن على المريض: التفاؤل، أو البرود، أو الحدة، أو التشاؤم. واعتماداً على ذلك، يستطيع عبر تحليل عينة من دم المريض، ومقارنتها بجدول، أن يرى الخلل المزاجي الواجب تصحيحه.

وتعد هذه العملية من أكثر أعمال الجراح كراهة. فلم يكن لديهم في العصور الوسطى ورق عباد شمس أو تحاليل مخبرية. وقد يتطلب تشخيص المرض الحصول على عينة بول في قارورة منحنية كان يطلق عليها جوردن (Jordan)، ومن ثم يقوم الجراح بالاعتماد على جدول أعد مسبقا بفحص البول وشمّه– وفي بعض الأحيان– تذوقه.

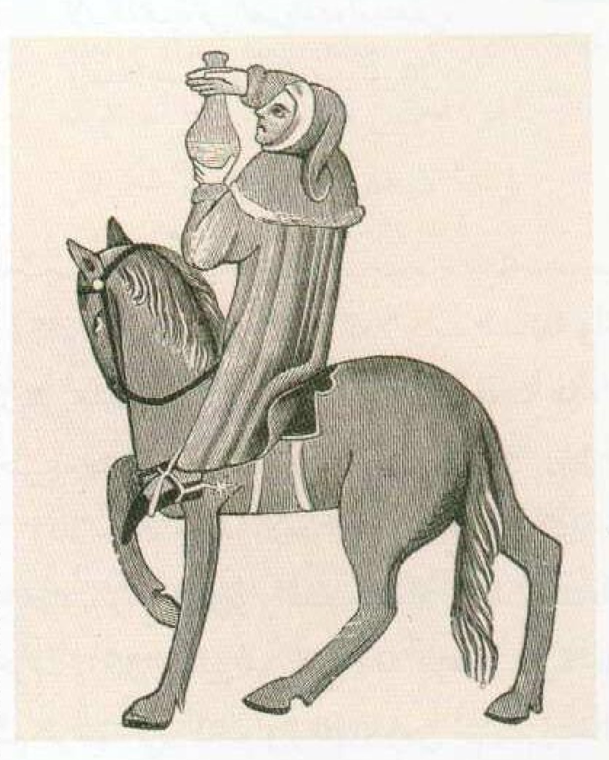
ويستطيع الجراح في حال تمكنه من تحديد أعراض المرض، أن يصف العلاج اللازم. فإذا كان المريض يشكو من نقص، أو وفرة زائدة في الدم، فقد يكون العلاج الحمية أو التمارين، أو الأدوية المسهلة، أو تلك المدرة للبول، أو الحجامة، أو مزيجاً من هذه الأدوية.

واستخدم الجراح، للتخلص من الصفراء أو عصارة المرارة، حقنة يتم بواسطتها إدخال أجسام مضادة داخل جسم المريض، وكان الأنبوب المعدني الطويل ينتهي بفتحتين، ويدهن بمادة دهنية، ومن ثم يتم إدخاله في جسم المريض عبر فتحة الشرج بطول ستة إنشات، وعبر العضلات العاصرة. وكانت وصفة الأجسام المضادة تتكون من خليط من الأعشاب والماء والخبيز، والبابونج الأخضر، والنخالة البيضاء، والملح والعسل والصابون.

وكان الجراح يضع الخليط في مثانة خنزير مثبتة في نهاية الحقنة، ومن ثم يضغط عليها لدفع السائل للخروج عبر فتحات الأنبوب داخل جسم المريض. قد تكون هذه العملية بأكملها فجة ومستهجنة، لكنها كانت تمنح المريض تروية بدائية للقولون، قد ينتج عنها بعض الفائدة.

وقد استخدم الجراح الحقنة الشرجية أيضاً في تغذية المرضى الضعاف، فلقد كان الاعتقاد

السائد أن المعدة تنّور، وقد يصبح هذا التنّور في بعض الأحيان شديد الحرارة، فلا يتمكن حينها بعض المرضى الضعاف من هضم الطعام بشكل جيد. وفي هذه الحالة، كان يضخ الطعام عبر الشرج. ولا بد أن هذه العملية كانت مؤلمة جداً، والأسوأ من ذلك، أنها لم تكن ذات قيمة علاجية ترجى.



وكان معنا طبيب،
لم أعرف مثيلاً له في كل أرجاء العالم،
يتحدث حول الجسد والجراحة،
وكان ذا باع طويل بالتنجيم.
ويخص مريضه بعناية فائقة،
اعتماداً على العلم الطبيعي ودراسة العلامات الفلكية،
فقد كان قادراً على حساب مواقع النجوم
لتحسين حالة مريضة عبرها.
وعرف سبب كل مرض،
سواء أكان معه حرارة أم برودة، أم رطوبة أم جفاف.
وما أسبابها، وأي مزاج يغلب عليها،
وكان ممارسا جيدا للطب،
وحال معرفته السبب، وأصل المرض،
يسارع لإعطاء المريض الدواء.
كان دائماً مستعداً، بعقاقيره
لتزويد المريض بالدواء والمعاجين الفموية.
وفي طعامه كان متواضعا قدر ما يستطيع
لم يكن هناك من أحد يستطيع لومه بالإفراط،
ولكنه يتغذى بوفر ويهضم ما يأكل.

ونادراً ما كانت دراسته تعتمد على الكتاب المقدس،
وملابسه زرقاء وقرمزية
ومبطنة بالحبر والحرير،
ومع هذا، فلقد كان حريصاً فيما يتعلق بمصروفه.
كان يحفظ الذهب الذي كان يجنيه من علاج مرض مميت،
لأن الذهب في الفيزياء دواء منعش،
ولهذا أحب ذهبه أكثر من كل شيء».

قصص كانتر بيري: المقدمة العامة 444-411.

كان فصد الدم من أشهر العلاجات الشائعة وأكثرها قذارة. قد تبدو فكرة سلب رجل مريض مقداراً وافراً من دمه فكرة مستهجنة هذه الأيام، ولكن هذه الممارسة ظلت متبعة حتى بداية القرن التاسع عشر.

وقد استُخدم هذا الإجراء في علاج عدد كبير من الأمراض، بداية بالصداع والأكزيما، وانتهاء بالمزاج الشرير والتطهير العام للكبد. استخدم الجراح لفصد الدم مبضعاً على شكل حرف (U) بالإنجليزية، ينتهي أحد طرفيه بشفرة حادة طولها نصف إنش على شكل شوكة، يتم غرسها في اللحم وإزالتها، ومن ثم يتم إدخال الطرف الآخر لإبقاء الجرح مفتوحاً، فيتدفق منه الدم. ومن المثير أن نعلم أنّ رأس المبضع كان يغرس في النقاط ذاتها التي يستهدفها علاج الوخز بالإبر هذه الأيام. ولقد قام ثلاثة أطباء وجراحين عام 1454 بعلاج الملك هنري السادس من مرض عقلي أصابه، وكان من ضمن ما أوصى به هؤلاء الأطباء والجراحون في علاج مرضاهم المصابين بالاكتئاب النفسي هو:

«شدّ شعرهم وأنوفهم، واضغط على أصابع أرجلهم وأصابع أيديهم بشدة، واجعل الخنازير تزعق في آذانهم وأعطهم حقنة شرجية في البداية، وافتح وريد الرأس أو الأنف باستخدام شعر الخنزير البري المتسمر».

أما علاجهم المحدد للملك هنري فهو:



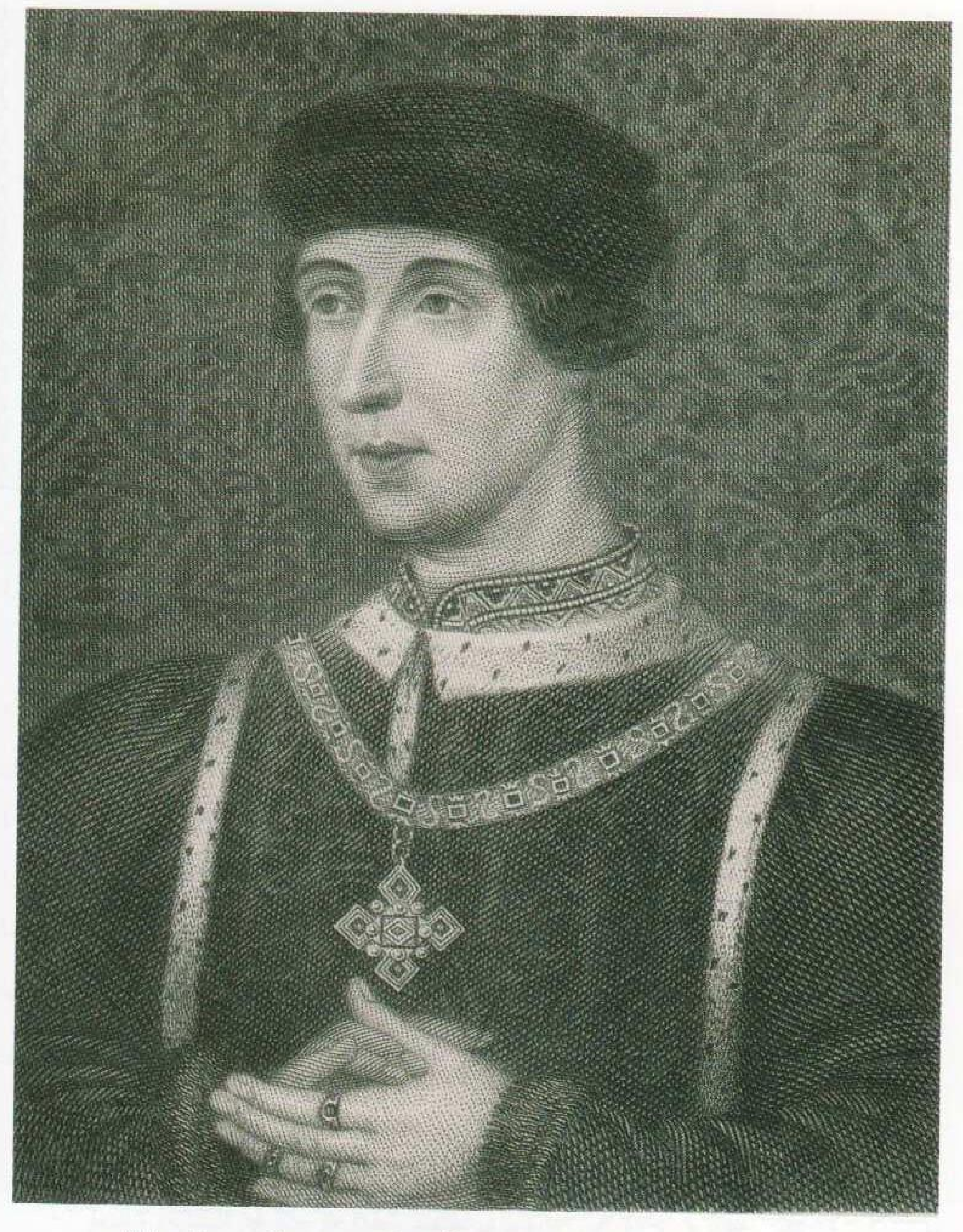
بعض الأدوات الوحشية المنظر التي يستخدمها الجراح الحلاق عادة.

«ضع شعرة أو قشة في أنفه لإجباره على العطس، ولا تتردد في منعه من النوم، وأحرق شعراً آدمياً وأشياء ذات رائحة كريهة بالقرب من أنفه، وأجرِ له حجامة بين الأكتاف، ودع شعرة تنزل في حلقه لجعله يتقيأ، واحلق الجزء الخلفي من رأسه ومن ثم افركه بزيت الأزهار والخل وعصير الكرفس البري».

بيد أن أكثر طرق إجراء النزف انتشاراً كانت تتم عبر استخدام العلق، وهي ديدان شر
صغيرة الحجم، كثيراً ما كانت تستخدم في الطب والجراحة في القرون الوسطى، وقد أد
كثرة استخدامها إلى استخدام كلمة (leche) كاسمٍ آخرٍ للجراح. ووفقا للجراح الفرنس
الشهير غاي دو غوليه (Guy de Chaulic) في كتابه (Chirurgia Magna)، الذي يعن
«الجراحة العظيمة»، ويعدُّ العلق أفضل طريقة لتعقيم الدم «بين أطراف الجسم والجلد».

قد يبدو هذا العلاج فجاً وبدائياً، ولكنه، وهذا شيء مستغرب، العلاج الوحيد من ط
القرون الوسطى الذي مايزال يمارس حتى يومنا هذا. يستخدم العلق بسبب لعابه المض
للتخثر، في منع تجلط الدم في بعض الأعضاء المصابة، قبل خياطتها. كما يستخدم العلق الش
عند زراعة أو خياطة بعض الأعضاء المبتورة لضمان تدفق الدم فيها. وعلاوة على ذلك
يستخدم العلق في علاج مرض تكاثر كريات الدم الحمراء، الذي يتسبب بكثافة خلايا الد
وبطئها.

ولقد كان الصيدلاني هو من يزود «الجراح/الحلاق» بالعلق، ولكن كيف كان يحص
عليه؟



خضع الملك هنري السادس عام 1454 إلى العديد من العلاجات المتنوعة أجراها أطباء وجراحون لعلاجه من المرض العقلي.

جامع العلق (Leech Collector):

إن من أشد مساوئ عطلات الصيف تلك الحشرات الطائرة الغريبة، التي تحوّم في غرفتك، وتبقيك مستيقظاً طوال الليل. فمن منا يريد أن يُقرص أو يُلسع؟ في الحقيقة، هناك في القرون الوسطى من اتخذوا من قرص تلك الحشرات أو لسعها مهنة لهم، فكانوا طوال الوقت يبحثون عن العلق العَطِش، بل ويدفعونه لمص الدم من أقدامهم لتنتفخ، ويسهل الإمساك به.





تعد رومني مارش في مقاطعة كنت موطن بعض أنواع العلق الموجودة حالياً. وفي الأعلى الساحر الفاتن أو الساحرة الفاتنة، فهذه الحشرة ثنائية الجنس. وأنا في الأسفل أثناء قيامي بصيد العلق مرتدياً بناطيل التخويض، ولكن في العصور الوسطى كان جميع صائدي العلق عراة الأقدام والسيقان، وكانوا يخرجون من الماء وقد تجمع عدد وفير من العلق على أقدامهم التي سرعان ما يتم نقلها إلى دلو مليء بالماء.

انتشر جامعو العلق في جميع أرجاء بريطانيا. ويعتقد كثير من الناس أن العلق ليس سوى حشرات غريبة تقطن في الغابة، غير أن العلقة الطبية أو (Hirudo Medicinalis) كانت تعيش في المستنقعات وسط بريطانيا، وكانت مستنقعات منطقة لآك (Lake District) وسومرست ليفلز (Somerset Levels) هي المناطق المفضلة لجامعي العلق. وتم جمع العلق بأعداد ضخمة، مما جعلها مهددة بالانقراض. وتعد منطقة رومني مارج (Romnay March) في «كنت» واحدةً من المناطق القليلة، التي تستطيع الذهاب إليها الآن للقيام بعمل قروسطي بحق هو جمع العلق.

وجمع العلق مهارة بسيطة جداً. فلقد كان جامعو العلق يخوّضون في المياه الضحلة حفاة الأقدام، ويقومون بإحداث اهتزازات متعمدة بين القصب، ليشعر العلق بالحركة معتقداً أن سببها خروف شهي، أو بقرة جاءت

لشرب الماء، وإذا ما كنت جامع علق محظوظ، فسيعلق بك العلق.

ويترك العلق أثراً لجرح صغير على شكل شعار شركة مرسيدس بنز، وقد تمتص الدم لعشرين دقيقة، أو ما يزيد على ذلك، تشرب خلالها ما يعادل خمسة أضعاف وزنها الأصلي قبل أن تسقط عن الجسم الذي تلتصق به. قد لا تكون عضة واحدة شديدة السوء، فألمها ليس سوى وخزةٍ صغيرةٍ، ولكن الكمية هي الأهم بالنسبة إلى جامع العلق، وكان عليه أوعليها تحمل مواضع جروح ملتهبة لا تحصى. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن هذا أسوأ جوانب عمل جامع العلق، فقد كان كل جرح ينز ما يقارب 150 ملليتراً من الدم خلال العشر ساعات التي تلي العضة، وذلك لأن لعاب العلقة يحوي مادة الهيرودين (Hirudin) المضادة للتجلط. وقد تتسبب العلقة عند امتصاصها جرعتها من الدم، بإصابة من تعضه ببكتيريا أكومونيس هايدروفيل (Acomonise Hydrophile)، التي تحملها عادة في أمعائها، والمسببة للإسهال والتهاب الجروح. ولا نستطيع إلا أن نضع بعض التخمينات حول حياة جامع العلق. فنحن نعلم أن العمل فصلي، وأن العلق يصبح عديم النشاط في الشهور الباردة. بيد أن الروايات القليلة حول هذا الموضوع قد جاءت من الفترة اللاحقة للقرون الوسطى؛ فقد أشار الفنان جورج واكر (George Walker) في كتابه «لباس منطقة يوركشاير» الصادر عام 1814، إلى أن معظم جامعي العلق في منطقة لاك كانوا من النساء الإسكتلنديات، وكن يرفعن تنانيرهن ويخضن في الماء. وقد أصبح جامع علق قديم في منطقة لاك موضوع قصيدة رائعة لوردزورث تدعى «القرار والاستقلال» نشرت عام 1807. ولكننا نعرف أن جامعي العلق لم يكونوا جميعا متمرسين. ففي بعض الأحيان، كان الأشخاص الراغبون بتغطية سقوف أكواخهم بالقصب يأتون إلى المستنقعات ذاتها، التي يعمل فيها جامع العلق، فيجمعون بعض العلق الذي التصق بهم في أثناء عملهم.

«القرار والاستقلالية» (مقتطفات)

XI

«استند واقفاً، أضلاعه، وجسمه ووجهه الشاحب
فوق عصي رمادية طويلة من الخشب المسحوق،
وعندما اقتربتُ بخطى وئيدة
فوق أطراف ذلك المستنقع العربي
كان الرجل العجوز واقفا بلا حراك كالغيوم.
فلم يكن يسمع الرياح العاتية عندما تنادي
ويتحرك فجأة إذا ما تحركت تماماً.

XV

وقال إنه قد جاء إلى هذه المياه
لجمع العلق، كونه فقيراً وطاعناً في السن،
وهذه مهنة خطرة ومرهقة،
وعليه تحمل العديد من المشاق،
والتنقل من بركة إلى أخرى، ومن مستنقع إلى آخر
ويقيم هناك، بمساعدة الرب له، متقلبا بين حظوظه
وبهذه الطريقة، كسب مصدر رزق شريف».

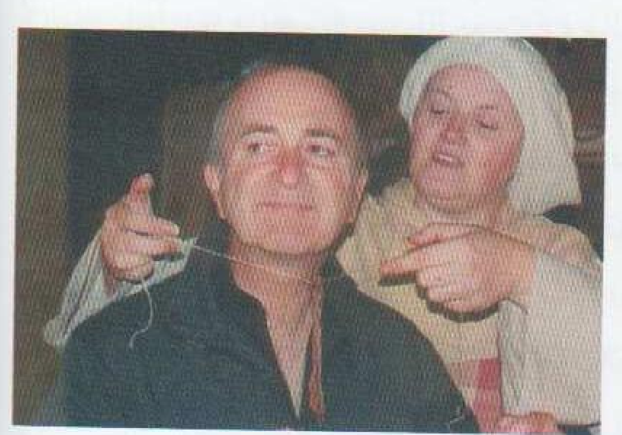
XVIII

ومن ثم أعاد كلماته بابتسامة:
«وقال إنه ترحل طولا وعرضا في البلاد جامعا العلق،
محركا هكذا بقدميه
الماء الذي يقطن فيه العلق.
«ولكن عددها قد تناقص عبر الزمن
ومع هذا مازلت أثابر وأجدها حيث أستطيع».

وليم وردزورث 1802

إن جامع العلق في قصيدة وردزورث هذه، رجلٌ إسكتلنديٌ عجوز، أعجب به الشاعر لنبله الفطري، غير أن وهنه وفقره يظهران مدى صعوبة هذا العمل. كتبت هذه القصيدة عام 1802، عندما كان من الصعب العثور على العلق– فلقد كان ضحية لشهرته. إن كدح جامعي العلق في عملهم يوماً تلو الآخر، كان يعني بالضرورة أنهم يعانون على الدوام من جراح مفتوحة، وأن الدم يقطر منها على أقدامهم، وكانوا يعانون أيضاً من الدوار الناجم عن فقدان الدم، كما كانوا عرضة للالتهابات الجلدية والتقلبات المعدية الحادة.

وتكمن المفارقة في أن جامع العلق كان يقوم بتقديم أحد ركائز العلم الطبيعي القروسطي، بيد أنه، إذا ما أصابه المرض، فلن يستفيد من خدمة الجراح/الحلاق، لأنه لا يستطيع تحمل تكاليف زياراته. وكان عليه، كأمثاله من القرويين الفقراء، الاعتماد على ممارس للطب أدنى مرتبة من الجراح/الحلاق.



*الديدان مرة أخرى، لكنها هذه المرة ملفوفة كقلادة حية ترتدى لعلاج التهاب الحلق. القيمة الترفيهية: **10/10** القيمة الدوائية: **0/10**.*

الطبيبة الشعبية (Wise Woman):

كان ثمة امرأة حكيمة، أو طبيبة شعبية في كل قرية تفتقر تماماً للدراية في علم أبقراط (Hippocratis)، لكنها تمتلك معرفة تامة بالعلاجات الشعبية. ولم يكن بمقدور الفلاحين الاستغناء عن خدماتها، فحياتهم قاسية جداً، ومليئة بالأمراض كتشنج الأيدي، وآلام الظهر، والفتق، والبواسير، وغيرها من التشنجات والنزلات التي لا يعرف لها اسم، وهذه أمراض ملازمة لطبيعة حياة من يمتهن هذه الأعمال.

وعلاوة على ذلك، أصبح الناس قلقين وباطّراد على صحتهم إلى حد إصابتهم بمرض الوسواس المرضي (hypocondria). وسبب هذا القلق المتزايد هو الموت الأسود «الطاعون»

الذي حل ببريطانيا عام 1348، وقلّص عدد السكان بمقدار الثلث أو النصف. ولا يمكن لأحد أن ينسى قدوم ما يمكن عدّه عقوبة إلهية مخيفة، حاقت بإنجلترا في موجات على مدى القرون اللاحقة؛ ولهذا توخى الجميع الحذر، متعهدين أنفسهم بالرعاية، ومترقبين أي علامات قد تبدر لمرض جديد.

لم تدرّ وظيفة الطبيبة الشعبية دخلاً جيداً على من امتهنتها. فلقد كانت كمرضاها في عسر متواصل، وعادة ما تعمل مقابل بدلٍ، كالجبنة، أو إصلاح سقف. وفي المقابل، قدمت لمرضاها علاجات على درجات متفاوتة من الغرابة، لمختلف الأمراض، بداية بالتهاب الحلق، وانتهاء بسرطان الثدي. وأصبحت هؤلاء النسوة في القرون اللاحقة مؤهلات للقيام بدور «الباحث عن الموتى» الذي سيأتي ذكره لاحقاً.

ليس الفقر وحده ما جعل عمل الطبيبة الشعبية سيئاً، وإنما تضاف إليه طبيعة المكونات الداخلة فيه وخطورته.

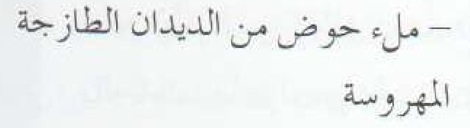
لم تستطع الطبيبة الشعبية، بسبب فقرها، الحصول على العقاقير من لدن الصيدلاني، ولهذا استخلصت علاجاتها من مكونات طبيعية متوفرة بالمجان في الطبيعة الريفية المحيطة بها. ولو أنها اقتصرت في عملها على الأعشاب، وما شابهها من المواد، التي مازالت تجنى حتى يومنا هذا كمستخلصات النباتات التي تفيد في علاج السعال، وزهرة القديس جونز وغيرها، فإن عملها سيكون مستساغاً ضمن الذوق العام الآن. ولكن الأمر ليس كذلك دوماً، فقد كان من بين العلاجات الأكثر تداولاً سمك الأنقليس، والديدان، وأجزاء من الحيوانات الميتة، بالإضافة إلى مكوّن سحري ليس له في الواقع علاقة بجراحة الطبيب، ألا وهو الروث. وكان على الطبيبة الشعبية لاستخلاص العلاجات التالية أن تقضي نصف حياتها العملية متعقّبة أنواعاً مختلفة من الماشية وبيدها سلة ورفش:

> «لجرح نازف، استخدم روث الخنزير الطازج الساخن، ولعلاج اليرقان، استخدم خليط روث الغنم بالبيرة، المحفوظ طول الليل ومن ثم اشربه. ولمنع آثار الجدري، استخدم خليط روث الغنم والخنزير المحفوظ لمدة ليلة ومن ثم اشربه. ولعلاج النقرس، استخدم طينا من روث الحمام، ولعلاج آفة

ثدي المرأة والصلع، استخدم روث الإوز، وللمساعدة على تحسين السمع، استخدم سمكة أنقليس رمادية، متعفنة في روث الحصان ثم أدخلها في الأذنين، ولعلاج التشنجات، اربط سمكة أنقليس حول المنطقة المستهدفة، ولعلاج ألم الأسنان، ضع أذن قطة مرضوخة الرأس على السن لمدة ثلاثة أيام».

ولكن لا تفتقد جميع هذه العلاجات إلى أساس علمي. فعلى سبيل المثال، كان علاج الرعاف وضع نبات القريص في التجويف الأنفي، وقد يبدو هذا العلاج وحشياً، ولكنه منطقي إذا عرفنا أن لوخزات نبات القريص خصائص قابضة للأنسجة. وعلى الوتيرة نفسها، كان حساء الديدان المعد على عجل ذا فائدة فعالة جداً، فلقد كان غذاء الفلاح بشكل عام يخلو من اللحم. وباستثناء أيام الأعياد والمناسبات، كان غذاء الفلاح الفقير يقتصر على عصيدة الشوفان المخلوطة بالكراث، والبصل، والبازلاء، وخبز الشعير، وربما القليل من الجبن. لهذا، كانت الديدان لا تكلف شيئاً، وتضفي لمسة البروتين اللحمي على غذاء الفلاح.

طريقة إعداد يخنة الديدان



- ملء حوض من الديدان الطازجة المهروسة
- ثلاثة كتل كبيرة من الخبز البائت، مقطعة مكعبات
- خليط من أعشاب الغابة
- بعض الزبدة
- ماء
- عسل وملح حسب الحاجة.
- أزل أحشاء الديدان وما علق بها من تراب بإدخال إبرة في جسمها





وتمريرها حتى آخرها. قطع الديدان إلى قطع صغيرة، واغلها في إناء بإضافة الماء حتى غطائه. ثم أضف الخبز والأعشاب وبعض الزبدة واتركها تغلي غلياً خفيفاً، حتى يصبح الحساء ذا لون رمادي- بني،أضف الملح والسكر إذا كان هناك حاجة.

تنبيه: بعض الأتربة تحوي سميات، لهذا عليك أن تعرف مصدر ديدانك، وتنظفها جيداً (هذا إذا افترضنا أنك أخرق لتجرب مثل هذا الحساء).

ولكن أين تكمن المخاطرة؟ إنها تكمن في أن العديد من علاجات الطبية الشعبية قد عدّتها الكنيسة ضرباً من الخرافات. ومن هذه العلاجات- على سبيل المثال- علاج المسامير اللحمية، الذي كان يقتضي قطع رأس سمكة الأنقليس، ومسح المسامير اللحمية بالدم النازف منه، ومن ثم دفن رأس السمكة. ومع تعفن رأس السمكة، تأخذ المسامير اللحمية بالاختفاء. ومن العلاجات الأخرى الاعتقاد بأن ربط مجموعة من الديدان حول الرقبة قد يؤدي إلى شفاء التهاب الحلق، الذي يأخذ بالتحسن مع موت الديدان الواحدة تلو الأخرى.

غض رجالات الكنيسة في بدايات القرون الوسطى الطرف عن هذا النوع من السحر الذي مزج الحظ بالعاطفة. ولكن، ومع مرور الوقت، أخذت السلطات الكنسية على عاتقها الاهتمام الكامل بالنظام التعليمي. وأصبح العلاج التقليدي شعوذة، حتى إن البابا قد أعلن عام 1484- وهو العام الذي وافق نهاية القرون الوسطى- أن الشعوذة ضرب من الهرطقة. ولكن ما الفرق بين الشعوذة وعمل الطبيبة الشعبية؟ لم تستطع الكثير من النساء اللواتي امتهنَّ هذا العمل العيش طويلاً للإجابة عن ذلك السؤال.

البنّاء السيد (Master Mason):

قد تبدو معتقدات القرون الوسطى وحشية، لكنها أنتجت بحقٍ أعظم وأدوم إرثٍ معماري في بريطانيا، ألا وهو الكاتدرائيات القوطيّة، وقد صاحب بناء هذه الكاتدرائيات العديد من الأعمال ذات الطبيعة السيئة.

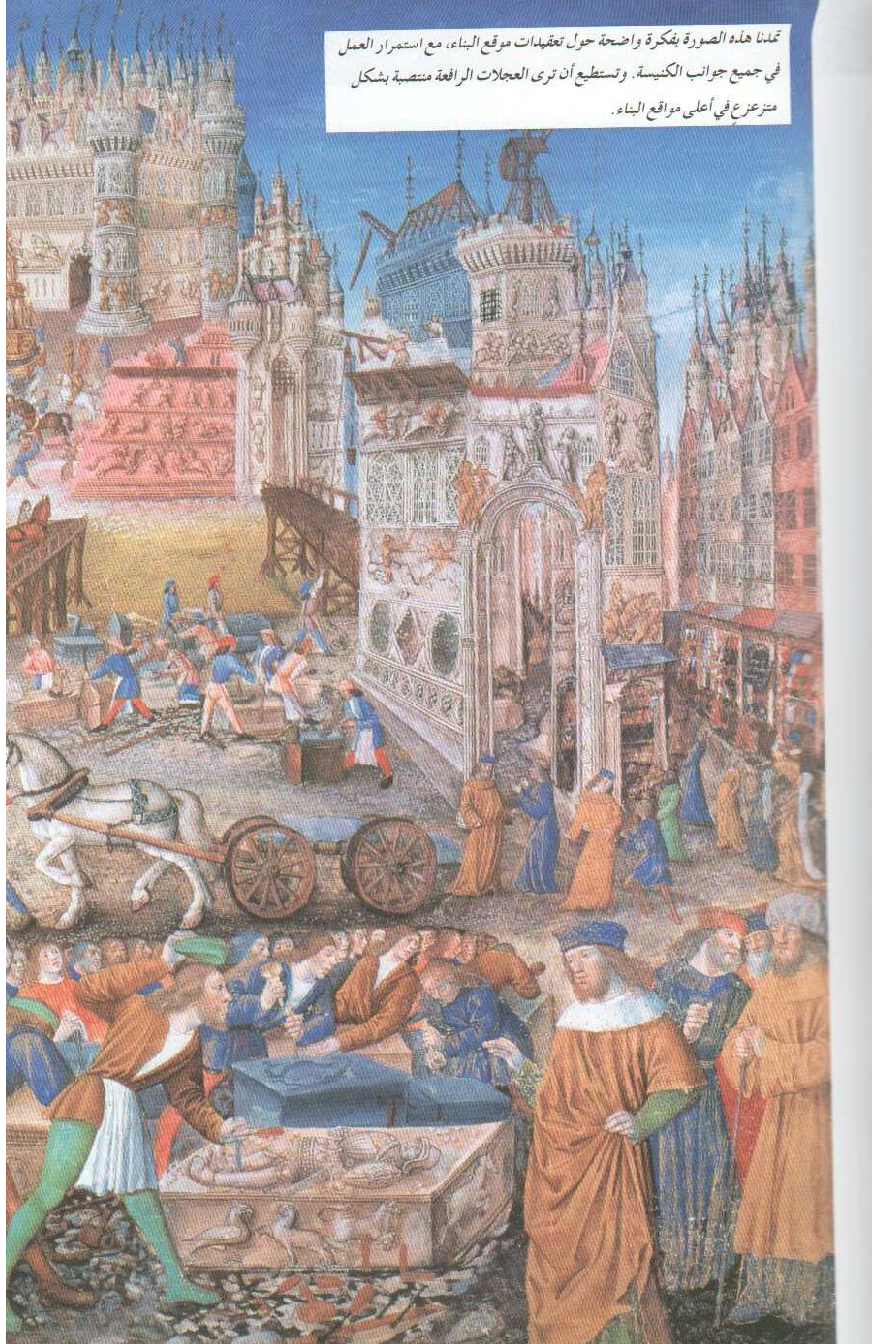
حملت هذه الكاتدرائيات التي بنيت في القرون الوسطى معاني الثقة والاستقرار. وتم

نقل جيوش جرارة من العاملين على مستوى لم يشهد له التاريخ مثيلاً، منذ بناء جدار هادريان (Hadrian's Wall) في عهد روما القديمة. وعدّ بناء كاتدرائية في أي مدينة رمز فخر لقاطني تلك المدينة، وكان في الوقت ذاته رافداً اقتصادياً كبيراً. إن أثر بناء مجمع كنسي كبير ليقارن- هذه الأيام- بإنشاء مصنع سيارات جديد، أو مصنع هواتف خلوية في مدينة صغيرة، لما لهذه المنشآت من أثر في دعم اقتصاد المنطقة بأكملها.

صممت الكنائس، في البدايات المبكرة لبناء الكاتدرائيات، على أيدي هواة متحمسين من رؤساء أديرة، وأساقفة لديهم من التعليم ما يمكنهم من البحث في مبادئ العمارة والهندسة الأساسية. فقام هؤلاء الرجال ببناء مشاريعهم وتمويلها. ولكن، مع مرور الوقت، وتعقد علم العمارة، أصبحت إدارة تلك المشاريع وتصميمها منحصرين بمحترفين كانوا يجوبون أوروبا كمعماريين مستقلين.

كان هؤلاء يعرفون باسم «البنائين الأسياد». قد تكون هذه الوظيفة - من الناحية المعنوية- إحدى أفضل الوظائف في مسيحية القرون الوسطى، ولكنها لم تكن كذلك على جميع الصُعُد، فهؤلاء لم يكونوا رسامين فحسب، بل كانوا مديري مشاريع أيضاً، وكان عليهم إدارة عملية لوجستيّة ضخمة ضمت، إلى جانب موقع البناء، المحاجر التي تم اقتلاع الأحجار منها، والغابات التي تم قطع دعائم الأسقف منها، ونظام النقل، الذي تم نقل المواد الخام عبره- لمئات من الأميال في بعض الأوقات. وتشير صفحة النفقات في كاتدرائية أوتن (Autun) في فرنسا بوضوح إلى تعدد جوانب هذا العمل واختلافه (وعدد الناس الذين كانوا يستفيدون من بناء كاتدرائية في مدينتهم).

كان البناء السيد يشرف على عدد ضخم من الحرفيين: كقاطعي الحجر المكلّفين بقص الحجر وفق أشكال وأحجام محددة وعمل تماثيل، والجدّارين والمثبّتين المكلفين بوضع الكتل الحجرية بعضها فوق بعض، والمطيّنين والزجاجين والنجارين المكلفين بنصب الصقائل الخشبية، وبناء هياكل السقف، وهناك أيضاً السقافون المسؤولون عن مد الرصاص والآجر على السطح، والحدّادون وعمّال الحديد، وسائقو العربات المنوط بهم تنظيم الحجر والخشب، ونقلهما من المحاجر، وكان ثمة الخشّابون والداهنون والمتدربون، بالإضافة إلى مئات من العمال، المكلفين بجلب وحمل وإعداد لوازم البناء الثقيلة والمختلفة. وقد كان يتطلب منهم



تمدنا هذه الصورة بفكرة واضحة حول تعقيدات موقع البناء، مع استمرار العمل في جميع جوانب الكنيسة. وتستطيع أن ترى العجلات الرافعة منتصبة بشكل متزعزع في أعلى مواقع البناء.

ذلك أن يشمّروا عن سواعدهم وسيقانهم لإظهار القوة والقدرة على العمل الجاد، حتى يرى مشروع «البناء السيد» النور.

غير أن كلَّ هذه المسؤوليات لا تعني بأي حالٍ من الأحوال أن «البناء السيد»، كان ذا سلطةٍ مطلقة، بل إن موقفه حساسٌ جداً كونه موظفاً لدى المتبرع، وهو الأرستقراطي الثري، أو رجل الكنيسة المموّل لبناء الكاتدرائية. وستذهب أحلام «البناء السيد» أدراج الرياح، إن لم يواصل المال تدفقه، ويحدث هذا عادة بوفاة المتبرع. وقد يحتاج الأمر سنوات قبل إيجاد رجل خيّر آخر لمواصلة العمل، حتى إن كاتدرائية سالزبري (Salisbury)، وهي أسرع كاتدرائية تم بناؤها، احتاجت 30 عاماً لإكمالها، فأي تأخير في التمويل قد يؤخر إكمال المشروع لعقود. وكان على بعض البنائين العيش خائبي الأمل لعدم رؤية مفخرة تصاميمهم وقد اكتملت.

لم يكن البناؤون في مأمن من الحوادث، فعندما تؤدي عملك على ارتفاع 30 أو40 متراً فوق الأرض واقفاً على دعائم خشبيةٍ مثبتةٍ يدوياً، فإن ذلك العمل ليس آمنا على الإطلاق. ورغم عدم تدوين معظم الحوادث، إلا أننا على علم بأن وليم سنز (William of Sens)؛ البناء السيد في كاتدرائية كانتربيري، قد سقط عن الصقالة، وعانى إصابات خطرة دفعته إلى التقاعد.

نفقات كاتدرائية أوتن

إن الأجر المطلوب لإحضار الحجارة اللازمة لصيانة كنيسة القديس لازار هو ثمانية ليفرات (وهي عملة فرنسية تعادل الباوند الإنجليزي)

أما بالنسبة إلى الجير فالأجر هو تسعة ليفرات وثماني سوات (وهي عملة فرنسية تعادل الشلن الإنجليزي).

وثمن الخشب الجيد المطلوب للأقواس في كنيسة القديس لازار هو سبعة عشر ليفراً وسواتاً وسبعة دوانق فرنسية تدفع للنجارين والحمالين.

أما أجرة حداد أوتن فهو 42 ليفراً وعشر سوات وستة دوانق.

أما أجر النجارين الذين قاموا بتركيب الألواح على سقف كنيسة القديس

لازار فهو عشرة ليفرات وثماني سوات.

وتكلفة الحجارة المنحوتة المعروفة بـ (gargoyles) أربعة ليفرات وعشر سوات وتسعة دوانق.

ودفع لـ «رينود» مالك النزل، الذي أجّر المنزل الذي يسكنه البناء السيد لفصلين في السنة ثلاثة ليفرات .

وتكلفة ملابس البنّاء المذكور، هذا إذا استثنينا الفصل القادم لميلاد القديس جون المعمداني، عشرة ليفرات

ولـ «بينوا» سرّاج الخيل ليفران وعشر سوات لقاء ما يقوم به من عمل على مدار العام كسرج للخيل، وترتيب الياقات، وتثبيت الأسقف وغيرها من أعمال جلدية تتعلق بالعربة.

ولقاء القش وعدة فرس العربة المذكورة تسعة عشر ليفرا، وسبع عشرة سُوّاتاً وأربعة دوانق. أما ثمن الشعير فهو خمسة وعشرون ليفرا، وثلاث سُوّات وتسعة دوانق.

وتكلفة حذوة الفرس أربعة ليفرات، وست سوات.

وتكلفة الحديد والمسامير المستخدمة في تقوية العربات، وإصلاح القديم منها، وصنع عربات جديدة ليفران، وأربع عشرة سواتاً وتسعة دوانق.

ولقاء الشحم الحيواني المذاب والزيت، والخل وثلاثين رطلا من الشمع لسنة واحدة، فالأجر هو ليفران، وسبعة دوانق.

سجل لجنة ورشة كاتدرائية أوتن 1294–1295 (مقتطفات)

ومع هذا، ورغم الاجتهاد والإحباط الفني المتوقع وخطر السقوط واحتمال الموت، فمن الصعب علينا القول: إن عمل رئيس العمّال هو أقل الأعمال جاذبية في موقع البناء في القرون الوسطى. إن أسوأ الأعمال هي التي كانت تدرُّ دخلاً زهيداً. ويشتد التنافس للحصول على لقب أسوأ الوظائف بين وظيفتين أساسيتين داعمتين، لا يمكن دونهما وضع الحجارة والطين معا، وهاتان الوظيفتان هما: حارق الجير ومشغل العجلة.

حارق الجير: (Lime Burner):

يعد أكسيد الكالسيوم، أو الجير كما هو معروف، أحد أكثر المواد تنوعاً في العالم، فهو مكون أساسي في الطلاء المعقم للجراثيم، وتم استخدامه- في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى- لتحسين بنية التربة ومعادلة الحموضة فيها، مما يؤدي إلى زيادة في المحاصيل، بيد أن الاستخدام الرئيس للجير هو صنع ملاط البناء. ولملاط الجير، وهو خليط من الجير



تظهر هذه الصورة المصغرة قاطعي الحجارة في المحاجر، والبنائين في مواقع العمل. ويظهر في واجهة الصورة البنّاء الدهان الذي يقوم بخلط الملاط الجيري المصنع من الجير المروى الناتج عن عملية حرق الجير.

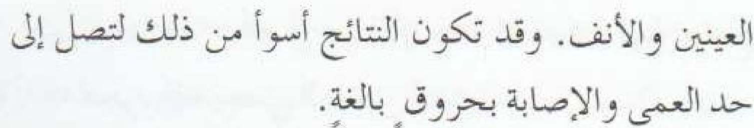
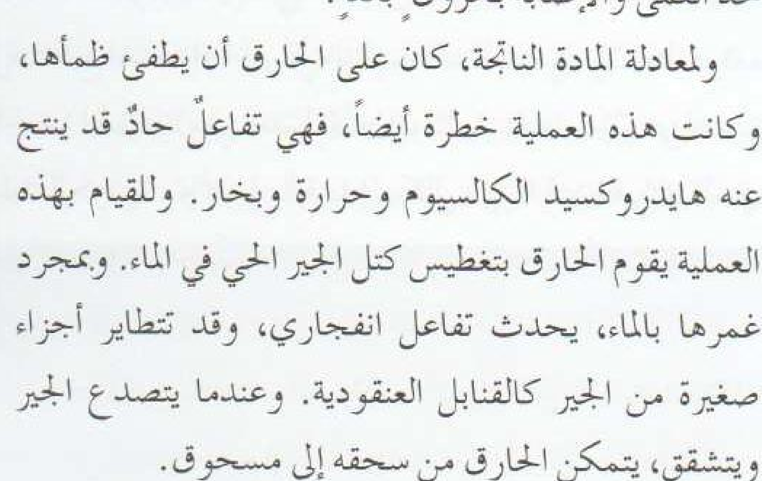
والرمل والماء، ميزات تجعله – حتى يومنا هذا– أفضل من الأسمنت الحديث، فهو يسمح للبناء بالتنفس، ولكونه ليس قويا كالحجر، فإنه يحمي البناء من التقشر.

وتكمن المشكلة في أننا لا نستطيع استخدام الجير في البناء بحالته الطبيعية، إلا بعد حرقه، ويتضمن هذا العمل تسخين الحجر الجيري (وفي بعض الأحيان قشور المحار) إلى درجة يتم خلالها التخلص من ثاني أكسيد الكربون، وتحويل البقايا إلى كتل من «الجير الحي»، الذي يخلط بعد ذلك مع الماء للحصول على جير مطفأ، وهو عبارة عن مسحوق يمكن استخدامه كسماد، وفي ملاط البناء. قد يبدو الأمر بسيطاً، بيد أن كل مرحلة من هذه المراحل كانت محفوفة بالمخاطر، ويبدو هذا الأمر جلياً من الكلمات المستخدمة لوصف المواد ذات العلاقة، فكلمة (quick lime) تعني الجير الحي، بينما كلمة (slaked lime) أو الجير المطفأ تعني الجير الجاف جداً، وهو يحتاج إلى من يطفئ ظمأه.

كانت عملية حرق الجير تتم على أطراف الغابات، وقريباً من موقع البناء، وذلك لتوفر مصدر ثابت من الخشب لأفران الجير، التي يوضع فيها الحجر الجيري. وكان على العاملين (وهم اثنان «الحجّار» و«الحارق»)، عندما تصل حرارة الفرن إلى الدرجة المطلوبة، وهي 1100 درجة مئوية، أن يعملوا لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم. وتكون مناوبة الحجار نهارية، بينما يبقى الحارق مستيقظاً طوال الليل لإزالة الجير الحي، وتغذية الفرن بالفحم والحجر الجيري.

وقد يتسبب ثاني أكسيد الكربون– الناتج عن عملية الاحتراق– في إصابة بعضهم بالشلل، وفي أحيان أخرى، قد يقتلهم. لهذا لم يكن مستبعداً أن يسقط بعض الحارقين المصابين بفقدان الوعي في أفرانهم ليلقوا حتفهم حرقاً. ولكن، حتى وإن حافظوا على أنفسهم من شر الموت حرقاً، لم يكن عملهم مريحاً على الإطلاق. كانت عملية البناء تتم في الصيف، لأن الجليد قد يتسبب في تصدع الحجر، والطين. لهذا ليس مستغرباً إذا عرفنا أن حارقي الجير كانوا يتلقون جزءاً من رواتبهم على شكل بيرة.

إن الجير الحي، الذي يتم إخراجه من الفرن، مادة لاذعة غير مستقرة على الإطلاق، وقابلة للاشتعال على الفور. وتتفاعل بعنف مع أي شكل من أشكال الماء (بما فيها رطوبة الجلد). وعندما يقوم الحارق بإخراجها من الفرن، قد يتسبب الغبار اللاذع بتحسس في


العينين والأنف. وقد تكون النتائج أسوأ من ذلك لتصل إلى حد العمى والإصابة بحروقٍ بالغة.

ولمعادلة المادة الناتجة، كان على الحارق أن يطفئ ظمأها، وكانت هذه العملية خطرة أيضاً، فهي تفاعلٌ حادٌ قد ينتج عنه هايدروكسيد الكالسيوم وحرارة وبخار. وللقيام بهذه العملية يقوم الحارق بتغطيس كتل الجير الحي في الماء. وبمجرد غمرها بالماء، يحدث تفاعل انفجاري، وقد تتطاير أجزاء صغيرة من الجير كالقنابل العنقودية. وعندما يتصدع الجير ويتشقق، يتمكن الحارق من سحقه إلى مسحوق.

عانى حارقو الجير الأمرّين من الحرارة الخانقة، وكانوا معرضين دائماً للموت تسمماً بأول أكسيد الكربون، أو من غفوة قد تسقطهم في فرن الجير. وقد يتعرض بعضهم لجروح، وقد يصاب بعضهم بالعمى. ومن الطبيعي أن تتعرض أيديهم وشفاههم للتشققات نتيجة احتراق شظايا الجير الحي اللاذعة عند ملامستها رطوبة جلدهم وبقايا المخاط.

عامل العجلة (Treadmill Operator):

لا يقوم عامل العجلة بشيء آخر سوى إدارة العجلة. فهو لا يتوقف عن الحركة لإدارتها. قد يبدو هذا العمل أقل خطورة من عمل حارق الجير، لكنه ممل إلى أبعد الحدود.

نشأت الحاجة لهذا العمل الممل نتيجة الثورة، التي حدثت في بناء الكاتدرائيات في العصور الوسطى، ولقد جاءت نتيجة حتمية لاختراع الرافعات. فمع اختراع الآلات القوية التي كانت تحمل الحجارة الثقيلة والدعائم الخشبية إلى مكانها المحدد، أصبحت الحمّالات الخشبية أخف بكثير، وأصبحت عملية البناء تتم بسرعة وفاعلية ليس لهما مثيل من قبل. ففي السابق كان هناك جدار صلب من الخشب لحمل الحجارة الضخمة التي تنتظر وضعها في مكانها. في حين أن المعماريين يقومون بتصميم أدراج وممرات دائرية ملتحمة في بناء الكاتدرائية نفسها، وكذا فإنهم يستطيعون تشييد منصات بناء خفيفة الوزن في موقع البناء نفسه. ومن ثم يستطيعون فك هذه المنصات ونصبها في



بنيت هذه العجلة في نورماندي باستخدام النماذج القروسطية الموجودة والصور التي تظهر في المخطوطات. ومازال هناك بعض النماذج الأصلية التي تستطيع مشاهدتها كتلك الموجودة في كاتدرائية سالزبري.

مكان آخر ضمن موقع البناء، أو نقلها بعيداً إلى مكان عمل آخر.

ويمكننا مشاهدة صور الرافعات في معظم الرسوم التوضيحية لعمليات البناء في أواخر العصور الوسطى. ويتم تشغيل الرافعات الصغيرة عن طريق إدارة عجلة من الخارج، أما الرافعات الكبيرة التي تدور حول محورها، ويمكنها أن ترتفع أو تنخفض، فيتم نقلها إلى مكان العمل– جزءاً تلو الآخر– عبر استخدام الرافعات الصغيرة، أو دواليب الدفع، ومن ثم يتم بناؤها عالياً فوق الكاتدرائية.

ويقوم على تشغيل هذه الرافعات رجلان يمشيان داخل دولاب، وهذان يمثلان أوج الثورة المعمارية، بكل ما تحمل كلمة ثورة من معنى، على الرغم من أن كل ما يقومان به هو المشي.

ويقال إن الأشخاص المكفوفين في المجتمع المحلي هم من اختيروا للقيام بهذا العمل السيئ. وكانت الرافعة تنصب عادة على أعلى نقطة وصلَها البناء. ولا بد أن المنظر كان مطلاً، وكاشفاً جميع أجزاء المدينة وما يحيط بها من ريف، وعلى الأرجح لم يصل أي من السكان المحليين هذا العلو في البناء، أو حتى رأى مثله من قبل. إن مجرد رؤية مثل هذا المنظر لهو شيء فاتن ومثير للأعصاب. غير أن مشغلي العجلة كانوا معرضين على الدوام للسقوط بسبب الدوار. فقد مشوا على سلسلة من الصفائح المعدنية المرصوفة بعضها إلى جانب بعض، مع وجود

فراغات صغيرة بينها. ولهذا كانوا على الدوام يقعون ضحايا للفراغ المغرق أسفلهم. وتقول النظرية: إن المعاقين بصرياً يستطيعون تجنب الدوار، الذي قد يؤثر على الأصحاء بصرياً.

كان مشغلو العجلة يمشون طوال اليوم إلى الأعلى، وإلى الأسفل، من الفجر حتى الغسق، سواء أكان الجو ماطرا أم مشرقاً، لقاء نفقات عيشهم، أو أكثر من ذلك بقليل، ولكن السأم لم يكن أسوأ ما ينطوي عليه عملهم.

فالتحكم بالعجلة كان بالغ الصعوبة والخطورة. فإذا ما أخذت العجلة بالدوران، فعملها كعمل أثقل غيار في الدراجة الجبلية. ولإتمام دورة واحدة من المحور الذي يحمل الحبل، كان يجب أن تدور العجلة التي يمشي فيها مشغلها مرتين أو ثلاثاً، وكان من الصعب جداً إعطاء العجلة قوة دافعة. ولكن الأصعب كان إيقافها إذا ما اكتسبت القوة الدافعة. ومن الأخطار التي كانت تواجه مشغلي العجلة وضع أي جزء من جسمهم خارج القفص، لأن حركة العجلة الضخمة قد تقطع أياديهم، أو أذرعهم، أو أرجلهم البارزة عند تقاطع العجلة مع ركائز الرافعة.

وهكذا فإن مشغلي العجلة كانوا عالقين في قفصٍ متحركٍ خطيرٍ، ولاسيما إذا كان تجميع الرافعة سيئا، أو كان الخشب ذا عيوب، أو تعرض للخراب بسبب المطر أو الجليد، ولكم أن تتخيلوا شعور مشغل العجلة الكفيف إذا ما أخذت هذه التكنولوجيا بالتداعي من ارتفاع خمسين متراً فوق أرض صلبة قاسية، وهذه الحوادث لم تكن نادرة.

ولهذا، هل يمكن القول إن عمل مشغل العجلة كان أسوأ عملٍ في القرون الوسطى؟ مازال هناك عدد كبير من المتنافسين على هذا التميز المريب، منها على سبيل المثال عطْن الكتان أو نقعه.

ناقع/عاطن الكتان (Flax Retter):

نجد في العصور الوسطى نوعين أساسيين من القماش هما: الصوف والكتان، وكان إنتاج أي منهما يتطلب أداء واحد من أكثر الأعمال سوءاً. فلإنتاج القمصان الكتانية، وأعلام الصليبيين، وأغطية المذابح الناعمة الملمس في الكاتدرائيات، كان عمل عاطن الكتان ضرورياً. غير أن هذا العمل كان مملاً ومخدراً للدماغ؛ فلقد كان بطيئا جداً إلى حد أن مشاهدة فيلم

بالعرض البطيء لدهان ديلوكس ويثرشيلد (Dulux Weathershield) وهو يجف، يعد سريعاً عند مقارنته بعمل عاطن الكتان.

والكتان، ذو الزهرة الزرقاء، مازال حتى يومنا هذا يغطي الريف في أواخر مايو، وهو نبتة متعددة الاستخدام. فعند طحنها يتم استخراج زيت بذور الكتان، ويمكن معالجة أعناقها ذات الشعيرات لاستخلاص شعيرات الكتان. إن عملية عطن الكتان عملية بطيئة إلى حد مضن، ويتم خلالها فصل حزم الشعيرات، التي تحيط بعنق الزهرة، بعضها عن بعض عبر العطن الذي يمكّننا من التحكم بها.

قد لا تبدو عبارة «العطن البطيء» مناسبة لوصف وظيفة ما، لكن هذا العمل أسوأ مما توحي به هذه العبارة.

يقوم عاطن الكتان بالتركيز على سويقات الكتان بعد قطفه على درجة مناسبة من النضج، وإزالة البذور لاستخراج الزيت، ويتمكن عبر عطن الكتان (ترك الكتان ليتعفن)، من إزالة المادة السكرية والصمغية المسؤولة عن التصاق الشعيرات بعضها ببعض. وتتطلب هذه العملية شيئا من المهارة، فإذا تعفنت النبتة بدرجة تفوق الحد المطلوب، أو كان هناك تفاوت في درجة العطن، فإن المادة الداخلية ستتأذى، وبناء عليه، فإن درجة الحذر المطلوبة هي التي جعلت هذا العمل مملاً. وكان عليك كعاطن للكتان، أن تراقب هذه العملية طوال الوقت ولأسابيع.

ولقد شهدت إنجلترا العصور الوسطى تطبيق طريقتين لعطن الكتان هما: عطن الندى وعطن الماء. تتطلب الطريقة الأولى وضع نبات الكتان في حقل ذي عشب قصير وتركه ثلاثة أو أربعة أسابيع، وخلال هذه الفترة، تأخذ الشعيرات بالتكسر بشكل بطيء، وفي أثناء ذلك يقوم العاطن بمراقبته يومياً. ويعد نتاج هذه العملية أجود، بيد أنه باهظ الثمن.

أما الطريقة الأخرى، فلقد كانت تتطلب مهارة أكبر، وتستغرق وقتاً أقصر قد يمتد من سبعة أيام إلى عشرة. وفيها يُجمع الكتان بعناية فائقة على شكل حزم، لضمان العطن المتساوي، ويوضع تحت الماء. وأسرع ما يكون العمل في الماء الراكد، لأنه يحتفظ بحرارة الشمس، التي قد تسهم في تسريع عملية العطن.

ولكن كل طريقة لها عيوبها، فعطن الندى كان مهلكاً بحق؛ وقد يتطلب شهراً كاملاً من المراقبة المستمرة. وحتى لو تمكنت من تحمل السأم مع البقاء متنبها معظم أيام الصيف– فوق

ما يمكن اعتباره بحق كومة من العفن- فإنك معرض لأن تخسر محصولك كله، إذا ما تغير الجو، لأن هذا قد يؤدي إلى تفاوت في درجة العطن.

ومن جهة أخرى، كان عطن الماء كريهاً، رغم أنه الطريقة الأسرع، والأكثر إنتاجية. فتفاعل الماء مع الكتان قد ينتج مادة تسمى بحامض الزبدة (butyric acid)، وهذا الحامض ذو رائحة كريهة، ولاسيما عند استخدام الماء الراكد، كماء بركة أو خزان ماء. وتكون العملية أسوأ إذا ما حاول عاطن الكتان تجنب الرائحة الكريهة عبر استخدام الماء الجاري. على الرغم من أنه أسرع، وخال من الرائحة الكريهة، لأن العطن قد يلوث مصدر الماء، وبهذا قد يصبح عاطن الكتان مقاطعاً وموضع سخط جيرانه.

ونتيجة عمله، قد يجد عاطن الكتان نفسه في موقف لا يحسد عليه، فهو مقطع بين مراقبة دائمة لحقل من النبات الميت، ذي رائحة كريهة جداً، وبين أن يصبح موضع سخط الجميع.

لم ينقرض عمل عاطن الكتان على الإطلاق، فالكتان مازال يعالج، ولكن بطريقة تستغرق ستا وثلاثين ساعة، بدلاً من أشهرٍ طويلة. غير أن عمل عاطن الكتان أصبح أقل أهمية بسبب استخدام نبات جديد، فقد شهدت أوروبا في القرن الرابع عشر دخول نبتة جديدة من العالم العربي ذات ألياف أخف هي القطن (qutn) أو (cotton) كما أصبحت تعرف الآن.

ولكن العمل الذي قد ينال الشرف الأعلى لكونه الأكثر سأما، والذي لا مثيل له في الوضاعة، يبعد ملايين الأميال عن رائحة العطن الريفية. فهو يقع في صلب العمل الحكومي.

ناسخ اللفائف الأنبوبية (Pipe Roll Transcriber):

هل كنت ستوافق على القيام بعمل ذي دخل جيد، بيد أنه يتطلب نسخ سجلات إيرادات الدولة بخط طبيعي غير مختزل دون أخطاء؟ كان هذا هو عمل ناسخ اللفائف الأنبوبية، الذي لا يحسد عليه.

أصبح المجتمع القروسطي خلال القرن الثاني عشر أكثر تعقيداً، فصناعة الصوف جعلت الأفراد والمؤسسات أثرياء، وبتواز مع ذلك، أصبح نظام الضريبة الذي أقره الملك أكثر تعقيداً. فلقد سن الملك هنري الأول عام 1129، اللفافة العظيمة، وهي نظام دوّنت به جميع الديون

التي تدين بها المقاطعات للملك مرة واحدة في العام. ونص القانون على ترحيل الديون، التي لا يتم سدادها للعام الذي يليه. وكان ولاة الملك يقدمون إلى الخزينة حاملين ما يدينون به من ضرائب، ويقوم ناسخ اللفائف حينها بتجشم كتابة سجل جار تنسخ فيه القيود. وكان يقوم بهذا العمل ناسخ الوزير.

اكتسب وزير الخزينة اسمه من غطاء الطاولة ذي المربعات البيضاء والسوداء الذي يشبه رقعة الشطرنج، والذي استخدم في حفظ سجلات مؤقتة للمعاملات المالية في الخزينة. بل كان يستخدم كعدادٍ أو حاسبة، فقد كانت الكرات على القضبان تشير إلى الباوندات، والشلنات والقروش المستدانة، وتلك التي تم دفعها. ونستمد معظم معلوماتنا حول عمل ناسخ الوزير، والنظام الضريبي من كتاب، كتب بين عاميْ 1176 و1178، وهي فترة وجيزة تلت سنّ نظام اللفائف الأنبوبية. خط ريتشارد فيتزنايجل (Richard Fitznigel) قيم الخزينة، كتابه سِجالات سكشاريو (The Dialogues of Scaccario) كحوار بين تلميذ وسيده، يطلعه فيه بالتفصيل على عمل الحكومة. والفقرة التالية تتضمن وصف فيتزنايجل للناسخ:

«إن منضدة الحساب سطح ذو زوايا أربع، يبلغ طولها عشرة أقدام وعرضها خمسة، وتوضع أمام أولئك الذين يجلسون حولها كالطاولة تماماً. وحوافها مرتفعة بمقدار أصابع يد الرجل الأربع، وذلك للحيلولة دون سقوط أي شيء قد يوضع عليها. وتغطى المنضدة بقماش يتم شراؤه عادة في موسم عيد الفصح، وهذا القماش ليس اعتياديا، بل كان أسود موشوماً بخطوط يبعد بعضها عن بعض مسافة قدم أو مقدار ذراع. وفي هذه الفراغات توضع عدادات، لكل منها قيمة مختلفة، وسنتكلم عن هذا لاحقاً. وعلى الرغم من أن هذا السطح يدعى منضدة الحساب (exchequer)، إلا أن الاسم قد تغير كثيراً ليشير إلى هيئة الأفراد القائمين على لوح الحساب. لهذا– اعلم– إذا ما سن أي قانون في أي وقت من الأوقات عبر مجلس تشريعي محلي أنه قد تم على طاولة هذا الخازن في هذه السنة أو تلك»

تم تحويل هذه الوثائق، بحلول عام 1300، إلى لفائف أنبوبية. وسميت بذلك إشارة إلى الطريقة المميزة التي تخاط بها أغلفتها بعضها إلى بعض. وبدت عند لفها كأجزاء من أنبوب واحد، وربما يشير هذا الشكل إلى دورها في تدفق المال إلى الخزينة، كما يسهم الأنبوب في تدفق الماء. كانت اللفائف عريضة، وأصبحت مع مرور السنين أطول بحيث أصبح طول بعضها ست أقدام. وأصدر المزيد من اللفائف كل سنة، وذلك لأن جزءاً كبيراً من ديون الدولة يبقى عالقاً بلا سداد. ولهذا كانت الديون تدوّر في كل أنبوبة للسنوات اللاحقة.

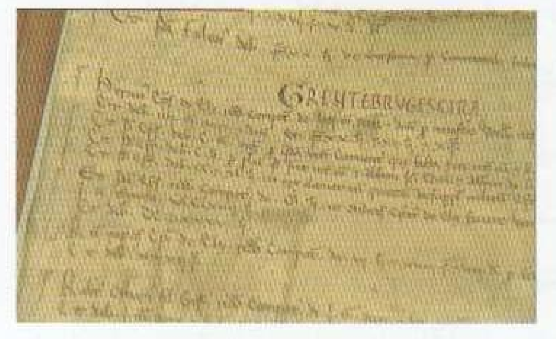
كان النسّاخ، نظراً لأهمية المعلومات التي تحويها اللفائف، يكتبونها على رقاقات جلدية، وساعد استخدام هذه المادة في تجنب الغش، لصعوبة مسح ما كتب عليها. وعنى هذا أيضاً عدم قدرة النساخ على مسح أخطائهم. وإذا ما حدث خطأ ما، كانت تتم الإشارة إليه بخط صغير تحت الكلمة الخاطئة، أو بوضع نقطة صغيرة إلى جانب الخطأ.

وتعد وظيفة الناسخ عملاً جمع بحرفية عالية قمة التوتر والمتعة. ولقد عمل ناسخ الوزير على وتيرة واحدة مع شخص بائس آخر هو ناسخ الخزينة، الذي كان يجهّز الرقاقات الجلدية، ويكتب ما يملى عليه. وحالما ينتهي من كتابة الأرقام، كما جاءت، كان على الناسخ أن يعيد كتابتها كلمة كلمة، وبسرعة.

وعلى سبيل المثال، قد يظهر وبشكل مفاجئ شريف سَسِكيس ووفده المرافق له. وتشير أرقام طاولة الحسابات حينها إلى أنه يدين للملك بستمئة واثنين وأربعين باونداً، وأربع عشرة سوات، وتسعة دوانق، ولكنه دفع ستمئة وتسعة عشر باونداً، وسبعة سوات وثلاثة دوانق، وبناء عليه يتم تحريك خرزات الحساب لتشير إلى وضعه الجديد: بأنه يدين بثلاثة وعشرين باونداً، وسبع سوات، وستة دوانق، ويتم إسقاط الأرقام الجديدة على اللفائف الأنبوبية على الفور، ويقوم الناسخ بنسخها على الفور، فيا له من عمل مثير!

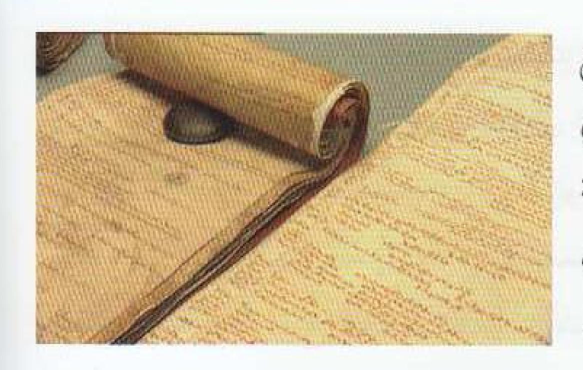
وكانت هذه المهمة للناسخ تمثل قمة التوتر وضغط العمل؛ فعليه أن يكون سريعاً ودقيقاً، فليس هناك مجال للخطأ، وكان الناسخ يقوم بعمله ويداه باردتان في غرفة حجرية معرضة لمختلف تيارات الهواء، وكان يعلم بأن يومه هذا لا يختلف عن أي يوم آخر في عمله، وكان الناسخ في أثناء عمله موضع مراقبة تامة من قبل موظف الوزير، الذي يسترق النظر من خلف كتف الناسخ لتصيّد أخطائه. وتطلب العمل تركيزا عالياً لتجنب حدوث أخطاء، فضلاً

عن كون المادة المكتوبة مملة جداً. ولا يقارن وضع هؤلاء النسّاخ بوضع كتّاب الاختزال في المحاكم، أو بطابعي الكلام المحكي في القرون اللاحقة، لأن الآخرين يكتبون مادة لها طعمها الخاص. إن عملية نسخ اللفائف الأنبوبية أشبه ما تكون بنسخ دليل الهاتف. تلخص عبارة فيتزنايجل التالية كنه هذا العمل: «إنه تحر دقيق، بيد أنه مضن في الوقت ذاته»:



لفائف أنبوبية من الأرشيف الوطني في كيو، ساري. لا يظهر في اللفائف عمدان من الأرقام بل نص مكتوب وفق طريقة الكتابة المتبعة حينها. وتتم الاشارة إلى الأخطاء عبر وضع خط تحت الخطأ وكتابة التصحيح فوقه.

«إن العناية، والجهد والحماسة التي قد يشعر بها آخر الناسخين تكمن في العمل المطلوب منهم القيام به، ألا هو نسخ اللفافة الأخرى كلمة كلمة. محافظا على الترتيب نفسه كما تحدثنا سابقا، والوتيرة ذاتها. يقوم الناسخ بكتابة الكتب الملكية المتعلقة بنفقات الخزينة، وبخاصة الدفعات التي (في نظر البارونات)، يجب أن تدفع في أثناء انعقاد جلسة الناسخ، عن طريق الخازن والأمناء، ويقوم الناسخ كذلك بكتابة الكتب الملكية المتعلقة بحساب، أو إسقاط، الحسابات التي تعتقد البارونات أنها تستحق الحساب أو الإسقاط في أثناء انعقاد جلسة الناسخ المحاسب. ومن واجباته أيضاً عند سداد ديون المفوضين في المقاطعات، وعند انقضاء فترة سداد الديون الملكية، التي صدر بحقها أوامر بوجوب الحضور إلى المحكمة، أن ينسخ الديون بدقة وعناية فائقة؛ وذلك لإرسالها إلى جميع أنحاء المملكة، فلأجلها وبسببها سيتم استدعاء الناسخ المحاسب الجديد».



تستطيع أن ترى عند لفّ الأوراق إلى الأعلى كيف تشكل أنبوباً.

وقد سلبت هذه الوظيفة شاغلها جميع جوانب شخصيته، فهي لا تنطوي على أي جانب شخصي، وقد حملت الوثائق الرسمية في العصور المظلمة في أماكن أخرى، إشارات خاصة تشير إلى النسّاخ الذين قاموا بوضعها. ومن هذه العلامات: كتابات ورسوم ليس لها معنى، وخربشات، وملاحظات هزلية تشير إلى درجة السأم الذي يشعرون به في عملهم.

وكانت القواعد تنص على أن يتوخى «النسّاخ الحذر كي لا يكتبوا شيئا خاصاً بهم في اللفائف». ولم يسمح للناسخ حتى التمتع بخصوصية خط يده؛ بل عليهم جميعا إتقان خطٍ واحدٍ، لتمييز عملهم من عمل الآخرين. ونظراً لكتابة الحسابات تحت ضغط مستمر، تم استخدام خط معلق حديث سهل الكتابة، عوضا من الكتابة ذات الزوايا التي شاعت في بدايات القرون الوسطى، التي تم استخدامها في سجلات الأنجلو– سكسون.

ومن ناحية مادية، كان الناسخون، يجنون مالاً وفيراً. فعلى سبيل المثال، تلقى الناسخون عام 1136 أجرا قيمته خمسة دوانق في اليوم، في وقت كان فرسان البلاط يتلقون أجراً يقدر بثمانية دوانق في اليوم. وكان الناسخون يستمتعون بإجازات طويلة بين فترات انعقاد المحكمة.

وعندما تم الاستغناء عن نظام اللفائف الأنبوبية بعد إصلاحات عام 1832، تبين أن هناك بعض اللفائف تضم ديوناً تعود إلى القرن الثالث عشر. ونظراً للحاجة الماسة لحفظ ما عدده 624 لفافة أنبوبية في مكان آخر عدا مكتب المحاسب، تم إنشاء مكتب القيود العامة وهو ما يسمى الآن بالأرشيف الوطني. تمد اللفائف الأنبوبية المؤرخين بمصادر رائعة مكنتهم من تعقب دقائق الحياة في المحكمة، وذلك عبر الديون ودفعات السداد المتعددة.

أصبحت اللفائف الأنبوبية أكثر طولاً مع نمو الاقتصاد الإنجليزي، مدفوعا بنمو صناعة الصوف، وبرزت قيمة هذه الصناعة ومكانتها بشكل واضح، في صورة رئيس الوزراء، وهو جالس بعظمةٍ فوق كيس فيه صوف. وقد أصبح عدد الأغنام في إنجلترا بحلول عام 1300،

خمسة عشر مليوناً، أي ما يقارب ثلاثة أضعاف عدد السكان.

اعلم- إذا كان اسم عائلتك (Fuller) أو (Tucker) أو حتى (Walker)- أن أحد أجدادك البعيدين قد عمل في صناعة الصوف، وأنه قضى يومه بأكمله، يمشي بتثاقل في بول الإنسان البائت، غائصا حتى ركبتيه، ومن هنا جاء الاسم (Walker) أي (المشّاء).

ومن المؤكد أن هذا العمل مؤهل تماماً لعدّه أسوأ مهنة في القرون الوسطى.

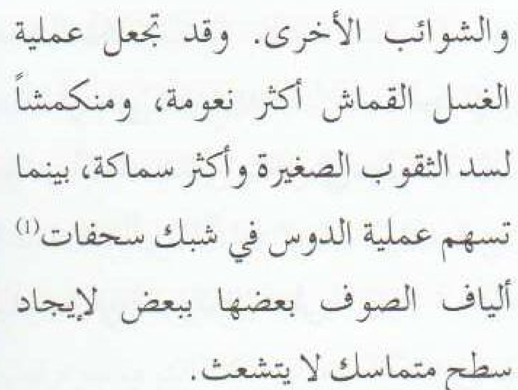
أسوأ مهنة على الإطلاق

القصّار (Fuller):

كانت الخطوة التالية لجز صوف الأغنام، تمشيطها، ثم لفها لتصبح خيوطاً للغزل يتم نسجها. ولتسهيل عملية الحياكة، يترك الدهن الطبيعي في الصوف. غير أن القماش الناتج بدا خشناً، ومتشابكاً إلى حد بعيد، وكانت مهمة القصار أن يدوس الصوف، ليزيل منه الدهن



مشهد لجز صوف الأغنام يعود إلى القرن الخامس عشر. ولكن هل الشخص المرتدي الأحمر يجلس مراقباً أم أنه ينتظر ليباشر القصارة في حوض قذر ذي رائحة كريهة؟



والشوائب الأخرى. وقد تجعل عملية الغسل القماش أكثر نعومة، ومنكمشاً لسد الثقوب الصغيرة وأكثر سماكة، بينما تسهم عملية الدوس في شبك سحفات[1] ألياف الصوف بعضها ببعض لإيجاد سطح متماسك لا يتشعث.



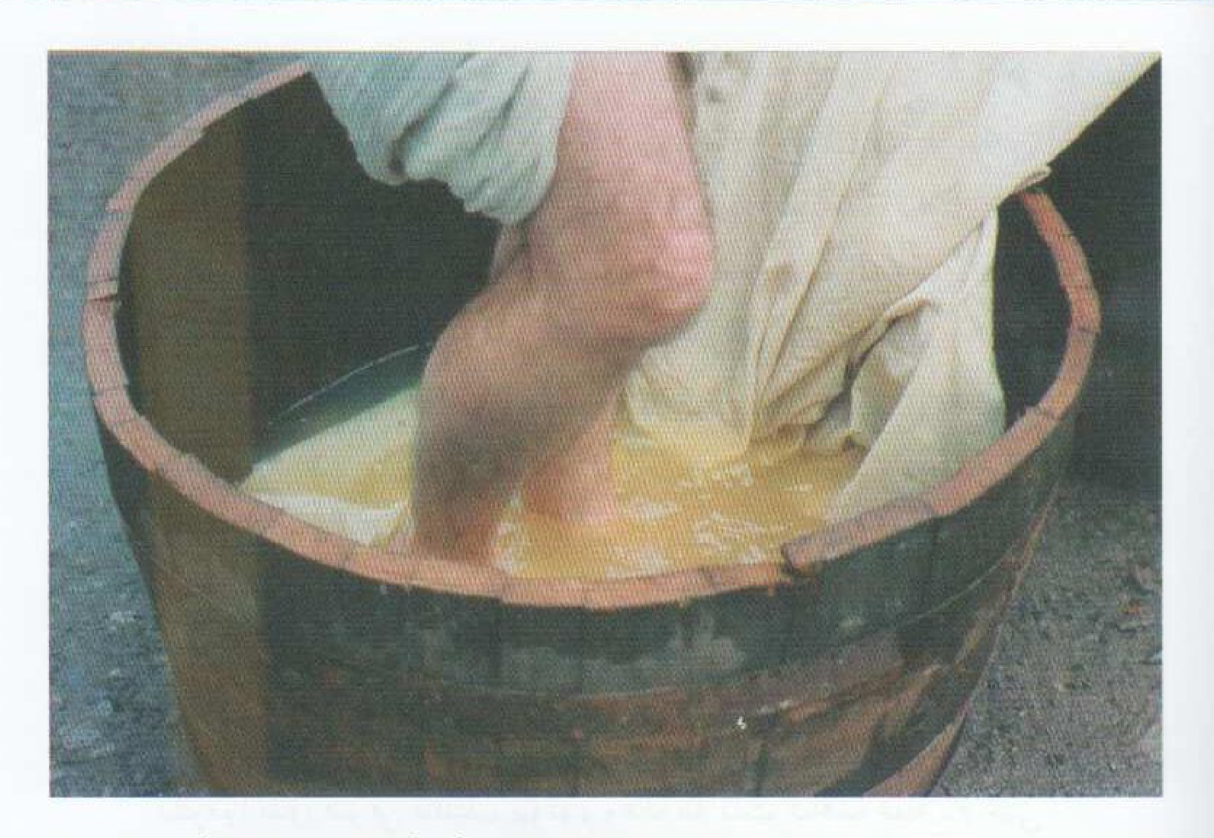
لا شيء على الإطلاق قد يعدل رائحة اللحم النيء الصادرة عن البول البائت، فالأمونيا الصادرة عنه قوية إلى درجة تدفعك إلى التقيؤ في كل مرة تأخذ فيها شهيقاً. بيد أني أثبت بشكل لا يدع مجالاً للشك أن العملية ناجحة، فلم تنقض سوى دقائق معدودة حتى تحلل الدهن من فوق القماش وترسب في البول.

ومن شروط السائل، الذي ينقع فيه الصوف المحبوك بشكل غير متماسك، أن يكون قلوياً ليسهم في تفكك الدهن. وكان أرخص محلول قلوي متوافر حينها هو البول القديم. وكان على القصّار أن يحصل على غالونات من هذه المادة، التي يقوم بجمعها عادة من المزارع والبيوت الخاصة، حتى إن أحد القصّارين المجدين في هذه المهنة قام بإنشاء سلسلة من الحمامات العامة، يقوم عادة بسلبها خيراتها.

لم يكن هذا العمل سيئاً تماماً، فلقد امتلك القصّارون المواد التي كانوا بحاجتها، ولم يتضوروا جوعاً على الإطلاق، فقد شكلوا عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه في الصناعة الرئيسة السائدة في تلك الفترة، وكانوا يكسبون قوتاً يعادل قوت ساكّي العملة النقدية.

سيبدو العمل إذا نظرنا إليه بأذواقنا– نحن أبناء القرن العشرين والحادي والعشرين– مقززاً، بل ورتيباً إلى حد السأم. فهو يستغرق سبع أو ثمان ساعات من الدوس المتواصل فوق نقطة ما لإنتاج عمل كامل من القماش السميك. لم يكن القصار ليجرؤ على أن يغيب ذهنه للحظة واحدة، وحاله هنا كحال عاطن الكتان. فعليهما أن يكونا يقظين لضمان حصول كامل

(1) مفردها سَحْفة وهي الشحمة التي على الظهر الملتزقة بالجلد.



القماش على معالجة متساوية متناسقة. وعلى القصارين أن يكونوا مهرة بما يكفي ليعرفوا مقدار ما يحتاجه القماش من الدوس. وقد تؤدي قلة الانتباه إلى حدوث فتحات في القماش، فيذهب جهده سدى ويصبح القماش المعالج غير صالح. وبعد إتمام هذه العملية، يغمس القماش في الماء ويعلّق على مشابك ليجف. وتنصب هذه المشابك في العادة على جوانب التلال، لتقوم الشمس والريح بتجفيف المادة المخضلة بالماء. وكان حمل القماش الثقيل الذي يقطر ماء فوق تلة ونشره هناك عملاً قاسياً في حد ذاته. يتم تثبيت الصوف من أطرافه على أطراف المنشر، وكخطوة أخيرة، يعدل قضيب المنشر السفلي بحيث يصبح القماش مشدوداً ومتساوياً. ومن هذه العملية، التي تسبب التوتر، حصلنا على العبارة (tenterhooks) وتعني حرفيا «على الكلابات»، والمصطلح المرادف لها في العربية هو «على الجمر».

وليس غريباً أن نعرف أن هذا العمل من أوائل الأعمال التي أصبحت آلية، فلقد أسهمت الدواليب التي تدار بالماء إبان القرن الثالث عشر في اختراع ألواح القصارة، وهي مطارق ضخمة من خشب البلوط، مثبتة إلى دواليب مسخرة بالماء، تقوم بطرق الصوف تاركة الأثر ذاته الذي تقوم به رِجل القصار. وصممت الآلة بحيث إنها في كل مرة يتم بها طرق الصوف.

كان الصوف يلتف، ليتلقى القماش بكامله معالجة متماثلة، مما قد يضمن تقليل فرصة عطبه. بيد أن عملية الإنتاج الضخمة الآلية لم تستغن عن رائحة البول، وتم في بعض الحالات، استبدال البول بخليط من الطين المستخرج من المناجم، والسيلكا وأكسيد الألمنيوم، ولكن بقي البول مستخدماً حتى نهاية القرن السابع عشر، كما يوضح هذا الوصف الذي كتبته سيليا فينيس (Celia Fiennes) لطواحين القصارة في جزيرة وايت عام 1698:

«يتم جلب الصوف من النول، ويوضع في طواحين القصارة، ولكن في بداية الأمر يقومون بتنظيف غرفهم وفركها بالصوف، وقد يترك هذا رائحة كريهة في الغرفة، وذلك لأن الزيوت والدهون، كما أعتقد، تلوث الغرفة ولا تنظفها إطلاقا، ولكني أعتقد أن لهذا دورا في عملهم يقدّرونه هم، ومن ثم يرسلون في طلب معارفهم من القصارين، والصباغين، والحائكين ليقوموا بدورهم في تنظيف بيوتهم وهذا ما كنت شاهدا عليه بأمّ عيني. وبعد ذلك، يقومون بنقع الصوف في البول، ومن ثم غسله بالصابون. ووضعه في طواحين القصارة، والعمل عليه ليجف ويصبح كثيفاً بما يكفي، ومن ثم يقومون بفتح الماء عليه، ونفضه وتقوم الطواحين بشد القماش وإرخائه، ويعد هذا المنظر مسلياً في حد ذاته، فالألواح الخشبية المتثلمة بدت كأسنان عظيمة، وقد يعتقد الرائي أنها ستجرح القماش، لكنها لا تفعل ذلك. تطبق الطواحين على القماش بقوة عظيمة، حتى إنه يمكن القول: إنه إذا ما كان هناك شخص واقف بجانبها وأمسكت بقطعة من ثيابه، ستكون قادرة على سحقه في طرفة عين».

لم تحلّ طواحين القصارة محل الطريقة التقليدية في الإنتاج بشكل كامل، فلقد كانت طواحين القصارة ممنوعة في لندن في الفترة التي تمتد في الأعوام بين 1298 و1417، حفاظاً على الطريقة التقليدية. بل إن القصارة التقليدية- باستخدام القدمين- قد بقيت مستخدمة في فلورنسا، التي يدعي أهلها بأن هذه الطريقة هي الوحيدة التي تنتج قماشاً صوفياً ثقيلاً،

وعلى درجة عالية من الجودة.

قد يبدو العمل إذا ما تمكنت من إغلاق أنفك سهلاً إلى حد ما، ولكنني أعدك أنك، بعد نصف ساعة من القصارة التقليدية، لن تنظر إلى بلوزتك بذات الطريقة التي تراها الآن.

وظّفت عملية القصارة في قصيدة وليم لانغلاند المسماة «رؤيا حراث الدعامة الخشبية»، التي تعود إلى القرن الرابع عشر كمجاز على تعميد. ومن الواضح في هذه القصيدة، أن الطريقتين التقليدية والآلية كانتا تسيران جنبا إلى جنب، حتى بعد مئة عام من اختراع طواحين القصارة، وهي الفترة التي كتبت فيها القصيدة، وتقول القصيدة:

«لا يصلح القماش القادم من النول للبس
حتى تتم قصارته بالقدم أو الخشب،
وغسله جيدا بالماء وفركه بتجشم،
وثنيه وصبغه ليصل إلى يد الخياط».



مطبخ تيودوري، ولكن تقوم النساء هنا بدور غلام السفود، حيث يقمن بوضع الدجاج على قضيب الشي، ويثبتنه عليه.

الفصل الثالث

أسوأ المهن في العهد التيودوري



إن ما نعرفه عن التيودوريين لهو شديد الإدهاش. فلقد خرجوا من عنق العصور الوسطى المَوات، كما لو أنهم شخصيات في فيلم ملحمي، فهنري الثامن وزوجاته الست، وتوماس مور، وماري الدموية (Bloody Mary)، وماري ملكة الإسكتلنديين، والملكة إليزابيث، وفرانسيس دراك، ووالتر رالي، كانوا جميعهم متحضرين وأذكياء، وعاطفيين ووطنيين.

وإذا ما اعتقدنا بصحة هذه الحقيقة، فإن آلة الإعلام التيدوريّة كانت ناجحة، فمنذ اللحظة الأولى التي تلت انتصار هنري التيودوري في ميدان المعركة في بوسورث (Bosworth)، حاول هو وأسلافه أن يرسموا خطاً واضحاً بين «الأيام الماضية السيئة» والعصر التيودوري الجديد المليء بالتفاؤل. وكان التيودوريون في أوج حظهم، لأن فترة حكمهم التي زادت على قرن بقليل ضمت مزيجا زاخراً وفريداً من التوسع الاقتصادي والثقافة، مكنهم من تحقيق هذه الثورة الإعلامية. بيد أن النتيجة النهائية كانت نسخة وردية «لإنجلترا القديمة السعيدة» في ظل النهضة التيودورية.

جعلت حركة الإصلاح الديني المال - الذي كان في السابق ملكا للأديرة- يتدفق في الصناديق الملكية، وعززت الانتصارات العسكرية، وبراعة البحرية الإنجليزية، مكانة التجارة ومصادر القوة إلى حد لم يسبق له مثيل، واستخدمت هذه الثروة في رعاية الأعمال الخلاقة على مختلف أنواعها، وأخذت الأفكار الإنسانية بالتدفق على إنجلترا من جميع أرجاء القارة. فقد قَدم إلى إنجلترا الرسام هانز هولبين (Hans Holbein)- على سبيل المثال- لرسم صور لا تنسى لأعظم الشخصيات السياسية التيودورية، وكذلك قام الملحنون من أمثال تاليس (Tallis) وبيرد (Byrd) وجون دولاند (John Dowland) باجتراح صوت إنجليزي مميز في الموسيقى. وأخذ الكتاب من أمثال سبنسر، وفي مقدمتهم شكسبير بالطبع، بيد اللغة الإنجليزية

فارتقوا بها إلى آفاق جديدة، فكانوا يمدحون ملوكهم باقتدار، ويحطون من قدر من سبقوهم من الملوك.

بيد أن كثيراً من جوانب النهضة التيودورية كانت خادعة، وربما قد فاتنا الحديث عن حقيقة الحياة في القرن السادس عشر. لكن يمكننا القول: إن ظروف الحياة لمعظم السكان في العهد التيودوري كانت استمراراً لظروف حياة القرون الوسطى البائسة، مع أن التيودوريين يرفضون الإقرار بهذه الحقيقة. فلقد تركزت النهضة الإنجليزية في البلاط الملكي، والبيئة المدنية، التي لا يسكنها سوى 6٪ من مجموع السكان، ونصفهم كانوا من اللندنيين. أما الباقي، فاعتاشوا– دوماً– على الزراعة، ولهذا لم تتأثر حياتهم قيد أنملة بازدهار الأدب الإنجليزي، غير أنها تأثرت كثيراً بموجات الوباء المتكررة وبالمجاعتين الرئيستين، اللتين ضربتا البلاد، في خمسينيات القرن السادس عشر وتسعينياته.

وأظن أن كثيراً من هؤلاء الناس سيختار– إذا ما طلب منهم ذلك– الرجوع إلى الأيام القديمة السيئة، التي سبقت هنري السابع، الذي تنسب إليه إزالة آخر مظاهر عدم الاستقرار المرافقة لحروب الورود (Wars of the Roses)، غيرأن ابنه، هنري الثامن، سبب رعباً عمّ البلاد، وفاق تلك الحرب. فلقد انفصل – وهو من خط الكتيبات المعادية للبروتستانت في صلاة القداس، ومن تم تسميته من قبل البابا «بالمدافع عن الإيمان»– عن الكنيسة الكاثوليكية عام 1534 ليجيز لنفسه الزواج من آن بولين (Anne Boleyn). ولم تتميّز بقية العهد التيودوري بانعدام الأمن، والكبت، والاضطهاد كلما حاولت الأنظمة المتعاقبة فرض آرائها الدينية فحسب، وإنما بتدمير الأنظمة الرهبانية أيضاً الأمر الذي أزال– وبضربة واحدة– نظام الأمن الاجتماعي السائد في القرون الوسطى. وكان أعظم أثر لعملية الإصلاح الديني هوالزيادة الهائلة في عدد العاطلين عن العمل من متسولين ومتشردين.

ولكن ما المهن التي كانت متوفرة في سوق العمل التيودوري؟

الجلاد (Executioner):

يمكننا إيجاز القول حول القبضة التيودورية الحديدية في الحكم بالإشارة إلى الرمزين المتلازمين: برج لندن وحامل الفأس المقنع، المنذر بموت قريب. ورغم أن القرون الوسطى

قد شهدت العديد من وقائع تنفيذ أحكام الإعدام، فإن الفأس لم تصبح أداة ترمز لسيطرة الدولة إلا في عهد التيودوريين. وارتدى كل من سيق إلى المقصلة– وإن كان في سابق عهده ذا منصب وجاه– ابتداء بسيدة البرج الدموي، وانتهاء بهوغارت ذي الرقبة التي لا تحمل رأساً، طوق الرقبة التيودوري المكشكش. وضمت قائمة من ضربت أعناقهم بعضاً من أشهر الأسماء في تلك الفترة كتوماس مور، وآن بولين، وماري ملكة الإسكتلنديين.

ومما يسهم في عدّ هذه الوظيفة واحدة من أسوأ المهن هو الفظاعة الملازمة لطبيعتها، *ومن يضطلع بها، وتلك المكانة المنبوذة لشاغلها بين أفراد المجتمع، ناهيك عن المنظر البشع،* والشعور بالدمار النفسي لإنهاء حياة إنسان. لكن التلويح بالفأس ليس سوى جزء بسيط من عمل الجلاد، فقد بلغ عدد عمليات الإعدام خلال الفترة التيودورية 70 ألف عملية؛ لم تشغل عمليات قطع الرأس منها سوى عددٍ ضئيلٍ، ذلك أن عمليات الموت السريع بواسطة النصل كانت حقاً خالصاً للنبلاء. أما عدد حالات الحرق المخصصة للبروتستنتيين في عهد الملكة ماري فقد بلغ مئتين وتسعاً وثمانين حالة. وكانت حالات الشنق الطارئة، والملع؛ ونعني به جذب الأطراف إلى جهات متباعدة والتقطيع، مخصصة للخونة والمتمردين. ولا تعدو باقي حالات الإعدام عن كونها عمليات شنق اعتيادية. ولم تتم عمليات الإعدام في برج لندن، مع *غزارة ما سطّرناه من أساطير حول هذا الموضوع؛ فعدد العمليات التي تمت هناك لا تزيد على* سبع عمليات إعدام فقط، بدأت بوليم لورد هاستنغز عام 1483، وانتهت بروبرت ديفيرا، إيرل إيسكس في الخامس من شهر فبراير عام 1601. وكانت عمليات الإعدام الأخرى تتم خارج البرج، على تلّته، أو في تايبرن (Tyburn).

وتشير رابطة تايبرن أن الجلادين قد اكتسبوا الكنية جاك كيتش (Jack Ketch) في القرن السادس عشر وما تلاه. وكانت الأرض المحيطة بتايبرن ملكاً لعائلة تسمى جاكيت (Jacquette) لما يزيد على 300 عام، وجاءت الكنية تحريفاً سيئاً لهذا الاسم. وفي وقتنا الحاضر يستدل على مكان نصب المشانق بحلقة نحاسية مثبتة في الرصيف؛ ومكانها جزيرة المرور الوسطية الواقعة في منتصف إدجوار رود (Edgeware Road) عند تقاطعه مع ماربل آرك (Marble Arch).

كانت عمليات الشنق فظيعة للغاية، وكانت الضحية في بدايات الفترة التيودورية تقاد إلى

المشنقة على سياج تجره الخيل. وفي العادة، يعتلي مساعد الجلاد قمة المشنقة منتظراً صعود الضحية، التي تُعرّى من ثيابها. ويقوم المساعد لحظة صعود الضحية بوضع حبل حول رقبتها، ومن ثم يقوم الجلاد بسحب السلم، الذي يقف عليه المدان.

نسخت هذه الطريقة بأخرى أنجع منها، يتم من خلالها شنق مجموعة من الناس مرة واحدة. وتتطلب هذه الطريقة أن يجلس المحكوم عليهم بالإعدام على عربة، وأن يلف الحبل حول أعناقهم على شكل عقد. ومن ثم تربط الحبال بقضيب خشبي مثبت بشكل أفقي. وتصفع الخيل لدفعها، وجعلها تتحرك لتجر العربة من تحت المدانين.

بيد أن كلتا العمليتين كانت بطيئة ومؤلمة، فلم تكن الحبال تعقد بطريقة تسهم في كسر العنق، كما هي الحال في عمليات الشنق القضائية الحديثة. ولذا كانت عمليات الشنق القديمة موتاً بالخنق يدوم نصف ساعة، تنتفخ خلاله العينان، وتواصل القدمان في أثنائه الرفس، ناهيك عن إفراغ ما في المثانة والأمعاء من فضلات.



خمسة مجرمين تم إعدامهم شنقاً

وكان للجلاد – بعيد الانتهاء من عملية الإعدام– حق التصرف بملابس المحكوم عليهم، كما كان له حق بيع أجزاء من العقدة التي تحيط برقبة المدان؛ فقد عُدّت هذه الأجزاء جالبة للحظ الجيد. ومن هنا جاءت العبارة الإنجليزية (money for an old rope) ومعناها الحرفي «مال مقابل حبل قديم»، وتعد هذه العبارة إحدى العبارات المرتبطة بعمل جاك كيتش، ومعناها المجازي «طريقة سهلة لجني المال».

وقد يتشبث بكل محكوم عليه بالإعدام بعض أصدقائه، كانت مهمتهم

إنهاء معاناة المحكوم عليه بالإعدام سريعاً، عبر التشبث بقدميه وجذبهما للأسفل على أمل أن ينكسر عنقه، أو أن يعجل ذلك في عملية اختناقه. ولكن، قد يعرض هؤلاء حياة الجلاد للخطر. فإذا ما كان المحكوم عليه شخصية معروفة، سيغدو الموقف شديد التعقيد، وقد يكون هناك احتمال لتعرضه لعمل انتقامي. إن أفضل مثال يمكن سرده كمثال على هذا، يأتي من فترة زمنية لاحقة. فقد تملّك الرعب جورج كورنيت جويس، وهو من نفذ حكم الإعدام بحق الملك تشارلز الأول، عندما عاد تشارلز الثاني للعرش، مما دفعه لعيش حياة جديدة في آشبي- دو-لازوخ (Ashby-de-la-Zouch) كامرأة تدعى جان جويس. ولكن لم تنجح شخصيته الجديدة في خداع أعدائه، الذين وجدوه وقتلوه.

ولم يسهم قناع الرأس الاحتفالي، الذي يضعه الجلاد في إخفاء شخصيته، فالجميع كان على علم بهويته، حتى إن بعض الجلادين قد حققوا نوعاً من الشهرة. كان الجلادون في معظم الأحيان مجرمين صدر بحقهم حكم جرمي، وكان عليهم حتى ينقذوا أنفسهم من الإعدام أن يقوموا بهذا العمل. فجون كروسلاند- على سبيل المثال- مُنح عفواً في مقابل قيامه بإعدام والده وأخيه اللذين كانا محكومين بالإعدام. ويقال إن شبحه المعذَّب يحوم حول كاتدرائية ديربي حتى الآن. ومن الأمثلة الأخرى على المجرمين الذين تحولوا إلى جلادين، تومس ديريك؛ الجلاد الإليزابيثي، الذي اتهم بالاغتصاب، ومنح عفواً من إيرل إيسيكس، الذي لقي حتفه إعداما- بعد اتهامه بالخيانة- على يد ديريك نفسه عام 1601. قام ديريك خلال عمله بشنق ثلاثمئة متهم، وأصبح اسمه- لكثرة حالات الإعدام التي نفذها- مرادفاً للوظيفة نفسها، بل وانتقل اسمه في العصر الحديث ليدل على الرافعة التي تشبه المشنقة التي تستخدم في رفع البضاعة إلى سطح السفينة.

وأظهرت الدراسات العملية أن غطاء الرأس الاحتفالي ذا الشقوق الرفيعة المخصصة للعينين لم يكن مناسباً لهذه المهنة، التي تتطلب تزامن اليد والعين وسرعتهما. ومن المحتمل أن زي العمل كان يتكون من صدرية جلدية عملية بلا أكمام، وبنطال قصير يصل إلى ما دون الركبتين بقليل حيث يربط بحزام حبلي. تخلص الجلاد فيما بعد من غطاء رأسه الاحتفالي لصالح غطاء أقل صرامة ذي فجوات واسعة للعينين، أو قناع بسيط ليتمكن من رؤية ما كان يفعله. لم يكن لباس الرأس هذا تنكرياً، بل كان في حد ذاته رسالة دالة على أن هذا الجلاد ممثل

لا وجه له لعدالة التاج البريطاني. ولم تكن كلمة جلاد في تلك الفترة تعني قاتلاً؛ فما ينفذه جاك كتش، إنما هو حكم المحكمة.

أنت تعلم جيداً يا ديريك كيف أنقذت حياتك التي كانت مهددة جرّاء حادثة الاغتصاب التي قمتَ بها في كولز.

أرجوزة موت إيريل أيسيكس، زهاء عام 1600، بلا اسم

أتمنى لو كان هناك ديريك ليقوم بشنقه أيضاً.

تومس ديكر، الخطايا السبع، 1606

ألم يكوّن ديريك ثروته قبل سبع سنوات.

توماس ميديلتون، الزوجة البيوريتانية (الصفوية)

أو أرملة شارع واتلينغ، 1607

يقوم بجولات مع الشيطان، وديريك مضيفه ونُزل تايبورن محل إقامته.

ديكر، قارع أجراس لندن، 1608

تستخدم الكلمة ديريك بشكل سيء بدلاً من الجلاد، وذلك لأن اسم أحد أشهر الجلادين في تايبورن كان ديريك.

توماس بلونت، تاريخ تأويل القوانين، 1656

كانت عمليات الشنق مجلبة للشغب، والإخلال بالنظام، وبدت خطرة في الوقت نفسه. غير أن قطع الرأس كان يعني قتل شخص آخر بكلتا يديك. وعادة ما خُصّ الأرستقراطيون بهذا الطابع من الإعدام، لأنه يُظهر الفكرة النبيلة بأن هذا الأرستقراطي قد لقي حتفه باستخدام الفولاذ البارد في المعركة. كانت عمليات قطع الرأس نادرة، ولهذا كانت مشهداً



التيودوريون هم من مدّنا بالإنطباع السائد عن برج لندن أنه أداة استخدمتها الحكومة للقمع. ولكن مع هذا لقي عدد قليل من الناس حتفهم إعداماً داخل أسوار البرج.

يستقطب عدداً كبيراً من المشاهدين. ولم يكن بيد الجلاد خيار إزاء الإعداد لمثل هذا الأمر، فهو يتعرض لضغط كبير من الجماهير الغفيرة التي تطالب بتقديم عرض جيد.

أما الضحايا، فكانوا يتوقعون منه عملاً احترافياً، فجل ما كانوا يريدونه ضربة قاتلة سريعة تنتهي بها معاناتهم، ولا يريدون شخصا يقطع رقابهم بضربات متعددة قد تستغرق بعض دقائق منتظرين ضربته القاضية. فلقد ارتفع الفأس ونزل مرات عديدة في حالة ماري، ملكة الإسكتلنديين قبل أن يتم إعدامها بشكل لائق، واضطر الجلاد لاستخدام سكين السلخ، التي عادة يحملها على حزامه لقطع ما بقي عالقاً من أوتار. وليس من الصعب علينا أن نفهم سبب توقعه الحصول على رشوة كبيرة تتراوح من سبعة إلى عشرة شلنات لتحفيزه على القيام بقطع حاد. ويعدُّ هذا المبلغ ضخماً، عند مقارنته بأجر العامل حينها، وكان سبعة باوندات في السنة، ومن الممكن أن تصبح الرشوة أكبر من هذا. وفي هذا الصدد، تخبرنا سجلاّت مكتب الوثائق إلى أن السير وليم— آمر البرج— قد دفع مبلغاً مقداره 100 كروان فرنسي إلى جلاد آن بولين في كاليه كي لا يفسد الأمر، وفي حال أفسد الأمر، فليس هناك من ضمانات باسترداد المبلغ المدفوع.

وغدت الفأس بشكلها المخيف ذات احتفالي إلى جانب استخداماتها العملية في عملية الإعدام. وقد يحدث أن يكون نصل الفأس غير حادّ بما يكفي لإحداث قتل مباشر، وفي هذه الحال، قد يقع الموت نتيجة تهتك الفقرات، لا نتيجة القطع الحاد. وقد يبدو المشهد مرعباً إلى أبعد حد، لأن الدم المتطاير من أوردة الرقبة غير المقطوعة بشكل كامل قد تلطّخ الجلاد والمنصة المحيطة به. وحتى في الحالات التي يتم بها قطع الرأس بشكل كامل، يواصل القلب النبض لدقائق يضخ خلالها الدم. وعلى الرغم من أن الضحية ستفقد الوعي بعد الضربة الأولى، إلا أن قصص الشفاه، التي تواصل الحركة بعد الموت وغيرها من ردود الفعل العصبية، قصص حقيقية.

والفقرة التالية جزءٌ من سرد شاهد عيان لإعدام ماري، ملكة الإسكتلنديين على يد روبرت وينغفيلد. ولم تترك هذه الفقرة أي تفصيل إلا وقد تناولته. كان هناك خوف من أن ماري ستتحول إلى شهيدة، ولذا لم يتم إعطاء ملابسها للجلاد، بل تم التخلص منها:

طلب الجلادون منها، وهم راكعون، وقد انتهت من صلاتها، أن تمنحهم عفوها لما سيقومون به، وأجابتهم بقولها: «أصفح عنكم من صميم قلبي، ولكن أتمنى منكم الآن أن تضعوا نهاية لمشاكلي».

وقامت، بعد أن تلمست طريقها نحو الكتلة الخشبية، بمد رأسها عليها، واضعة ذقنها فوق القالب الخشبي، وكانت كلتا يديها ثابتة فوق الكتلة الخشبية، وكادتا تتعرضان للقطع لولا رؤيتهما في اللحظة الأخيرة. ومن ثم تمددت فوق اللوح الخشبي بخشوع، مادّة ذراعيها للأعلى هاتفة: «بين يديك يا الله» ثلاث أو أربع مرات، ومن ثم، وبعد أن ساد السكون عليها، قام أحد الجلادين بالإمساك بها، فيما قام الجلاد الآخر بضربها ضربتين بفأس، ولم تُصدِر سوى صوتٍ بسيط جداً، أو لم تكد تصدر أي صوت على الإطلاق، ولم تحرك ساكنا من مكانها، ولهذا قام الجلاد بقطع رأسها

المتعلق بجسدها عن طريق غضروف واحد فقط، وتمكن الجلاد بعد قطع ذلك الغضروف من رفع رأسها ليراه الجميع، وهتف قائلا: «فليحفظ الله الملكة». سقط شعر الضحية المستعار فبدا شعر رأسها الحقيقي وقد غزاه الشيب، وقد بلغت من العمر السبعين، وأصبح رأسها صغيراً جداً إذا ما قارنّاه بوضعه قبل سقوط الشعر المستعار. وتغير وجهها كثيراً عما كانت عليه قبل أن يتم إعدامها، ولم يتذكر وجهها وهي ميتة سوى القليل من الناس. *واصلت شفتاها الحركة للأعلى وللأسفل مدة ربع ساعة بعد أن* قطع رأسها.

وبعد ذلك، شاهد أحد الجلادين– في أثناء قيامه بنزع أربطة قدميها– كلبها الصغير زاحفا تحت ملابسها، ولم يستطع الوصول إليها إلا بعد عناء، ولم يفارق الجسد الهامد إطلاقاً، بل بقي متمدداً بين رأسها وكتفيها، وقد ناله من دمائها ما ناله، وحينها تم إبعاده وغسله، كما تم التخلص من جميع الأشياء التي وصلها الدم إما بحرقها، أو غسلها لتعود نظيفة. تلقّى الجلادون أجرهم لقاء ما قاموا به، بيد أنهم لم يتمكنوا من الحصول على أي شيء يعود للضحية.

لا يعد عمل الجلاد الوحشي قد انتهى حتى بعد التخلص من الجثة، فلقد كان يتم تعليق رؤوس الخونة ليشاهدها القاصي والداني على جسر لندن، وهو الطريق العام الوحيد بين المدينة وساوثورك (Southwark). وكان عليه، لمنع الجوارح المتلهفة التي عيل صبرها من الانقضاض على الرؤوس المعلقة، وطمس معالمها، أن يقوم بغلي الرؤوس في قدر كبير مع بذور الكمون والملح. وأشار الدكتور توماس بايلي، الذي تناول أحداث إعدام الأسقف جون فيشر مع السير توماس مور في تلة البرج عام 1535– بعد ثلاثين عاما على حدوثها– أن وجه المتوفى المسلوق، قد بدا أكثر صحة بعد أربعة عشر يوما على تعليقه مما كان عليه قبل إعدامه. وتشكل هذه الوقائع مادة لكوابيس عانى منها الجلاد في العادة. ولهذا، ليس مستغرباً أن كثيراً من الجلادين قد أنهوا حيواتهم بأنفسهم.



إعدام ماري ملكة الإسكتلنديين في قلعة فوذرينغاي. ويقال إن الملكة إليزابيث قد ندمت وغمرها أسف شديد امتد حتى يوم وفاتها جراء توقيعها مذكرة إعدام ماري.

غلام السّفّود/ غلام الشيّ (Spit Boy):

منح الكاردينال والسي (Wolsey) الملك هنري الثامن عام 1526، المبنى التيودوري العظيم: بلاط هامبتون (Hampton Court). وقد شعر الملك بالإهانة من تصرف والسي المزهو بنفسه، وحاول الكاردينال بدوره أن يهدئ من روعه. ومازال القصر شاهداً على السياسة المعقدة التي كانت سائدة في البلاط التيودوري، فلقد كانت المراتب والتراتبية طاغية حينها.

كانت حاشية الملك في قصر هامبتون تضم ألفاً ومئتي شخص في الشتاء، وثمانمئة شخص في الصيف، ناهيك عن الخدم، الذين قد يزيد عددهم على الألف. وكانوا جميعهم يتناولون طعامهم في القصر. وحين تولى الملك هنري العرش، وسّع المطابخ، فأصبح هناك خمسون غرفة لتحضير الطعام؛ أي ما مساحته ستة وثلاثون ألف قدم مربع مخصصة لمعدة هنري.

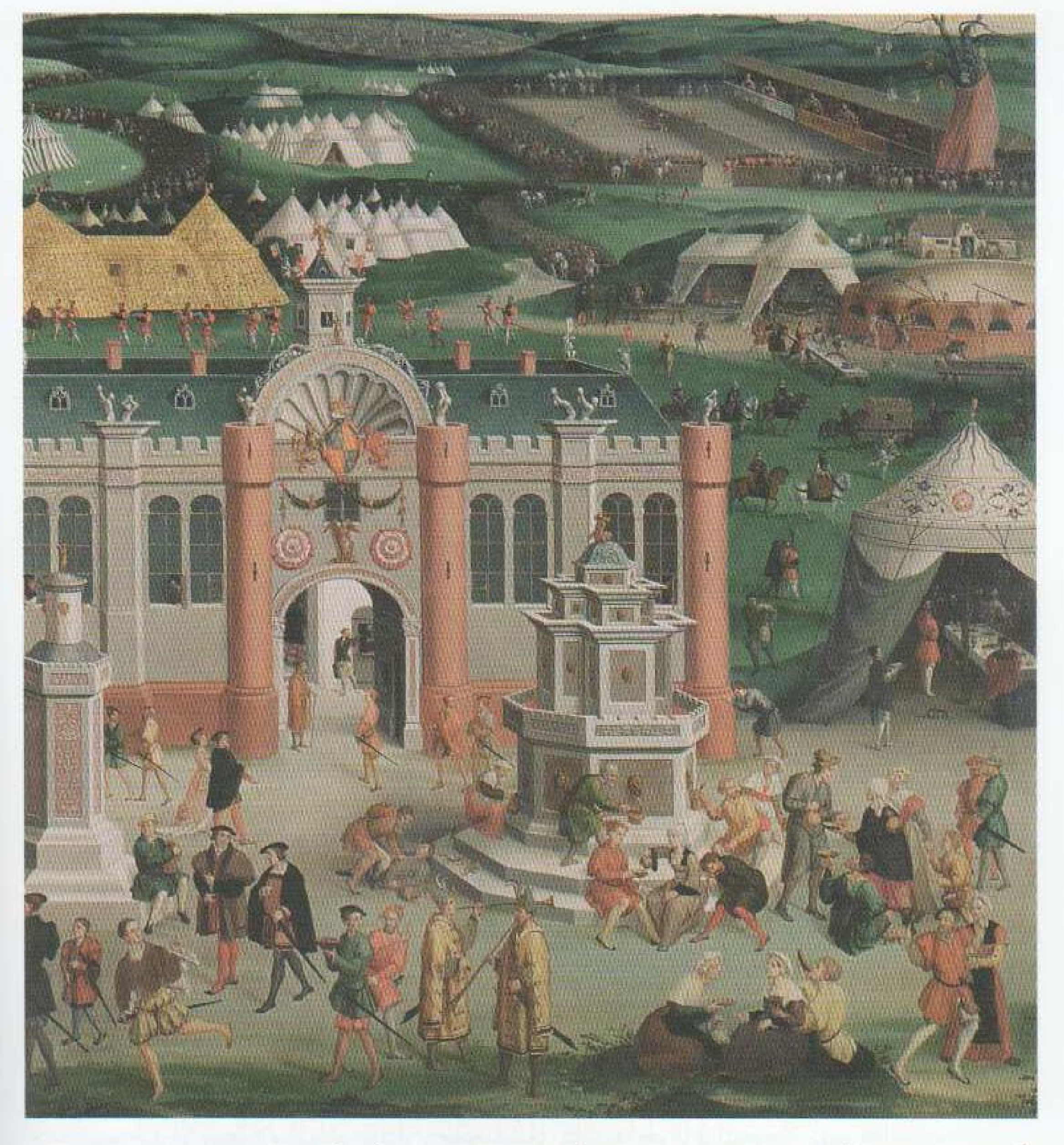
وكانت هذه الغرف جميعها تعج بالحركة عند إعداد الوجبة الرئيسة في النهار، التي تقدم عادة في الساعة الحادية عشرة صباحا. وبدت التراتبية واضحة هنا أيضاً، فقد كانت ملابس العاملين في المطبخ دالة على اختلاف مراتبهم. ويعمل في هذه المطابخ عادةً ما يزيد على مئتي شخص كانوا يقومون بالتقطيع، والطهي، والصراخ على بعضهم، والتشاتم. وكم يختلف هذا الوضع عن وضع فندق رفيع المستوى هذه الأيام.

ويقبع في أدنى سلسلة العاملين في الطعام غلام السّفّود، وكان يعرف في بعض الأحيان بـ (Turn−Broaches) أو (Galipines). لقد كان ما نسبته 70٪ من طعام الأرستقراطيين في العهد التيودوري، على عكس طعام العامة، الذي يعتمد على حساء الخضار المركز، ومنتجات الألبان، يقوم على اللحم، وكان معظمه محمَّراً. وكانت وظيفة غلام السفود، إدارة السفافيد الحديدية الضخمة لساعات طويلة أمام نيران الأفران المفتوحة اللاهبة.

وبعيداً عن أن العمل شديد الإملال، دع عنك أنه شاق للغاية، لما يتطلبه من إجهاد لعضلات الظهر والذراعين، فإنه عمل قاسٍ جداً ولاسيما لغلام. ولقد أثبتت تجارب علماء الآثار التي أجروها في مطابخ بلاط همبتون أن كلمة «غلام» تحمل معنىً ازدرائياً أكثر من كونه وصفياً. كانت سماكة قضبان الشواء سنتمترين ويقارب طولها الثلاثة أمتار، وتستوعب مئات المفاصل البقرية، التي قد يزن بعضها ستة كيلوغرامات. وكل هذا، أي ما يزيد على نصف طن من اللحم، لإشباع شهوات هنري الثامن وأفراد حاشيته، وكان عمل رجلٍ واحدٍ.

كانت ظروف العمل قائظة، فقد ابتعد هؤلاء الغلمان عن النار المسافة ذاتها التي تفصل اللحم الذي يقومون بشوائه عنها. وقام هؤلاء الفتية بتسيير قضبان الشواء من فجوةٍ صغيرةٍ، حفظتهم من الاصطلاء المباشر بالنار. ومع هذا، كانت الحرارة المحيطة بهم خانقة.

ونستطيع أن نتلمس بعض الجوانب المنبئة عن قسوة حياة غلمان الشواء من قوانين إلثيم (Elthem Ordinances)، إذ تلزم هذه القواعد، التي كانت تقرر آداب السلوك في البلاط، رئيس الطباخين بتزويد غلمان قضبان الشواء بملابس، توجّب عليهم أن يرتدوها، ولقد حرمتهم تلك القواعد إمكانية العمل بلا ملابس أو في خرق بالية كما كانوا يفعلون في السابق، كما حرمتهم هذه القواعد من إمكانية التبول في مستوقد النار. وكان عليهم الاستيقاظ عند الساعة الرابعة فجراً، لإشعال النار، ومن ثم العمل لست ساعات دون توقف، مما جعل هذه



يعدُّ اجتماع فرانسيس الأول وهنري الثامن في حقل كلوث أف غولد عام 1520 واحداً من أكثر المناظر روعة في المزيدات السياسية، ويظهر غلمان السفود في الخيام البيضاء في خلفية الصورة أثناء تجهيزهم وليمة باذخة لمالكيهم المترفين.

القاعدة مشكلة، فرغم ارتفاع درجات الحرارة، تقوم أجسامهم بالتخلص من رطوبتها عبر التعرق الزائد. ونحن محقُّون إذا ما ظننا بأن هذه القوانين كانت لا تبالي بظروف العمل، وأن جل اهتمامها كان منصباً على زيادة روح الانضباط والهيبة في البلاط.

ومن جانب آخر، تلقى الغلمان رواتب مجزية، ففي العادة يتلقى العامل في مطبخ بلاط

هامبتون ستة بنسات في اليوم حين يكون على رأس عمله، وأربعة بنسات عندما يكون مريضاً، ولهذا كان أجره حتى في وقت مرضه يعادل أربعة أضعاف راتب العامل في الحقل.

وتزودنا مراجعة تمت على هذه اللوائح، تعود إلى عام 1591على الأرجح، بلمحة عن كمية اللحوم الهائلة التي كان على غلمان الشواء التعامل معها سنويا وهي: 1240 ثوراً، و8200 خروف، و2330 غزالاً، و760 عجلاً، و1870 خنزيراً، و53 خنزيراً برياً. وهذه هي الأعداد التي ضمتها القيود الملكية في عام واحد، ولقد تعامل غلمان الشواء مع هذه المواد بشكل يومي. كما ضمت الوجبات التيودورية أصنافاً متعددة من الطيور: كالبط، والبجع، واللقالق، والدرّج، والبلشون، والواق، والجراف، والحجل، والسمن، والديوك، والزقازق، والنوارس، والحمام وطائر القبرة.

وعدت أيام الصوم الكبير والجمع أياماً تقليدية للصيام الديني، ولا يعني هذا عدم تناول الطعام على الإطلاق، بل يعني ببساطة عدم وجود اللحم في الأكل. وتكونت الوليمة التيودورية، التي تليق بملك من أشواط متعاقبة من الطعام، وضم كل شوط مجموعة من الأطباق، ولهذا كانت وليمة هنري الثامن ليوم الجمعة، والمكونة من سمك وخضار تبدأ بخمسة عشر طبقاً مختلفاً تقدم له على شكل عينات ليتذوقها. وهذه تشمل الحساء، وسمك الأنقليس، وسمك الجلكي، وسمك الكراكي، والسلمون المصطاد من نهر التايمز، والسمك الأبيض، وسمك الحدوق والبوري، وذئب البحر، والدنيس، وسمك موسى، وسمك السلور، وسمك الشبوط، والسلمون المرقط،، والسلطعونات، وجراد البحر، وخنزير البحر (الدلفين)، أو الفقمة (وكانت تعد في تلك الأيام نوعاً من السمك). ومن ثم هناك الجولة الثانية من الأطباق وتضم تسعة أطباق، قد تبدو لمعظمنا متماثلة تماماً. وقد تضم حساء آخر، وسمك الحفش، وسمك الأبراميس، وسمك التنش، وسمك الفرخ، والأنقليس بأنواعه، والسلمون، والبطارخ، وجراد البحر، والجمبري، وكعكة الفواكه، والفطائر، والفواكه، وخبز التفاح، والبرتقال، والزبدة، والبيض.

مراسيم إلثام (The Eltham Ordinances):

كان العصر التيودوري مهووسا بالنظام والانضباط في جميع جوانب الحياة. فقد كانت هناك غزارة في القواعد والأنظمة. قام الكاردينال والسي عام 1526 بتنقيح القواعد السابقة، التي كانت تحكم شؤون البلاط الملكي، فيما كان يعرف سابقا بمراسيم إلثام، وتم تنقيح هذه المراسيم على الدوام خلال الفترة التيودورية، وشملت جميع جوانب إدارة البلاط، وخاصة تقديم الطعام والإعداد له، وهذا كان يتطلب أموالاً طائلة.

وتتطلب أولى المهام في بلاط قد يضم ألفاً وخمسمئة شخص، التخلص من جميع المتطفلين.

«عليك مرة أو مرتين في الأسبوع تفقد جميع المكاتب والغرف في البلاط لترى إن كان هناك غرباء يأكلون في هذه المكاتب، والغرف أثناء أوقات الوجبات، أوفي أي وقت آخر، بما لا يتناسب مع إرادة الملك»

وتستطيع التحكم بما تنفقه على الطعام، إن تمكنت من منع الحاشية من تناول وجبات منتصف الليل.

«قد يقوم بعض النبلاء، والسادة وغيرهم بتخطي حدود البهجة المتفق عليها، وقد يتناولون الطعام في الزوايا، والأماكن السرية غير متقيدين بتناول الطعام في القاعة المخصصة لهذا الغرض غير آبهين لغرفة الملك أو قاعته».

حرص التيودوريون المهووسون بالرتبة والمكانة، على أن يتلقى جميع أفراد الحاشية طعاماً مناسباً. ولا يقدم جميع الطعام الذي تحتويه قائمة الطعام إلا للملك ومستشاريه، وكان على شاغلي الوظائف الدنيا كالقائم على تعليق الملابس، ومسؤول المقامرة، وعاملي البلاط وموظفيه» أن يقتاتوا لحم البقر ولحم العجل، أو ما شابههما من اللحوم المحمرة، كالخنزير، والإوز والأرانب المغموسة بشراب المزر.

وليس من قبيل المصادفة أن مراسيم إلثام قد ظهرت في العام ذاته الذي سلم فيه والسي قصر هامبتون إلى الملك هنري الثامن. وجاءت مراجعة رئيس الأساقفة لآداب السلوك في البلاط كمسمار آخر دُقّ في نعشه السياسي. فلقد كان يحاول جاهداً التخلص من أولئك الذين كان يعتقد بأنهم مؤثرون في الملك. بيد أنه، في مراسيمه، كان قد تجاوز الحد، فقلص عدد السادة في الجناح الملكي الخاص إلى النصف، وتخلص من أعدائه، كويليم كومبتون، موظف الحمام المتنقل، فكره الملك تدخله الصارخ، وكانت هديته لقاء هذا القصر الفخم المجاور لنهر التايمز، محاولته التي ذهبت أدراج الرياح تهدئة ملكه الغاضب.

موظف الحمام المتنقل (Groom of the Stool):

معلوم لدى الجميع أن ما يدخل جوف الإنسان يخرج بعد حين. كان هنري الثامن يشارك– وعن رغبة– في تناول العشرين طبقا الآنفة الذكر مرتين في اليوم. وقد حوله نظامه الغذائي القائم على الكثير من اللحم والدهن، والقليل من الخضار، من أحد أكثر الأمراء قبولاً في بلاد المسيح، إذ كان طوله ستة أقدام وإنشين، وكان عريض الأكتاف، نشيطاً مغرماً بالنساء، إلى ملك ضخم ذي عينين غائرتين، مثلما ظهر في الكثير من الصور التي رسمها الفنان هولبيان. وبلغ طول خصره في أيامه الأخيرة 54 إنشاً، وكان حينها يعاني من النقرس والسفلس. وبلغ وزنه أربعة وعشرين رطلاً (ما يعادل 334 باونداً) مما جعله لا يتمكن من ركوب فرسه بنفسه، بل كان يتم رفعه، ويرجع السبب في زيادة وزنه إلى حادثة المجاولة بالرماح التي تعود إلى عام 1536، وقد عانى حينها من جرح في فخذه لم يمكنه من ممارسة التمارين فحسب، وإنما تطور إلى دمل متقيح في أعلى الفخذ. وغدا موظف الحمام المتنقل الشخص الموكل إليه التعامل مع هذه الكتلة الضخمة من الدهن، وعن مراقبة فضلات هنري الثامن بكل ما تحمله من نظامه الغذائي البائس. كان على هذا المسكين مسح مؤخرة هنري الثامن. نعم، كان بحق يقوم بمسح مؤخرة هنري الثامن.

اعتقد التيودوريون أن سيدهم شخص قد اختاره الرب، وأن الرب قد عينه ومسحه. وأنه مطاع في كل ما يطلب. وفي حين أننا نصرّ على الخلوة عند دخولنا الحمام، كانت حياة الملك في الحمام تتم تحت أنظار الجميع.

ويعد هذا المنصب ذا مكانة رفيعة في البلاط. ولا يحق إلا لأرستقراطيٍ من علية القوم أن يلمس المؤخرة الملكية. وامتاز شاغل هذا المنصب بميزة الانفراد مع الملك في أشد اللحظات خصوصية. ويحمل هذا الموظف مفاتيح الشقق الملكية، وفي العادة يساعد سيده على ارتداء ملابسه. ويحصل شاغل هذا المنصب على أجر جيد جداً، بل وعُدَّ هذا العمل خطوة تحضيرية للوصول إلى منصب أعلى.

بيد أن ذلك الاقتراب من الملك كان له عواقبه أيضاً. فعلى سبيل المثال، عندما أراد هنري طريقة للتخلص من آن بولين، لم يجد سوى موظف حمامه، السير هنري نوريس، الذي أعدم عام 1536 لارتكابه- كما شيع عنه- الزنا معها.



التصريف الصحي التيودوري الفريد من نوعه. بني ليدوم؛ وفي الحقيقة بني كبيت من الطوب.

والعمل ببساطة، إذا تناسينا المخاطر السياسية، كريه جداً. كانت طرق العمل وأدواته شديدة البساطة، فأول ما تحتاجه هو قطعة من الأثاث ليجلس عليها الملك، وكان هذا صندوقاً ذا ضمادة، أو كرسياً مغلقاً ذا فجوة في الأعلى، أما في الأسفل، فيوضع دلو أو حوض غير مرئي. وهذا الكرسي هو ما منح اسمه للفضلات التي يسقطها الملك في الدلو فأصبحت تسمى بذات الاسم. وكان المقعد المغلق مزخرفاً، بيد أنه ذو وزن خفيف. ولا يفترض بالملك إذا أراد قضاء حاجته أن يسرع للطابق العلوي ليجلس على الكرسي، بل كان على موظف المقعد أن يحمله إلى الملك، ولهذا كان يجب أن يكون خفيف الوزن.

ويزودنا نص يعود للقرن الخامس عشر يدعى «كتاب تربية الاطفال» (The Babees Boke of Nurture) بقائمة من مستلزمات العمل الأخرى: «تأكد من وجود قماش، وقطن، أو حرير لمسح مؤخرة الملك، وكن على أهبة الاستعداد، عندما ينادي، منتظراً أمره، حاملاً حوضاً وإبريقاً ومنشفة على كتفك». وفي حين أن العامة يستخدمون الطحالب لمسح مؤخراتهم، كان لا يصلح للملك سوى الأفضل، فلقد كان يستخدم مناديل قماشية، محاكة في طبقتين على شكل جوهرة. وكانت سميكة وسريعة الامتصاص ومن هنا جاء استخدام الأمريكيين للكلمة (nappy) للإشارة إلى المناديل السريعة الامتصاص.

ولا يتم التخلص من الفضلات الملكية بمجرد استقرارها في الدلو، فلها قصة علينا سردها. فقد كانت هذه الفضلات تفحص باهتمام شديد للاستدلال على حسن صحة الملك. وكان متوقعا من موظف الحمام، عند انسداد المنطقة الهضمية للملك، بسبب نظامه الغذائي المقيت، أن يحقن الملك بحقنه شرجية. وورد عن السير توماس هينيج (Sir Thomas Heneage) الذي أصبح موظف الحمام بعد التخلص من هنري نوريس، أنه أخبر توماس كروم ويل، سكرتير الملك في سبتمبر من العام 1539، وعلى وجهه علامات الرضا أن سيده «يتمتع بصحة جيدة بعد أن حقنه بمُليّن وحقنة شرجية».

وحالما ينتهون من تفحص فضلات الملك، يتم فتح السبيل أمامها لتبدأ رحلتها إلى نهر التايمز عبر نظام التصريف المبهر. ويجدر الذكر هنا أنه في الثمانينيات من القرن الخامس عشر تم إعادة اكتشاف كتاب حول نظام مد الأنابيب الروماني كجزء من إحياء الاهتمام في العالم الكلاسيكي، وكان اسم الكتاب «مياه مدينة روما» (De Aquae urbis Romae) للمؤلف



هنري الثامن. لا تتوافر لدينا لوحة تعبر عن وجهة نظر موظف الحمام المتنقل.

سيكستوس يوليوس فرونتيتوس (Sextus Julius Frontinus). ولقد تم توظيف أحدث أساليب تركيب الأنابيب، التي قدمها هذا الكتاب، في بلاط همبتون عندما تم بناؤه. فلقد مُدّت أنابيب، وشقت قنوات بطول ميلين، لتستخدم في نقل فضلات البلاط إلى النهر. ومما لا شك فيه، أن بعض الأنابيب قد تتعرض للانسداد، وحينها يتم استدعاء رجل تُعدّ وظيفة موظف الحمام بالمقارنة بوظيفته رفاهاً لا يجد إليه سبيلاً.

مزيل الفضلات (Gong Scourer):

تعني الكلمة (gong) أو (gung) فضلات الإنسان، وشاغل هذه الوظيفة يقوم بما تدل عليه وظيفته: إزالة فضلات الإنسان. فهو يقارب في عملة عمل شركة داينو–رود (Dyno–Rod) للسباكة، وهو منظف البالوعات الأول في أيامه. وكان يعرف أيضاً بفلاّح الفضلات أو (Fermour)، وهو اسم اشتق من الكلمة الفرنسية التي تعني «يدفع بعيداً».

قضى مزيل الفضلات حياته في العمل غائصاً حتى ركبتيه، أو خصره أو حتى رقبته في فضلات الإنسان، وكان في العادة يعمل ضمن فريق، قد يضم في الغالب ولدين مستعدين للعمل بدلائهما. فالولد ذو نفع عند فتح انسداد في مكان ضيق.

وتلقى مزيلو الفضلات في بلاط هامبتون لقاء قيامهم بعملهم هذا مكافآت مالية جيدة. فلقد كانوا يتلقون ستة بنسات في اليوم. وطلب مزيل الفضلات الخاص بالملكة إليزابيث وكان يدعى سيمبسون أن يتلقى نصف أجره على شكل مشروب براندي، بيد أن مزيلي الفضلات في بلاط هامبتون لم يواجهوا مشاكل كبيرة كتلك التي كان يواجهها زملاؤهم العاملون في مدينة لندن.

فلقد ارتفع عدد سكان لندن، خلال القرن السادس عشر بما يعادل 400 بالمئة، وكانت إحدى أكبر المشاكل التي قد تواجه المدينة هي إجراءات الصرف الصحي. ولنا أن نجوب بخيالنا فنتصور فضلات الإنسان وقد تم قذفها من الطابق العلوي على المارة الذين لا يتوقعون هذا الفعل في الشوارع القذرة في الأسفل. ومع أن هذا الوضع حقيقي، إلا أن الصورة غير كاملة.

لقد حاول المجلس البلدي في مدينة لندن توفير مرحاض واحد لكل عشرين مسكناً،




قنوات التصريف في قصر هامبتون. يتم تنظيفها هذه الأيام، لكنها قبل 400 عام كانت رحلة مرعبة في الظلام لمساعد مزيل الفضلات، الذي لم يكن يحمل سوى مشعل لإنارة طريقة.

وكانت معظم الحمامات العامة ذات مقاعد خشبية تم بناؤها فوق مجاري المياه كنهر فليت، الذي كان يقطع مدينة لندن ليصب في نهر التايمز، وعلاوة على ذلك، ضمت العديد من البيوت الكبيرة مراحيض خاصة بها لها حفرها الامتصاصية الخاصة بها، ولا تعدو هذه أيضاً عن كونها مقاعد غير متقنة موضوعة فوق خزان. ولكن كان هناك شعور عام بأن مالكي هذه الحمامات مسؤولون عن الفضلات الملقاة في حماماتهم. وقد يؤدي بناء الحفر الامتصاصية بالقرب من منزل جار ذلك الشخص، إلى تسرب السوائل العفنة نحو قبو جاره، الأمر الذي قد ينتهي بالمحكمة.

وتظهر القواعد الصارمة الخاصة بفلاحي الفضلات مدى جدية سلطات المدينة في محاولتها لتنظيم إدارة الفضلات، والروائح التي كانوا يعتقدون أنها تحمل المرض معها، ولم يسمح لماسحي الفضلات السكن إلا في مناطق محددة في المدينة، وكان عليهم كذلك العمل في نوبة ليلية دائمة تبدأ عند التاسعة وتنتهي عند الخامسة فجراً. ولم تكن شوارع المدينة مضاءة ولهذا كان عليهم العمل بمساعدة شموع كثيرة الدخان، مصنوعة من شحوم الحيوانات.

ويقوم فلاح الفضلات بنقل حوض كبير أو ما كان يسمى بالأنبوب عبر شوارع المدينة على عربة تجرها الخيل. ويقوم وفريقه فور وصولهم الحفرة الامتصاصية باقتلاع ألواح مقعد المرحاض، ويضطرون- في المراحيض الكبيرة أو الصعبة- إلى هدم الجدران لإفراغ ما فيها من الجانب.

وحينها يزيلون الفضلات السائلة، وتتكون هذه من طبقتين، السائل في الأعلى الذي يمكن التخلص منه بسهولة عبر نضحه بالدلاء، ففي العادة لا يتم استدعاء ناضح الحفر إلا عندما تكون الحفر ممتلئة، أما الطبقة السفلى، فهي الطبقة الصلبة، وتكون على شكل طين متماسك عليه أن يقتلعه. يعد هذا العمل في حد ذاته بالغ السوء في الشهور الباردة، ولكن تخيل العمل في أعماق المرحاض نفسه في ليالي الصيف الحارة. لا بد أن العمل كان شبيها



رجال الليل أو فلاحو الفضلات وهم على رأس عملهم. والبراميل المفتوحة من الأعلى هي ما كان يسمى سابقاً بالأنابيب. وكان على فلاحي الفضلات المتعدين الجلوس فيها كعقوبة.

بمسالك جهنم. وقد يصادف ناضح الحفر في أثناء عمله جميع أصناف القذارة، كجثث متحللة لأطفال غير متوقعين، يتم التخلص منها عبر رميها في الحفرة.

كان العمل شديد الخطورة، وذا رائحة مقززة. وقام فلاحو الفضلات، عندما أصبح التبغ متوفراً، باكتساب عادة التدخين لنفث روائح أشد بغضا منه. وتشير تقارير الطبيب الشرعي إلى أن بعض فلاحي الفضلات قد قضوا نحبهم اختناقا كنتيجة حتمية لتسممهم بسلوفيد الهيدروجين.

تلقى ناضحو الفضلات- كغيرهم من العاملين في البلاط- رواتب مجزية. وتشير سجلات

بعض بيوت المدن الكبرى، إلى أن أجرة نضح حفرة حمام عام هي عشرة شلنات، ولكن هذا المبلغ لا يذهب بكامله إلى جيبه، بل عليه اقتسامه مع عدد من العمال، ويتضمن المبلغ أيضاً تكلفة الحصان والعربة.

ومن جهة أخرى، كانت عقوبات مخالفة تعليمات المدينة الصارمة قاسية جداً. فعلى سبيل المثال، قام أحد فلاحي الفضلات بسكب فضلات بشرية في أحد مصارف المياه بدلاً من حملها خارج المدينة، وكان عقابه بوضعه في حوضه، الذي يُملأ بالفضلات إلى رقبته، ومن ثم يوضع في غولدن لان (Golden Lane) في لندن مع تعليق لافتة في رقبته تدل على جريمته.

ولا تعدو هذه المعاملة أن تكون صفعة على معصم الشخص فحسب، إذا ما قورنت بالعقوبات الصادرة بحق النساء العاملات اللواتي قد يخالفن التعليمات الخاصة بعملهن.

بائعة السمك (Fishwife):

وبائعة السمك هي امرأة تجوب المدينة حاملة حمولة من السمك على رأسها للبيع، وهي امرأة خشنة ذات صوت أجش (قاموس تشامبرز).



بائعات السمك التيودوريات كما هو واضح في هذا الرسم البسيط من خريطة تعود إلى العام 1582. كن ذوات صوت أجش، لا يتلفظن سوى ببذيء الكلام، وبدوْن مستقلات. ولا يناسبهن هذه الأيام سوى أن يكن متنافسات في برنامج الأخ الاكبر، أما في القرن السادس عشر فقد كن تهديداً للنظام الاجتماعي.

يتجسد موقف الرجال التيودوريين من الجيش الجرار للنساء العاملات في طريقة تعاملهم مع بائعات السمك.

يتوفر أمام معظم النساء خيار «أوحد» فيما يتعلق بالعمل، ألا وهو الزواج، فلم يكن متاحاً لهن القيام بأعمال خاصة بهن، بل كان عليهن العمل مع أزواجهن، كزوجة الخباز مثلاً.

وأصبحت وظيفة بائعة السمك هي الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة بسبب طبيعة هذا العمل. كانت هؤلاء النسوة يساعدن أزواجهن في تنظيف السمك من الداخل، وتدخينه وبيعه، ولكن كان عليهن، عندما يكون أزواجهن في البحر، القيام بالعمل بأنفسهن؛ فتمتعن بدرجة عالية من الحرية. احتاجت هؤلاء النسوة إلى صوت جهير، وشخصية جريئة ليقمن بالترويج لبضائعهن. ولم يكن في مصلحتهن أن يكن كالزنابق الخجلى في السوق التيودوري؛ ولهذا كن ذوات صوت أجش. ولم يكن في مقدورهن تناول العديد من أنواع السمك الذي يقمن ببيعه، فالسمك الأبيض، على سبيل المثال، كان طعاماً مرتفع السعر، وخاصاً بعلية القوم. ولم يكن يتناولن سوى ما يتناوله الرجال العاملون من طعام بحري وهو المحار.

كان سلوك هؤلاء النسوة قاسياً جداً، فقد كن يشربن الخمر، ويدخنَّ، ويتلفظن بألفاظ نابية. ووضْعُهنّ هذا جعلهن في مواجهة مباشرة مع منظومة الأخلاق السائدة في العصر التيودوري. فقد أصبحن يمثلن الصورة النمطية للنساء اللواتي قد يشكلن تهديداً للرجل، بل وأصبح لقب عملهن موضوع ردود فعل معادية. ومازلنا حتى يومنا هذا نستخدم هذا اللقب بطريقة ازدرائية.

انتشرت الإصلاحات البروتستانتية في جميع أرجاء البلاد، مسهمة في خلق وضعين مختلفين هما: التفكك الاجتماعي والضغط السياسي. وبات المسؤولون تواقين لإعادة إقرار النظام. إن غزارة كتب السلوك التي كانت تضم تعليمات واضحة حول ما على المرأة اتباعه، ليست سوى مؤشر لرغبة التيودوريين في تضييق الخناق على الحياة الخاصة ووضعها تحت قواعد شديدة.

ولقد عرفت النساء اللواتي كن يكسرن القواعد الاجتماعية «بالسليطات»، وكانت هذه الكلمة تستخدم في عهد التيودوريين لوصف أي سلوك شائن، ولا يفوقها سوأ سوى كلمة

«عاهرة». حتى إنه يمكن أن يطلق هذا الوصف، ونقصد به «السليطة»، على المرأة بأمر من المحكمة. ويكافئ هذا في النظام القانوني الجديد تهمة التحرش، التي قد تتضمن الإساءة اللفظية، والتهديد الجسدي أو العنف.

الزوجة الصالحة

يعد كتاب جون فيتزهيربرت «كتاب التدبير المنزلي» دليلاً إرشادياً محسناً تماماً ككتاب «تربية الأطفال». ولن يكون لدى من يحرص على أن تقوم زوجته المستقبلية باتباع هذه التعليمات وقتاً كبيراً لتقريعها.

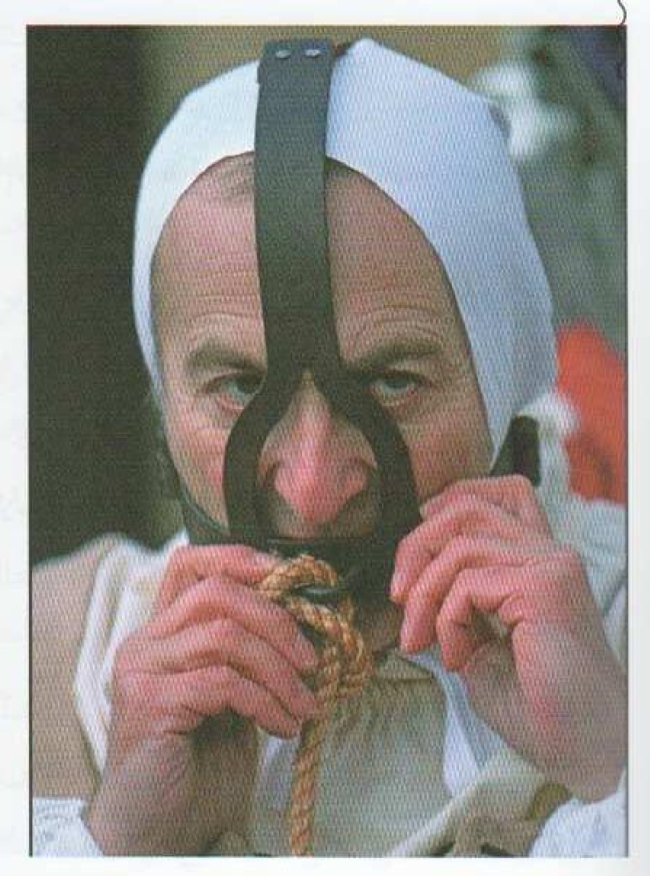
عليكِ بعد الاستيقاظ، والنهوض من الفراش، وتجهيز نفسكِ
مسح البيت أولاً،
وتجهيز المائدة ووضع كل شيء في مكانه في بيتك،
وحلب بقرتك،
وإطعام عجولك،
وتصفية الحليب،
وإيقاظ الأطفال وإلباسهم.
وتقديم الفطور، والغداء، والعشاء لزوجك، وأطفالك، والخدم وتناولي حصتك معهم.
ونقل الذرة والشعير إلى المطحنة،
لخبز الذرة، وتخمير الشعير عندما تستدعي الحاجة.
وعليك صنع الزبدة والجبنة عندما تستطيعين،
وإطعام خنازيرك صباحا ومساء، وإطعام دجاجك اللحم في الصباح،
وعندما يحين الوقت الملائم خلال العام عليك التنبه إلى بيض دجاجك، وبطك، وإوزك،
وجمعها والحرص على عدم اقتراب أي وحش أو خنزير أو قوارض لتعبث بها».

جون فيتزهيربرت كتاب التدبير/ الزواج 1525

كانت النساء اللواتي قد يمثلن أمام القاضي لكونهن «سليطات» متزوجات في معظم الأحيان، وينتمين إلى أدنى مراتب الطبقة المتوسطة العريضة، التي ينتمي إليها السواد الأعظم من السكان. وهؤلاء النسوة كن زوجات الجزارين، والخبازين، والحائكين، وبائعي الأسماك بطبيعة الحال، وكان هناك أيضاً بعض السليطات الثريات كزوجات التجار، وفي بعض الأحيان كن نساء ينتمين إلى الطبقة النبيلة.

ثلاث سليطات

على الرغم من أن بعض أعظم الأسماء في تاريخ الفترة كان أسماء نساء كماري تيودور، وإليزابيث الأولى، وماري ملكة الإسكتلنديين، فإن من غير الاعتيادي أن تشق أسماء نساء من الطبقة الوسطى طريقها إلى كتب التاريخ. ومن المثير للسخرية، أن النساء اللواتي تمكنّ من تسجيل أسمائهن في التاريخ هن اللواتي أصبحن سيئات السمعة لجعل أنفسهن ضارات ومزعجات، ومثيلات هؤلاء، كاثرين بارناباي من لندن التي تم إعلانها سليطة لأنها اتهمت إحدى جاراتها بقتل طفلها، وقيامها بمصاحبة «اللصوص، والأنذال والمتسولين»، وهي لم تكن تنتقي ألفاظها، ومن ضمن ما قالته: «أنت لست سوى امرأة محبة للشجار، وسكيّرة تنتقلين يومياً من بيت



المؤلف وقد تم إسكاته. ويقاد السليط من أنفه، بكل ما تعني هذه الكلمات من معنى، فكل رجة قد تطال الحبل تدفع اللجام فوق اللسان بشكل مؤلم.

إلى آخر وأنت مخمورة».

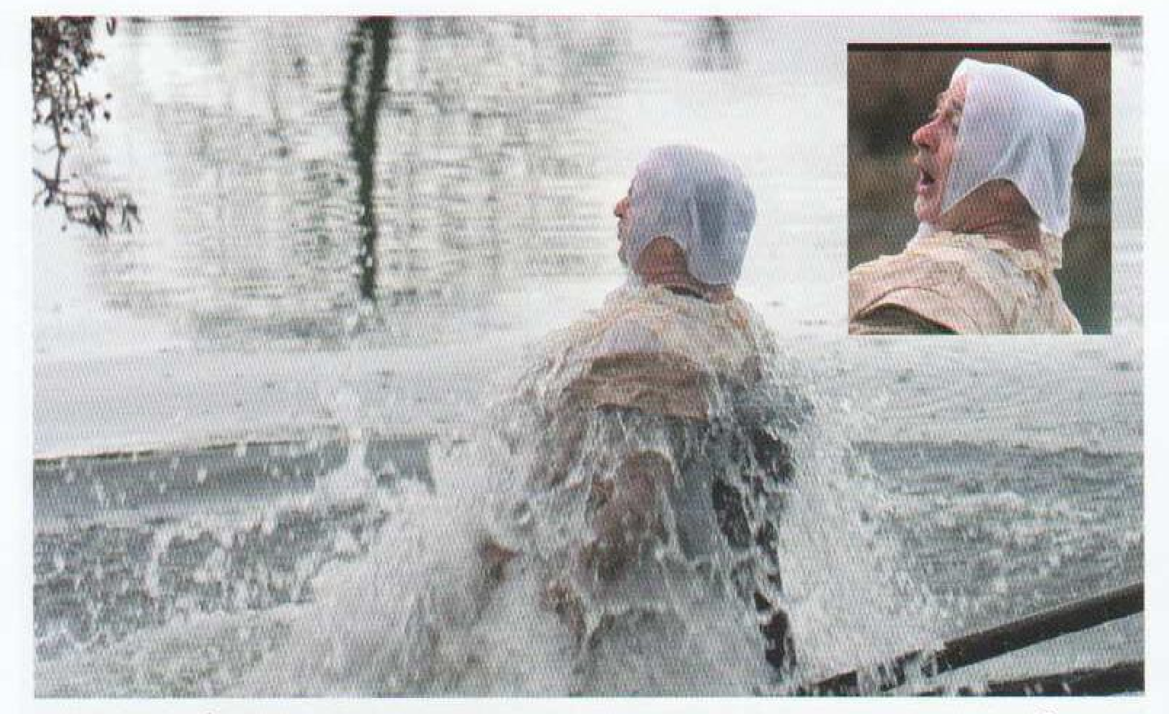
وكانت كل من آجنس دافيز ومارغريت دافيز (وليس بينهما علاقة قرابة) مشتركتين في شجارات طويلة الأمد، وتم تسمية كلتيهما مؤخراً «بالسليطتين»، بيد أن آجنس «قد منحت عفواً لم تنله مارغريت. مما جعل مؤيديها يغيرون، بدافع الانتقام، على بيت آجنس ليلة عيد الميلاد، ويتناولون فطيرتين من فطائر اللحم المفروم، ويتبولون في قدر حسائها، ومن ثم قاموا بربطها في مقعد العقوبات وأنزلوها في الماء سبع مرات».

كانت الملكة إليزابيث إحدى أكثر النساء استقلالاً في عزوفها عن الزواج، فقد تجنبت الزواج كما تجنبت الطاعون. وهذا لم يمنع من أن عصرها قد شهد- بشكل مثير للسخرية- ارتفاعاً حاداً في عدد النساء المشاكسات اللواتي تم تقديمهن للقضاء. وأصبحت العقوبة المفروضة بحق السليطات المتهمات أشد قسوة. ففي حين اكتفي في السابق، بفرض غرامة عليهن، إلا أنهن واجهن في عصر الملكة إليزابيث واحدة من عقوبتين مذلتين هما اللجام أو كرسي التغطيس.

ويعد اللجام العقوبة الأكثر شيوعاً في المدن الشمالية والشرقية، وهناك سجلات تشير إلى استخدامه في بريجنورت، وتشستر، وبريستون، ومانشتر، ونيوكاسل، واللجام قناع معدني يتم إحكامه حول رأس المسيئة كما لو كان حزاماً لعفة الوجه. ويتم تثبيت قطعة معدنية صغيرة داخل الفم لتضغط اللسان إلى الأسفل (وهو الجزء الذي تمت الإساءة به)، ومن ثم يربط حبل في مقدمة اللجام يتم به قيادة السليطة عبر الشوارع. والعقوبة هنا رمزية، تشير إلى ترويض وحش قاس لا يسهل ترويضه.

ويستخدم كرسي التغطيس في بقية المناطق، وينظر إلى هذه العقوبة أنها عقوبة اجتماعية تستخدم للرجال والنساء على حد سواء منذ القرن الحادي عشر، لكنها أصبحت خلال العهد التيودوري مقتصرة على النساء. ويرى العامة أن كرسي التغطيس- من ناحية رمزية- أداة مناسبة لتلطيف حدة لسان المرأة.

وتشير كتب القانون، ككتاب جون كتشن، «المحكمة الريفية» (Le Court Leet)، إلى



ليتسنى لي تجريب كرسي التغطيس، تم ربطي إلى كرسي في رياح شهر ديسمبر القارسة، ووجد على الطرف الآخر نصف دزينة من الشباب ضخام الأجساد، يملؤهم الحماس لغمسي في الماء. ووجد في الساحة غطاس ليتدخل في حال حدوث طارىء. ومع علمي أنني سأبتل وأشعر بالبرد الشديد، لم يبارحني شك أنني سأغرق إذا ما حدث خلل ما. وليس من المستغرب أن نعلم أن عدداً لا بأس به من النساء قد لقي حتفه مع وجود الجماهير غير المكترثة، وانعدام وسائل الأمان.

وجوب قيام العِزَب وما شابهها من مؤسسات بتوفير كرسي العقاب هذا والمحافظة عليه، وكانت الكراسي مصنوعة من الخشب، ومزخرفة في الغالب، وقد تكون على هيئة لعبة لوح التوازن أو معلقة على حبال. وكان لبعضها عجلات، يتم بواسطتها التشهير بالمرأة السليطة في أرجاء المدينة.

ولقد ارتأت بعض الأماكن عبر تمكين المرأة من مشاهدة العقوبات التي قد تتعرض لها طريقة فعالة في ردعها عن الاستمرار في عملها الشائن. وقد أخذت بعض المدن كدورتشستر في دورسيت ببعض الجوانب الإنسانية عند تطبيق العقوبة، فلم تغطس النساء في الماء إلا في الظروف الجوية الدافئة. غير أن مدنا أخرى لم تكن تتحلى بالرحمة، وكان يوم التغطيس يوم هرج ومرج للمجتمع بأكمله، حتى إن بعض السليطات قد لقين حتفهن غرقاً نتيجة الحماسة الشديدة.

ووصف معلّق فرنسي يدعى هنري ميسن العملية «بالمسلية إلى حد ما». وهي كذلك من

وجهة نظر المشاهدين، لا من وجهة نظر المتهمة. وكلتا العقوبتين مذلة إلى حد كبير، فهي تمثل العدالة الاجتماعية، ولكن أسوأ جانب فيها ماثل في أن الجموع الهاتفة ليست سوى جيران المتهمة، وهم الذين ينبغي على المتهمة التعايش معهم بعد إيقاع العقوبة عليها.

وبدت جميع العقوبات الرادعة، في حال بعض النساء ذوات البأس دون فائدة، وقد عرف عن بعضهن أنهن- في أثناء تنفيذ العقوبة بحقهن- واصلن كيل أشنع الكلام في حق من أصدر الحكم عليهن، ويشير خبير التاريخيات جون ستو إلى قيام امرأة بالصراخ على أسقف لندن، فقادها سلوكها الشائن هذا للجلوس على كرسي التغطيس، وبدلاً من الشعور بالندم، «جلست على الكرسي ساعة كاملة مستمتعة بهذه العقوبة الشنيعة».

إن ازدهار حضارة سامية، في ظل هذه الظروف، لهو شيء محير بحق، بيد أن العهد الإليزابيثي هو العصر الذهبي للأدب الإنجليزي، فقد قام خلاله شعراء كإيدموند سبنسر والسير فيليب سيدني بممارسة مهنتهم بحرية تامة، وتنسحب الحال على كتّاب المسرح كشكسبير، ومارلو، وكيد، وويبستر. وكانت مسارح روز وغلوب في صميم هذه النهضة المفاجئة. ولقد أسهمت في قيام المسارح مهنة تعد من أسوأ المهن، هي الممثل الغلام.



إن مساوئ مهنة كهذه جلية لي بشكل خاص، فقد بدأت عملي وأنا طفل ممثلاً في طاقم التمثيل الأصلي في مسرحية أوليفر. كانت الحياة ممتعة بالطبع، لكنني كنت أعمل ساعات طويلة ليلاً، وكنت متعباً على الدوام. كنت سأتنسك لو أجبرت على ارتداء فستان كما فعل الممثلون الشباب في العصر التيودوري.

الغلام الممثل (Boy Actor):

قد يتبادر إلى ذهنك للوهلة الأولى أن وضع الممثلين المشاركين في أعمال أدبية «كهاملت»، سيكون مختلفاً عن وضع المشاركين في رياضات تعذيب الدببة، والمهرجين، وموسيقي الشوارع. ولكنه لا يختلف - في الحقيقة- عن أي منهم. فقد عدت صنوف التسلية- على اختلافها- مريبة، بل وتم نفيها إلى الحي الفقير في ساوثوراك على الجهة الأخرى لنهر التايمز، بعيداً عن مدينة لندن الجليلة.



إن زيارة إلى مسرح غلوب الشكسبيري هذه الأيام بعد أن تمت إعادة بنائه تعدُّ متعة ثقافية سامية. ولكن لم يكن المسرح للتيودوريين مختلفاً عن حلبات صيد الدببة.

حتى إن واعظاً في كنيسة القديس بول قد أخبر الحشود المجتمعة خلال فترة انتشار وباء الطاعون أن سبب الطاعون هو الخطيئة، وإذا ما أمعنا في الأمر جيداً، فسنجد أن سبب الخطيئة هو المسرحيات وبذا فسبب الطاعون هو المسرحيات».

وساوثورك مكان كئيب، قد يتعرض فيه غلام العمل لسلب ماله على يد سرّاق في أثناء توجهه للعمل، وقد يجد المسرحيون الوضع خارج لندن أسوأ بكثير. ووفقا لمادة سُنَّت عام 1530 لردع المتسكعين، قد يتعرض المثلون المؤدون دون الحصول على رخصة للجلد مرتين في سوق المدينة، وقد يفقدون أجزاء من آذانهم، أو قد يوضعون في المخشبة إذا ما تم الإمساك بهم مرة أخرى.

أصبح الغلام الممثل، نظراً لسوء سمعة المسرح حينها، ضرورة ملحة؛ فالأدوار النسائية في المسرح كان يؤديها غلمان، وقام الرجال البالغون بأداء الأدوار النسائية الأكبر سناً.



ناثان فيلد، ممثل إليزابيثي. كانت رعاية أفراد الطبقة العليا السامية للممثلين التيودوريين أمراً ضرورياً. وقد قضى قانون يعود إلى عام 1572 «أن جميع الممثلين الشائعين ...... الذين لم يعودوا إلى أي بارون في هذا الحقل أو إلى أي شخص ذي درجة رفيعة ..... سيعرضون أنفسهم إلى المحاكمة وسيعدون محتالين، ومتشردين، وشحاذين متمرسين». وكثيراً ما قام مستشارو الملكة بمنع المسرحيات في أرجاء لندن بسبب تفشي الطاعون، الأمر الذي جعل وظائف الممثلين أقل ثباتاً

ويبدو أن شكسبير قد استمتع باستخدام الإشارات الجنسية الغامضة لأدواره النسائية، ففي مسرحية الليلة الثانية عشرة– على سبيل المثال– قام غلام مراهق بأداء دور فيولا – وهي فتاة تتنكر في المسرحية كغلام.

ولم يجنِ الغلام الممثل سوى قوته اليومي، وكان الإنهاك صفة ملازمة لعمله، وقد يتعرض، إذا ما كان أداؤه سيئا، إلى ألفاظ فاحشة، وفي بعض الأحيان، إلى قذائف يوجهها الجاثمون في حلقة المسرح.

وكان كل ممثل مُعرَّضاً لخطر الاحتراق، فالإضاءة في المسارح قد تكون مميتة، بيد أن القيام بدور امرأة كان محفوفاً بعدم الرضا، بل بالخطر في بعض الأحيان. فمكياج المسرح الأبيض مميت لأنه يستخدم مادة الرصاص كثيراً، مما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تهدل كتل لحمية كبيرة. وإضافة إلى ذلك، كانت الفساتين والأطواق المنفوشة ذات الطبقات في حد ذاتها عاملاً شديد الإزعاج، ولم تكن المشدات التي قد يرتديها الغلام الممثل سارة على الإطلاق، فهي تضغط حول المعدة بشدة، وتضيق الخناق على الحجاب الحاجز. غير أن أشد ما كان يزعج الغلام الممثل هي الدبابيس، وهناك المئات منها، كانت الملابس الداخلية مَخيطةً بعضها إلى بعض، في حين كانت الفساتين مشبوك بعضها إلى بعض ببساطة باستخدام الدبابيس، وهذه الطريقة جعلت عملية تغيير حجم الثوب ليناسب أجسام مختلفة أسرع مما نقوم به الآن. وكان لهذه الطريقة دور في حفظ القماش. ولم تسلم الياقة التيودورية، وهي أحد رموز ذلك العصر، من استخدام الدبابيس فيها. وكانت تتشكل باستخدام مكواةٍ محماةٍ على قماشٍ طويلٍ مغموسٍ بالنشا، ومن ثم يتم استخدام الدبابيس التي قد تصل إلى 200 دبوس في مناطق مختلفة، وفي هذا الشأن، قال كاتب مسرحي يدعى تومكيز، عند ملاحظته أن عملية تدبيس لباس الغلام ليبدو في صورة امرأة قد استغرقت خمس ساعات: «قد تحتاج السفينة وقتاً أقصر في إعدادها من تجهيز سيدة نبيلة». هل لك أن تتخيل وضع هؤلاء الغلمان الذين يواصلون الوقوف بلا حراك لفترةٍ طويلةٍ كي لا يتعرضوا لوخزات الإبر الضخمة العدد. لا بد أن هذا الوضع بدا كما لو أنك ارتديت قنفذاً بالمقلوب. ويدرك جميع نساء ذلك العصر هذه الحقيقة من خبراتهم اليومية. وليس غريباً أن تبدو الملكة إليزابيث متصلبة في جميع اللوحات التي رسمت لها.

ولم يسمح للغلمان بالتجوال وهم مرتدون ملابس المسرح كي لا تتسخ أو تتمزق. ولم تكن هذه الملابس نسخاً مسرحية – وإنما هي ملابس حقيقية بكامل جواهرها وموادها الثمينة. ويعد المسرح أحد الأماكن القليلة التي يستطيع العامة تلمس جوانب الوثنية فيها، في

مجتمع فقد الاحتفالات المبهجة والصلوات المؤثرة التي امتاز بها الدين الكاثولوكي الروماني. وتتم حراسة الثوب– عادة– بحرص شديد، ويورثه الممثل إلى مساعده، ويعد الثوب ميزة اقتصادية لمالكه، فهو أغلى شيء يمتلكه الممثل.

ومهما بلغت درجة سوء عمل الغلام الممثل، فلن تصل سوء أولئك الذين قاموا بصنع هذه الدبابيس.

صانع الدبابيس (Pinner):

شكلت صناعة الدبابيس جزءاً رئيساً مهما من الاقتصاد في عصر التيودوريين، فالرجال والنساء على حد سواء– وخاصة الأغنياء– كانوا بحاجة إلى الدبابيس حتى لا تتساقط قطع ملابسهم عنهم. وفي العادة يتم تقديم الدبابيس هدايا. وتعني عبارة «مال الدبوس» (pin money) هذه الأيام المال الفائض عن الحاجة، ولكنها كانت عند صياغتها تعود إلى المال اللازم لإبقاء ملابس الشخص متماسكة على جلده. وقد قامت الملكة إليزابيث في شهر أكتوبر من عام 1563، بشراء مئة وواحد وعشرين ألف دبوس من صانع دبابيسها ويدعى روبرت كارليس. وتم توريد ثلاثة ملايين دبوس عام 1583 إلى لندن.





بوجر هدسون الذي كان يمد مسرح شكسبير الدائري بما يلزمه من مواد، يحاول إعادة بناء غرفة الدباس.

وهذه الأرقام لا تعني أن صناعة الدبابيس لم تكن مزدهرة في العاصمة، بل على العكس تماماً، فقد بلغ عدد صناع الدبابيس زهاء الثلاثة آلاف شخص، ويماثل هذا الرقم عدد العاملين في نظام النقل في لندن هذه الأيام. ولكننا –في الحقيقة– لا نعرف شيئا عن هؤلاء الناس وعن حرفتهم، فقد كانوا ذوي رواتب زهيدة، وكانت حرفتهم شائعةً جداً إلى حد أنها لم تجذب أحداً للكتابة عنها.

ونستقي معلوماتنا عن هذه الحرفة من علماء الآثار. وكانت عملية صناعة دبابيس التشبيك تتم على النحو الآتي: في بداية الأمر، يتم نقش أحازيز أفقية في ظلف (عظمة قدم بقرة)، ومن ثم يتم ملء هذه الأحازيز بأسلاك نحاسية، تقطع في أطوالٍ مناسبةٍ. وبعد ذلك، يقوم صانع الدبابيس ببرد أحد الأطراف ليصبح ذا رأسٍ حادٍ. ويلي ذلك، ربط قطعة قصيرة من السلك حول رأس الدبوس، وتثبيته بثني رأس الدبوس على نصاب الدبوس بطرقه عليه. وكثيراً ما كانت الدبابيس ذات النوعية الجيدة تطلى بطبقة رقيقة من الطلاء الكيميائي.

وقد يدل حجم الأحازيز إلى أن صناع الدبابيس قد استخدموا أطفالاً في عملهم، فمعظم الأجزاء الدقيقة المملة تحتاج إلى أصابعٍ صغيرةٍ ليتم إنجازها، وتعد صناعة الدبابيس إحدى أولى الحرف التي قد تتطلب قيام عدد من العمال بأداء أجزاء مختلفة من العمل. ولقد أصبحت هذه العملية مع بداية القرن الثامن عشر منظمةً جداً، وهذا دفع الاقتصادي آدم سميث للاستشهاد بها في كتابه «ثروة الأمم» مثالاً على نظريته في «توزيع العمل».

وهناك وجهان مختلفان لسوق صناعة الدبابيس أحدهما سامٍ والآخر وضيع. ونحن نعلم أنه كان هناك سبعة وعشرون نوعاً مختلفا من الدبابيس، وأن بعضها كان جميلاً. وكانت الدبابيس الجميلة نتاج عمل حرفيين منضمين لنقابة صناع الدبابيس، بيد أن السواد الأعظم من الدبابيس كان منتجاً في البيوت، التي كان أصحابها يقطنون في أماكن قريبة من مصادر المواد الخام المطلوبة في هذه الحرفة كسوق الجزارين في سميث فيلد. وتتشكل القوى العاملة في العادة من صانع دبابيس متمكن، يشرف على أعضاء أسرة، وحرفيين أدنى منه مرتبةً ومهارة. وكان هؤلاء يعملون في عليّة منزلهم ذات النافذة الجنوبية، لتزودهم بالضوء اللازم للقيام بالأعمال الدقيقة.

لا بد أن العمل كان مملاً إلى حدٍ لا يصدق، هذا إلى جانب المخاطر الصحية الناتجة عن استنشاق أجزاءٍ صغيرةٍ من المعدن والغبار الصادر عن المواد الخام.

سنَّ الملك هنري الثامن في محاولته للتصدي للمنتجات الرخيصة قانوناً ينصُّ على أن تكون جميع رؤوس الدبابيس ملحومة، مما جعل الأمر أكثر سوءاً. وأضاف هذا القانون عنصراً جديداً من الخطر؛ وذلك لأن اللحام هو عبارة عن صهارة غنية بالقصدير (أو ما يسمى بالبورق)، أو خليط مكون من الفضة بنسبة 4٪، والقصدير بنسبة 96٪. وينتج عن لحام الفضة

هذا أدخنة الكادميوم التي قد تسبب سرطان الرئة.

ولا يجني صناع الدبابيس سوى ما يقيهم ضنك العيش، فلم يكن القرش (البني) خلال العصر الإليزابيثي ذا قيمة تذكر، فهو يكفي لشراء رغيف خبزٍ واحدٍ، أو تذكرةٍ لحضور مسرحيةٍ، أو ركوب عبّارةٍ لقطع نهر التايمز. ولجني شلن واحد، أي ما يعادل اثني عشر قرشاً، كان على صانع الدبابيس صنع ألف دبوس نحاسي. وأشارت تجارب العصر التيودوري إلى أن إنتاج هذا العدد يستغرق خمسين ساعة من العمل. وحتى لو استطاع صانعو الدبابيس المهرة من العمل ضعف هذا الوقت، فإنهم لن يستطيعوا سوى توفير متطلبات الحياة الرئيسة، ولا عجب أنْ كان هذا العمل حكراً على الشباب، وكبار السن، والمعوزين. ومع المخاطر المرافقة لهذا العمل كالسأم الذي يعد صفة ملازمة لهذا العمل، والراتب المتدني، لم يحصل العمل على اللقب الأسمى كأسوأ مهنة في تلك الفترة. بل تم حفظ ذلك الشرف لصانع اللون الأزرق، نظراً لطبيعته النتنة المقززة والمسببة للغثيان.

أسوأ الأعمال على الإطلاق

صابغ النيلج (Woad Dyer):

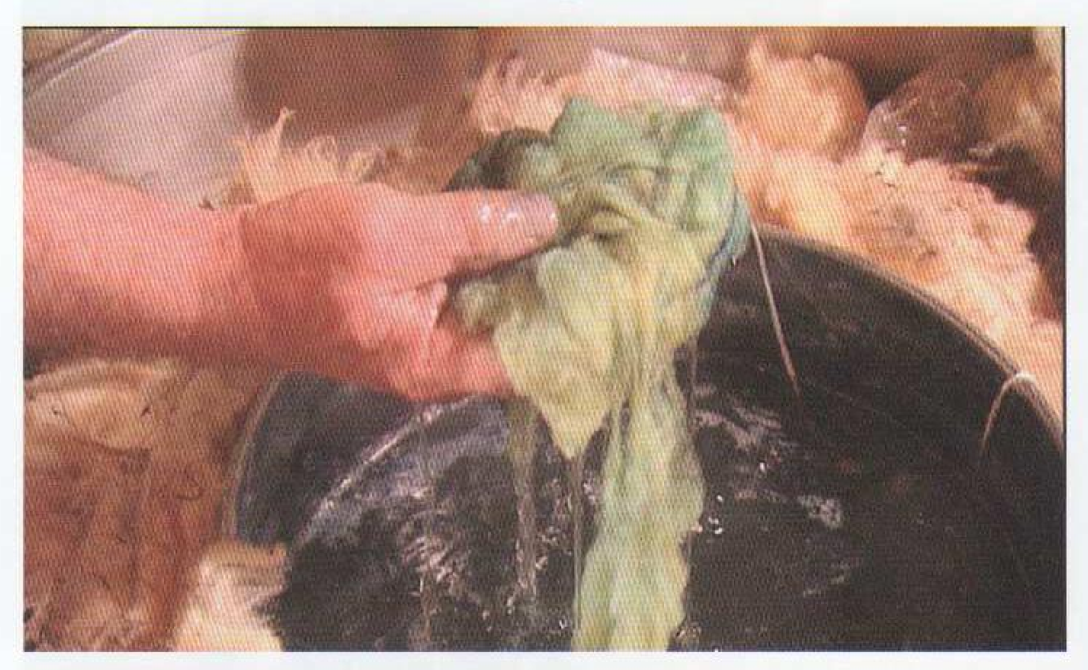
كان المصدر الرئيس للون الأزرق البهي الذي مازلنا نراه في البسط والأقمشة التيودورية، قبل استيراد النيلة من الشرق في نهايات القرن السادس عشر، هي النيلة المستخلصة من نبات النيلج.

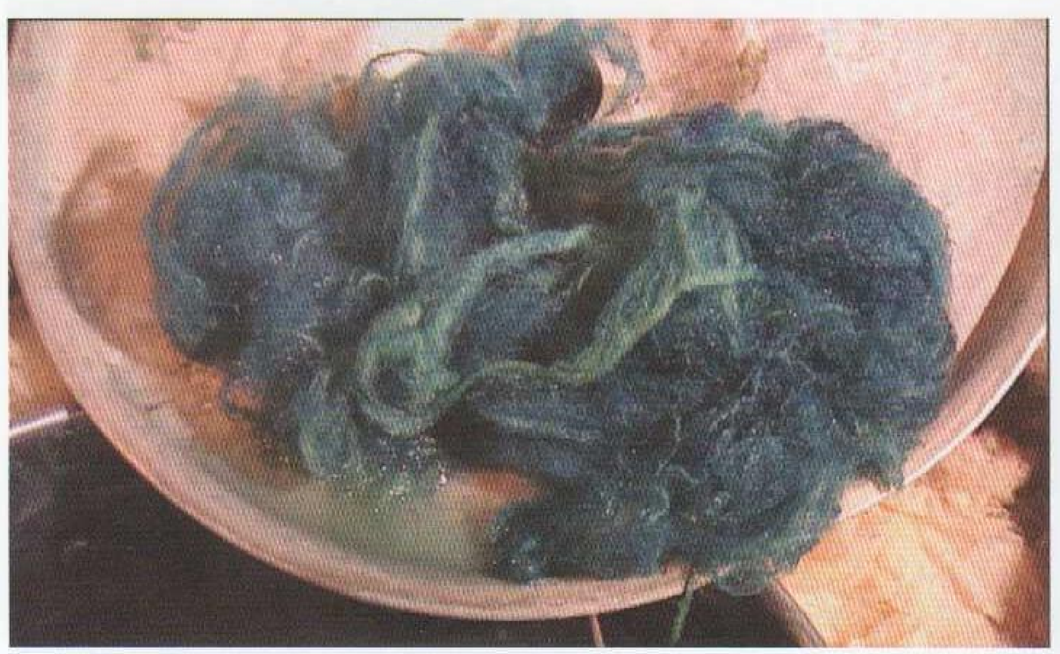
ونبات النيلج قريب الصلة بالقرنبيط، فهو نبات قوي ذو أزهار صفراء تقف على ساق وقد يرتفع متراً عن الأرض. وقد وصل هذا النبات إلى بريطانيا من جنوب أوروبا عبر السلتيين الذين أطلقوا عليه الكلمة (glasto)، وكانت مستعمرة غلاستونبيري تعني «المكان الذي ينمو فيه النيلج».

غير أن العملية التي استخلص بها الصبغ الأزرق كانت كريهة جداً مما جعل صابغي النيلج– وكانوا يشكلون مجموعة منبوذة كفلاحي الفضلات– مجموعة مهمشة في المجتمع.

وتكمن المشكلة في الرائحة الكريهة التي يصعب وصفها على الورق. ولكن دعونا نوضح الآمر بهذه الطريقة، فكم تود أن تكون المسافة التي تفصلك عن أي رائحة كريهة؟

لم تكتف الملكة إليزابيث– على سبيل المثال– بأمر الصباغين بالتوقف عن العمل نهائياً عند مرورها عبر المدن الريفية، وإنما أصدرت مرسوماً يأمرهم بعدم الاقتراب من مكان إقامتها بمقدار خمسة أميال. أجل، كانت صباغة النيلج ذات رائحة كريهة تتجاوز الوصف.





كيمياء النيلج. تم التقاط هاتين الصورتين بفارق عشر ثوان عن بعضهما، لقد تغير لون النبات إلى الأزرق بمجرد ملامسته الهواء.



لولا رائحة النيلج الكريهة لما بان جمال بعض النسائج، كهذه السجادة الفرنسية التي تعود إلى القرن السادس عشر. لقد تمكنت خلفية النيلج الزرقاء النابضة من المحافظة على رونقها بشكل أفضل من الأصباغ الحمراء والخضراء التي سرعان ما يخبو لونها.

ومع هذه الحقيقة، لا يمكن لنا أن نصفهم بأدنى المراتب وضاعة، بل كانوا حرفيين مهرة على درجة عالية من الإتقان، ويمكن وصفهم برواد الصناعة الكيميائية، فقد قضوا جل حياتهم وهم يعملون في عملية كيميائية دقيقة. ففي البدء يخمّر النيلج ويجفف على شكل كرات. وتسمى هذا العملية بالغمر، وتصدر أدخنة بغيضة جداً. ويتطلب تحضير خمسة كيلوغرامات من الصبغ خمسين كيلوغراماً من أوراق النيلج. وقد تم استيراد معظم النيلج المستخدم خلال الفترة التيودورية على هذه الشاكلة من جنوب-غرب فرنسا حيث تستطيع أن تصبح غنياً- كما كان يقال- بالجلوس ومراقبة النيلج الخاص بك وهو ينمو.

وتصبح الرائحة أسوأ عندما يتم سحق الكرات لاستخلاص الصبغ منها، ومعاودة تخميرها في سائل قلوي يشبه إلى حد كبير السائل القلوي الذي كان القصار يستخدمه، وقد استخدم الصباغون البول في بعض الأحيان، على الرغم من أن الجير، أو رماد الخشب في الماء المغلي كان له التأثير نفسه. وفي العادة، يتم وضع النيلج المجفف في حوض مليء بالسائل مدة ثلاثة أيام على درجة حرارة تناهز خمسين مئوية. وتتلخص مهمة الصابغين في هذه المرحلة في المحافظة على قلوية السائل دون استخدام معدات خاصة لفحص معدل الحموضة في المحلول. فقد كانوا يقومون بذلك عبر استخدام حواسهم.

ويستطيعون، على سبيل المثال، لمس المحلول للحكم على قوامه، والخليط الناتج لزج كالماء وقد اختلط به زيت الحمام. ويستطيع الصابغون أيضاً استخدام التذوق والرائحة للحكم على حالة المحلول. وكانت هذه النشاطات المزعجة جزءاً من عمل يومي يقوم به الصابغون، بيد أن النيلج المطبوخ ذو رائحة وطعم يشبهان إلى حد كبير رائحة الملفوف المغلي المتعفن، والمخلوط بالمياه العادمة. وليست هذه الصورة نتاج خيالنا، فلقد أظهرت التحاليل الكيميائية أن الخليط يحوي الغازات نفسها التي تصدر عن فضلات الإنسان غير المعالجة.

وحالما يُحضَّر الخليط، يتم صبغ الصوف قبل نسجه، للتأكد من أن العامل الملون قد توزع بشكل متماثل في جميع أجزاء القماش. وبعبارة أخرى، كانت هذه العملية بحق صبغاً للمادة في بداياتها. ومن ثم يوضع الصوف في مصفاة معدنية يتم وضعها في حوض الصباغة طوال الليل، ووظيفة المصفاة هنا حماية القماش من ترسبات النيلج في قاع الحوض.

ولا يكون لون الصوف، عند إزالة الغطاء أزرق، بل أبيض ميالاً للخضرة، وتحدث العملية

الكيميائية عندما يتم إخراج الصوف من الحوض. فنبات النيلج (النيلة) لا يعمل عمله إلا عند تعرضه للأكسجين، ويكون الأثر لحظياً، فعندما يتم إخراج الصوف البائس ذي اللون الأخضر الفاتح، وفور ملامسة الهواء، يتحول اللون ليصبح شديد الزرقة.

وقد يكون صابغو النيلج أكثر توفيقاً من نظرائهم في القرون الوسطى، لكنهم احتفظوا بالصيت السيئ نفسه. وهناك بعض السجلات المتعلقة بسلوكيات غير محبذة اجتماعياً للصابغين. فقد تم الإمساك ببعضهم، وهم يحاولون التخلص من المحاليل الخطيرة والمضرة بالبيئة بسكبها في الشارع، أو في أقرب مجرى ماء، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى احتجاجات.

وبشكل عام كان يميل الصابغون للسرية ووراثة هذه المهن عن أسلافهم. ولكن حتى لو قاموا بتبديل ملابسهم والاستحمام بشكل جيد، فإنهم سيبقون متفردين عن باقي الناس. فأيديهم وأظافر أصابعهم كانت على الدوام زرقاء، وقد ورد أن بعضهم كان له عرق أزرق، وفي الغالب كانوا يتزوجون من صابغات، لا يكترثن لأناس قد يبدون كجبنة ستلتون الزرقاء اللون.

اختفى صابغو النيلج مع قدوم النيلة من المناطق الاستوائية، بيد أن مهاراتهم هي ما مهد الطريق لقيام تقنيات الصباغة الحديثة. ولكن النيلج عاد هذه الأيام – مع الاهتمام المتزايد بالأصباغ الطبيعية– ليحتل مكانة مرموقة. وتتم زراعته هذه الأيام في جنوب إنجلترا، وشرق أنجيليا. ولكنك ستقوم، إذا ما قام أحد الناس بفتح محل للنيلج بجانبك، بالتقدم ضده بشكوى للسلطات المحلية، أو إزالة أنفك جراحياً.



على الرغم من أن الكرسي المتنقل كان موضة دارجة، فإن لها سمعة سيئة أيضاً. توضح هذه المنحوتة للويس بويتارد المسماة «مرح كونفنت غاردن» بيتي كارليس المتعبة ذات السمعة السيئة أثناء نقلها إلى بيتها في واحدة من هذه الكراسي المتنقلة، وعشيقها يعتلي سقف الكرسي. فلم يكن حاملو الكرسي بمنأى عن الذم، بل كان عليهم حمل راكب إضافي مجاني. ولهذا لم يكن من الغريب أن

الفصل الرابع

أسوأ المهن في العهد الستيوارتي



توفيت الملكة إليزابيث عام 1603، دون أن تنجب من يخلفها على العرش، فجلس على عرش إنجلترا ابن منافستها؛ ماري ملكة الإسكتلنديين، فأصبح جيمس السادس – ملك إسكتلندا– جيمس الأول ملك إنجلترا. وبهذا اتحدت المملكتان في شخص ملك واحد، وشكلت اتفاقية الاتحاد وجه بريطانيا الجديد.

استهل جيمس ستيوارت عهده بقرن متقلب، شهد الكثير من الانقلابات الدينية والسياسية والاجتماعية، وقادت بعض الأسئلة العظمى– كتلك المتعلقة بكون الملك كاثوليكيا أو بروتستنتيا، أو فيما إذا كان له الحق المطلق في الحكم، أو عبر موافقة البرلمان– إلى حادثة ملح البارود، والحرب الأهلية، وإعدام تشارلز الأول و« الثورة المجيدة» عام 1688، لكن– وكما هي العادة– لم تكن سفينة الدولة لتبحر بمفردها، فقد احتاجت جميع هذه الأحداث السياسية البالغة الأهمية إلى جيش من أصحاب المهن الدنيئة، وكانوا على أتم الاستعداد لنشر سمك الهاليبوت على رصيف الجذوع الخشبية ومن ثم دفعها فوقه، مثلما فعل الفايكنغ في السابق.

وقد أصبح عدد سكان بريطانيا، بحلول القرن الثامن عشر، سبعة ملايين ونصف مليون شخص، كان أكثر من ثلثهم عمالاً يعيشون على أجور متوسطها شلن في اليوم. واعتمد خمسة وعشرون بالمائة من السكان– كما يمكننا الزعم– على معونات تقوم بتوزيعها الأبرشيات وفقاً لقوانين الفقراء الإليزابيثية. وإذا ما كنت أحد العامة، فيصبح حق التصويت مرتبطاً بامتلاكك قطعة أرض تعادل الأربعين شلناً. وكان الاضطراب السياسي الذي شرذم البلد نتاج مؤامرة حاكها أفراد من النخبة، الذين قد لا يعرفهم معظم العامة إطلاقاً.

ومع هذا، غدا الكثير من الفقراء منخرطين بشدة في أحداث العصر الجسيمة. وثمة وظيفة قد لا يستطيع غاي فوكس (Guy Fawkwes)، ولا الحثالة، ولا أنصار البرلمان المعارضون



جيمس الأول، هدف غاي فوكس.

للملك تسيير أمورهم من غيرها. ولولا عمل رجل نترات البوتاسيوم، لن يكون هناك ملح البارود (أو البودرة السوداء كما كان الستيوارتيون يسمونها)، كي يستخدم في البنادق، أو على شكل متفجرات في محاولة لنسف البرلمان والإطاحة بالملك.

موظف ملح البارود (Saltpetre Man):

يعد ملح البارود تركيباً بسيطاً مميتاً مكوناً من ثلاث مواد كيميائية بنسب مختلفة هي: 10 بالمائة كربون، و15 بالمائة كبريت، و75 بالمائة نترات البوتاسيوم. وينتجُ المكون الأخير الأكسجين، الذي يتمدد عند احتراقه، مسبباً رد فعلٍ انفجاريٍ مع الكربون. وتحتاج إلى خمسة وعشرين غراماً من ملح البارود لإطلاق قذيفة مدفع، ولهذا قد نحتاج إلى كميات ضخمة من ملح البارود خلال أوقات الحرب، وكان على رجل ملح البارود أن ينتجها كاملة.

وتعد مهنة ملاح البارود، مزيجاً غريباً من عمل الحلاب، ووكيل الأراضي، وعامل المزرعة وناضح الحفر الامتصاصية، رغم أن عمله بسيط جداً. كان البول والبراز المصدرين الرئيسين للنترات في العهد الستيوارتي؛ وفي العادة يتم تركهما في الأرض طويلاً ليتحللا إلى كالسيوم ونترات الصوديوم. وعلى ملاح البارود أن يجد تربة متشبعة بالبول والبراز، ومن ثم الحفر لاستخراج أجود الأجزاء باستخدام طرق العمل التقليدية القاسية. وأماكنه المفضلة هي المراحيض، وزرائب الخنازير، وأكوام السماد، وأبراج الحمام. وأي مكان آخر تشربت فيه التربة فضلات الطيور. يقوم ناضح الحفرة الامتصاصية بالتخلص من الفضلات، أما ملاح البارود فيحولها إلى بضاعة.

إن نقل أطنان من التربة الغنية بالمواد الكلسية عملٌ شاقٌ بحق (وقد يسبب الفتق في بعض الأحيان). ولكن ما دور الحلاب في هذه العملية؟ يكمن دوره في الالتفاف على بعض الجوانب الشاقة لهذا العمل. وقد تمكن كل من السير جون بروك وتوماس رسل (عام 1625) من إيجاد طريقة يتم من خلالها استخلاص النترات من البول مباشرة. فقد طلب من أصحاب المنازل في لندن وويستمنيستر وضع مبولاتهم خارج أبواب بيوتهم ليتم جمعها يومياً خلال الصيف، وكل يومين خلال فصل الشتاء. ويجوب ملاح البارود الشوارع ليفرغ هذا السائل الثمين في براميل. وتعد هذه الطريقة، مهما بلغ السائل سوءاً من حيث الرائحة واللزوجة، أفضل من سابقتها نظراً لأنها جنبته ساعات حفر طويلة. ومن المحزن أن نعلم أن مخضّة البول الثورية هذه قد تم الاستغناء عنها، لعدم فاعلية هذه الطريقة– حسب ما وجد اللاحقون؛ وبذا عاد ملاح البارود إلى طرقه القديمة المجربة والموثوقة.

ولكن إن خطر يوماً ببالك أن ملاح البارود هو ابن الأرض البريء، فعليك نسيان هذه الفكرة. فملح البارود أهم من أن تتركه بيد هواة متحمسين. كانت تلبية حاجات الأمة من هذه المادة ضرورة ملحة؛ فالدفاع عن أرجاء الوطن غاية تفوق كل غاية. وإذا ما احتاجت الأمة لملاحي بارود، فإنها لن تعدم حيلة في إيجادهم أينما كانوا. كان لدى هؤلاء رخصة- منحها لهم الملك- تجيز لهم دخول أي بيت والحفر أسفله، ولهذا استعملوا سلطتهم في وجهها الصحيح- وفي أحيان أخرى- أساؤوا استعمالها، مما جعلهم موضع كراهية لدى جميع الناس. وأطلقت عليهم النسخة الأولية لجريدة التايمز اسم «الدهماء». واكتسب بعض ملاحي البارود ألقابا شائنة مثل «رالف الفظ» و«ويل الويلزي»، مما أكسبهم سمعة تماثل تلك التي يتمتع بها المتجبرون.

ولم يقض هؤلاء أيامهم في تربة غنية بالفضلات فحسب، وإنما كان عليهم التحلي بأخلاق فاضلة، وجلد سميك – كجلد مفتشي ضريبة القيمة الإضافية- عند دخولهم البيوت عنوة لاستخراج بيوت الدجاج والمراحيض. وحاول ملاحو البارود (عام 1638) الحصول على تصريح يجيز لهم دخول الكنائس بحثاً عن مواد غنية بالنترات، ذلك أن «النساء- لطول صلوات الكنائس في القرن السابع عشر- كن يبلن في أماكنهن، وهذا يشكل ملح بارود ذا جودة عالية».

حاول الناس تجنب دخول ملاحي البارود إلى بيوتهم عبر فرش المناطق المحيطة بمراحيضهم بالحصى، أو تمهيدها؛ وبذا لن تكون هناك تربة ليتم نهبها. وفي بعض الأحيان، كانوا يتلقون أوامر لإزالة الرصفة المضافة، وإعادة الطبقة الترابية للسماح بتشكل طبقة ملح البارود. وقد اعتقل السير هنري سامبورن عام 1634 لرفضه السماح لملاحي البارود دخول برج الحمام الخاص به، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع الغرامة.

وكان هؤلاء يتوقعون من مالك المنزل أن يقوم، فور انتهائهم من إزالة ما يريدون، بتوفير وسيلة نقل لما حصلوا عليه وفق أسعار مخفضة، مما أضاف إليه إهانة فوق مصابه. تمتع ملاحو البارود بأسعار خاصة على الطرق الرئيسة التي تستوجب أجراً. وفرض عليهم أخيراً – نتيجة لحالة الغضب العام- الحصول على موافقة أصحاب المنزل قبل دخول العقار، وعليهم التصرف بشكل جيد أيضاً بعد استخلاص التربة الضرورية. وتم أيضاً سن قانونٍ أجاز



متآمرو ملح البارود. تخيل للحظة لو لم يكن غيدو فوكس موجوداً معهم خبيراً لملح البارود. أظن أننا– سينتهي بنا المطاف– بالاحتفال بالألعاب النارية في الخامس من نوفمبر، بما كان يمكن تسميته «ليلة روبرت غاتسبي».

إعفاء عقارات النخبة من دخولها.

ويمكن القول، اعتماداً على حجم النفوذ الذي كان ملاحو البارود يتمتعون به: أنهم يجنون رواتب مرتفعة. فصناعة ملح البارود تقوم على مبالغ هائلة.

ولكن، كما هي الحال دائماً مع شاغلي المهن الوضيعة، لا يحصل من يكدح للقيام بهذا العمل إلاّ على القليل من ثماره. وكان من يجني المال هم رؤساء العصابات، الذين يستطيعون تحمل النفقات الافتتاحية لهذه الحرفة. ويتم التعاقد مع المنتجين لتوريد كميات متفق عليها من نترات البوتاسيوم وفق أسعار محددة. ويدفعون لعمالهم أجوراً زهيدة لجني أرباح طائلة. ولم يجنِ أولئك الأشخاص الذين كانوا يدخلون بيوت الناس عنوة، ويتحملون شكاويهم وإهاناتهم لاستخلاص التربة الموجودة أسفل مراحيضهم، أكثر مما كان يجنيه عامل المزرعة، وكذا لم يتمكنوا من الحصول على مبالغ ضئيلة عبر طرق أخرى منها التغاضي عن أحد البيوت بالقصد، فرشوة ملاح البارود عدت جرماً يخالف عليه القانون.

وإذا ما تساءلت عن الطريقة التي قد يعرفون من خلالها أجزاء التربة الغنية بنترات

البوتاسيوم، فاعلم أنهم كانوا يتذوقونها، فالتربة المشبعة بالبول تضم رواسب بيضاء اللون، وفي العادة تحتوي هذه البلورات على الصوديوم، وتكون ذات مذاق مالح ولاذع. وتتفاعل هذه المادة مع الماء، على شكل تفاعل ماص للحرارة، وهذا يعني أن نترات البوتاسيوم تتحول، بمجرد أن يضعها ملاح البارود في فمه، وبمجرد ملامسة لسانه، إلى زبد ذي ملمس بارد.

ولا يقتصر العمل على التذوق والحفر فقط، فصناعة ملح البارود- وهي اختراع عربي، وصف مراحله «حسن الرماح» في كتابه الذي يعود إلى القرن الثالث عشر- ذات مراحل متعددة. فيلي عملية استخلاص التربة، مزجها بالرماد في مصفاة، ومن ثم يذاب الخليط في الماء، ويغلى كحساء كريه الرائحة حتى يتحول إلى بلورات، تخلط فيما بعد مع الغراء أو الدم. وقد يحتوي الطفح، الذي قد يطفو على فوهة القدر، بعض البقايا العضوية. وبمجرد إزالة هذه البقايا، يتم إعادة بلورة المزيج وغسله.

وفي نهاية المطاف، يتم نقل نترات البوتاسيوم إلى صانع ملح البارود المرخص من الدولة، الذي كان يدعى خلال تلك الفترة جون إيفلين في سري، الذي كان يقوم بخلط المكونات الأخرى باستخدام مداحل تجرها الخيل، ويكون في أثناء هذه العملية حريصاً على إبقاء المكونات رطبة ليتجنب إصدار شرارات أو وقوع حوادث من أي نوع. ومن ثم يتم طحن البودرة (الخليط) الناتجة وتجفيفها قبل استخدامها للقتل أو التشويه أو تفجير دفاعات العدو.

تمتص نترات البوتاسيوم الرطوبة من الهواء ولهذا يصبح ملح البارود رطباً أو فاسداً إذا ما ترك طويلاً. وكانت هذه هي حال ملح البارود الذي استخدم في مؤامرة ملح البارود. وقد اشترك غاي فوكس في المؤامرة لأنه كان خبير تفجيرات، ولكن نظراً لسرية المخطط، لم يكن بمقدوره شراء بودرة جاهزة، فقد لجأ إلى خطة بديلة فيها مكر، فاشترى ملح بارودٍ فرنسي فاسدٍ، واستطاع الحصول على ستة وثلاثين برميلاً، يتسع الواحد منها لمئة رطلٍ من ملح البارود. وكان يمكن للثلاثة آلاف والستمائة رطلٍ التي حصل عليها، لو كانت طازجة، أن تحول مساحة تعادل مساحة وستمينستر، بقطر يزيد على خمسمائة ياردة إلى أرض يباب، بيد أن ملح البارود المستخدم في أشهر حادثة تم استخدامه فيها كان فاسداً.

واتصفت بقية الفترة الستيوارتية، إذا ما تناسينا هذا الفشل الذريع، بانفجارات كبيرة وصغيرة، كان أكثرها أثرا هي تلك الانفجارات التي استخدم فيها ملح البارود لإيقاف تقدم

الحريق العظيم في لندن، فلقد حصل صاموئيل بيبيس (قائد القوات البحرية) في الخامس من سبتمبر من عام 1666على تفويض من الملك بالسماح لبحارته باستخدام ملح البارود لنسف صف من المنازل لإحداث فجوة، لمنع النار من الانتشار. وأشار جون إيفيلين، حفيد صانع ملح البارود الشهير، إلى أن هذه الخطة قد تم وضعها عندما نشبت النار، وكان بالإمكان حينها، إذا ما تم تبني الخطة، إنقاذ معظم المدينة، لولا الأغنياء الذين عارضوا إحداث فجوات في الحريق، خشية فقدان أملاكهم في هذه العملية.

بيد أن معظم استخدامات البودرة السوداء لم تكن مفيدة تماما. فلقد قام أوليفر كرومويل، خلال الحرب الأهلية، بنسف قلاع الأرستقراطيين الذين وقفوا بوجهه. وتعني كلمة (slighting) هذه الأيام جعل الشخص يشعر بالمرارة بتجاهلك إياه، ولكن الكلمة في القرن السابع عشر كانت تعني تسوية البناء بالأرض. تمكن كرومويل، عبر نسف جانب واحد من القلعة (كما حدث في توتبري في ديربيشاير وآشبي–دو–لا–زوخ في ليسترشاير) وتركها عرضة لمختلف صنوف العوارض، من تحويل معاقل معارضيه إلى أنقاض.

ويشير هذا العمل الوحشي بوضوح إلى مدى الشعور بالمرارة التي كان يعاني منها طرفا القتال في الحرب الأهلية؛ فلقد وقعت خلال أربعة أعوام امتدت من عام 1642 إلى عام 1646 سلسلة من المعارك الدموية والحصارات البائسة في مواقع مختلفة في إنجلترا. وكان لملح البارود دورٌ بارزٌ في الصراع؛ فلقد استخدم في البنادق، والمدافع وفي سلاح غريب أسهم في خلق أخطر المهن على الإطلاق؛ يدعى «المتفجرة».

مساعد المفجّر (Petardier's Assistant):

تعد «المتفجرة» أداة تفجير مباشرة تستخدم في حروب الحصار، وتتكون من صفيحة خشبية ووعاء معدني صغير على شكل جرس، فيه فجوة صغيرة في الخلف لإدخال فتيل الإشعال، وستة أرطال من ملح البارود محفوظة في الجرس. وتستخدم هذه القنبلة في العادة لفتح بوابات القلاع أو المدن المحاصرة عنوة، وذلك عبر خلع الأبواب من فصالاتها، أو حفر فجوات فيها، أو تدمير أي عارضة أو قفل قد يشكلان عائقاً في فتحها. اخترع هذه الأداة هيغونوتس (Huguenots) في نهاية القرن السادس عشر.

ولقد خضعت «المتفجرة» خلال الحرب الأهلية إلى المفجر (Petardier)، الذي يشبه اسمه إلى حد كبير اسم قريبه في العمل؛ المسؤول عن المدفع، فكلاهما مهندسان مختصان باستخدام ملح البارود. ويقوم المفجر، فضلاً عن صنع أداة التفجير، بعمليات تحت الأرض للقيام بتفجيرات تحت جدار القلعة. وكان المفجرون ضباطاً مهرة، يحصلون على مكافآت على هذا الأساس؛ فعلى سبيل المثال، كان المفجر الرئيس (عام 1627) يحصل على ستة شلنات وثمانية بنسات في اليوم، وكان لديه مساعدان. وإذا تناسينا المخاطر المهنية لتعامله مع ملح البارود، لم تكن هناك أي جوانب خطر في عمله، ناهيك عن كونه ذا قيمة عالية، ولا يمكن الاستغناء عنه، أو تعريضه للخطر. فمساعداه هما من يعرضان نفسيهما للخطر بدلاً منه.

ولم تكن المتفجرة سوى رأس حربي، ولم يكن مساعد المفجّر سوى صاروخ بشري موجه لتوصيل الحمولة اللازمة. وتتلخص مهمته، التي لا يحسد عليها، في الاقتراب من البوابات، تحت وابل نيران المحاصرين، لغرس المتفجرة في الجدار في ظل زخّات السهام المتواصلة، وهو يقوم بإشعال الفتيل والهرب بعيداً.

وكان لدى مساعد المفجر خياران لا ثالث لهما، أولهما الدخول ببطء تحت درعٍ محصن بشدة، أو العَدو، كما لو أنه نسخة القرن السابع عشر لجوني ويلكنسون، وهو يحمل كرة رغبي تزن 20 ليبرة. ولم يكن هناك من يكترث بما قد يجري للمساعد، فجل ما كانوا يهتمون به هو المتفجرة نفسها. لهذا كان مساعد المفجر يقوم بمهمته متسللاً عند الفجر أو الغروب، وبمساعدة تغطية من نيران المشاة المحيطة به.

وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات، إلا أن معدل الاستنزاف كان مرتفعاً جداً، فالمساعد لم يكن معرضاً للقتل من المدافعين وحسب، وإنما قد تحوله قنبلته، التي لا يمكن التنبؤ بسلوكها إلى أشلاء، والشذرة الآتية تقدم لنا دليلاً على ذلك:

دعها تعمل كما قدر لها؛ فيا لها من رياضة بديعة أن ترى المهندس
وقد أودت بحياته المتفجرة التي صنعها؛ ولن يكون الأمر سهلاً
ولكنني سأحفر حفرة تحت مناجمهم
ومن ثم سأقوم بنسفهم إلى القمر

هاملت، الفصل الثالث، المنظر الرابع



في تجربة حديثة استخدم فيها متفجرة من الحجم المناسب، وبدلات واقية، وكرات دهان بدلا من الرصاص، تمكن المدافعون عن الجدران القلعة من إسقاط المتفجرة قبل أن يبتعد عنها 50 متراً.

والعبارة (hoist with his own petar)، التي تعني «أودت بحياته المتفجرة التي صنعها»، إنما هي مجاز- صاغه شكسبير قبل جلوس الملك جيمس الأول على العرش- يشبه إلى حد كبير إطلاق الشخص الرصاص على قدمه خطأ. غير أن هناك تأويلاً آخر مستمداً من كون الاسم المستخدم للمفجر مشتق من الفعل اللاتيني (pedere)، الذي يعني «يخرج ريحاً ذات صوت»، في إشارة إلى الانفجار المكتوم الناتج عن هذه الأداة عند سماعه من بين صفوف الجنود.

وعلى مساعد المفجر، فور وصوله البوابة، حماية المتفجرة. ويورد دليل إرشادي معاصر ما على المساعد فعله في هذا الشأن: «يجب تثبيت خطاف صغير على المادة التي تريدون تدميرها، وعلى الخطاف، يتم تثبيت حلقة المتفجرة، ومن ثم تثبت المتفجرة عبر إسنادها إلى دعامة خشبية متشعبة للبقاء بعيداً عنها بقدر الإمكان». وبعد كل هذا، كان على مساعد المفجر، إشعال فتيل المتفجرة، ويقوم بذلك باستخدام قطعة حبل مغمورة بنترات الصوديوم، تسمى «الكبريت البطيء»، وهي أداة تشبه إلى حد كبير الشريط الأحمر الذي نستخدمه في

إشعال الألعاب النارية هذه الأيام. وكلا طرفي هذا الحبل قابل للاشتعال، تحسبا لفقدان أحد الأطراف خلال الرحلة الجنونية عبر خطوط العدو. وقد تنتاب مساعد المفجر نوبات من الرعب تخوفاً من اشتعال المتفجرة بشكل مفاجئ، مما قد يجعله مفجراً انتحارياً دون إرادته.

ويمكن القول: إن هذه المهنة بحق شديدة الخطورة، وقد يستدعي هذا تجهيز المساعدين ببعض المساعدة الطبية؛ فعندما قام جورج كارناج (Georg Carnage) بنسف بوابة قلعة أوسويستري بمتفجرته، كان مخموراً حتى الثمالة قبل محاولته القيام بهذا التفجير.

ويقدم الدليل الإرشادي الذي يعود للقرن السابع عشر تعليمات واضحة في هذا الشأن: «أشعل الفتيل الأزرق، وارجع مسافة تضمن فيها سلامتك» وعلى المفجر توخي الحذر لتجنب رد الفعل العكسي إذا لجأ إلى مكان مواز لها؛ أي بمعنى آخر، لا تهرب بعيداً عنها بخط مستقيم. فرد الفعل مماثل لقوة المتفجرة ومعاكس لها، وقد يؤدي الانفجار إلى دفع الأداة نفسها إلى الخلف. وقد يجد مساعد المفجر نفسه، إذا لم يتبع التعليمات، في سباق غير متوقع للعودة إلى خطوط جيشه مع جرس المتفجرة المعدني.

انتهت الحرب الأهلية بسقوط أوكسفورد الذي لا نستطيع أن ننسبه إلى المتفجرة، بل إلى استسلام الملك تشارلز الأول. ويمكن لنا القول: إن أسوأ مهن ذلك العصر، كانت مهنة الملك نفسه، لأنه بعد ثلاث سنوات من جلوسه على العرش، حوكم وقطع رأسه، وتم تجريده، في أثناء مسيره ليلقى قدره (على يد صديقنا القديم، الجلاد كورنيت جويس)، من هيبته كملك. وكانت إحدى مظاهر الإذلال التي لاقاها، حرمانه من ركوب العربة في طريقه إلى وايتهيل (Whitehall)، فقد حمل إلى هناك على أكتاف مزاولي المهنة السيئة التالية الذكر.

حامل الكرسي المغلق (Sedan Chair Bearer):

أدت الكراسي المغلقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر دور سيارات الأجرة السوداء. وفي حين يقوم السائقون بقيادة سيارات الأجرة، كان من يقوم بنقل الكرسي من مكان إلى آخر هو حامل الكرسي. ولا يقتصر دور هؤلاء – لسوء حظهم– على توجيه مركبتهم، وإغراق زبونهم بآرائهم السياسية، بل تعدى دورهم ذلك، ليقوموا هم أنفسهم بدور المحرك والعجلات. كان عملهم بسيطاً، لكنه منهك إلى أبعد حد؛ فهذا النوع من

تفويضاً ملكيا بصنع الكراسي المتنقلة وتأجيرها في لندن ووستمينستر.

ولم يمض سوى وقت قصير حتى أصبحت الكراسي المتنقلة شائعة، وذلك لأنها تعد عملية، أكثر من العربات التي تجرها الخيول في شوارع لندن المزدحمة. فيستطيع حاملو الكرسي المتنقل الرجوع إلى الخلف والانعطاف بسهولة، كما يستطيعون سلوك طرق مختصرة، وتوصيل ركابهم إلى حيث مقصدهم، وكانوا أقل عرضة للوقوع في أزمات مرورية.

بدأ النبلاء يذهبون إلى بيوت القهوة والشوكولاتة باستخدام هذه المقاعد المتنقلة. وتستطيع إذا كان لديك التزام غرامي لا تريد لزوجتك أن تعلم به، الانتقال– بتبرج كامل وسرية تامة– إلى موعدك السري عبر ركوب أحد هذه المقاعد وإغلاق ستائر نوافذه. وسرعان ما أخذت المقاعد المتنقلة بالانتشار في كل مدينة في بريطانيا نظراً لميزاتها العظيمة الجلية. وعُدَّ وجودها في المدينة قضية فخر، فهي تحمل دلائل ومؤشرات على رقي المجتمع، وعلى توفر أنواع التسلية المسائية في العالم الجديد مثل حفلات الرقص التنكرية والحفلات الغنائية، ووجود رعاة للنشاطات من الأغنياء والأذكياء.

ومع انتشار الهوس بهذه المركبات، تعددت حقوق الملكية، وقام على حمل الأسطول الأول من الكراسي رجال مستأجرون، بيد أن الحمالين أنفسهم قاموا في الأوقات اللاحقة بشراء كراسيهم الخاصة، فاستأجر كل منهم رجلا آخر ليساعده في حمل الكرسي، أو تشاركا في ملكيته. وأصبح عمل حامل الكرسي، كما هي حال سائق التاكسي هذه الأيام، متاحاً للمهاجرين، فقد كان هناك حمالون ويلزيون، وإسكتلنديون وإيرلنديون على وجه الخصوص، وقد ورد وجود حمّالين من الجنس اللطيف.

ولا يتوقف تشابه الكراسي المتنقلة مع سيارات الأجرة عند هذا الحد، فقد كان للأغنياء كراسيهم الخاصة بهم، وتستطيع، إن لم يكن لديك كرسيك الخاص، حجز أحد هذه الكراسي مسبقاً، أو أن تستقل أحدها من أماكن وقوفها، أو أن تنادي على أحدها في الشارع، ويقوم حامل الكرسي للإشارة على خلو الكرسي، أو قدرته على تحميل ركاب، بحمله في وضع مقلوب، عوضاً من الضوء الأصفر الذي تستخدمه سيارات الأجرة هذه الأيام.

وفي العادة، يقوم الرجل في المقدمة بالتفاوض على السعر مع الزبون، ويحق لهما، بمجرد دخول الزبون الكرسيَّ، الحصول على أجرهما بأكمله. ويمتاز الحمّالون عادة بقوة خارقة ولياقة

كاملتين. فالكرسي المتنقل وحده كان يزن فارغاً زهاء الثلاثين كيلوغراماً، أضف إليه ثمانين كيلوغراماً كمعدل لوزن الشخص، وبذا يكون نصيب كل حمّال خمسة وخمسين كيلوغراماً يحملها وهو يهرول مسافة ميل. ومن الواضح أن الكراسي المتنقلة كانت مصممة لرحلات قصيرة، بيد أن هناك سجلات تشير إلى وجود رحلات أطول. فعلى سبيل المثال، انتقلت امرأة عام 1728 من لندن إلى بات، مستخدمة أحد الكراسي المتنقلة، كما أن هناك امرأة أخرى كانت تقوم برحلات سنوية من لندن إلى سويسرا باستخدام فريق متعاقب من الحمالين.

ويمكن القول: إن هناك ظلماً بائناً في نظام التعرفة؛ وذلك لأن جميع الركاب كانوا يدفعون التعرفة ذاتها بغض النظر عن وزنهم؛ فالفرق بين حمل نيل غوين (Nell Gwen) وصموئيل بيبيس (Samuel Pepys)– وكلاهما استخدم الكرسي– فرق واضح للعيان. وفي هذا السياق، نشر الدكتور جونسون في مجلة رامبلر (Rambler) وتعني «المتسكع» رسالة، قد تكون منسوبة لأحد الحمالين تقول:

> «اعتاد الرجال ذوو الأجسام الضخمة حشر أنفسهم بالكرسي، وطالبوا بأن يتم حملهم مقابل شلن، وهو أجرٌ قد نتقاضاه في العادة من شابة رشيقة القوام قد لا نشعر بوزنها على أكتافنا. ونستحق أن يدفعوا لنا أجراً متفقاً مع مقدار الجهد المبذول. وأقترح أن يتم توفير مقاييس في الأماكن العامة يتم من خلالها وزن الكراسي كتلك التي تستخدم في وزن العربات، وعلى أولئك الذين جعلهم الرخاء والغنى غير قادرين على حمل أنفسهم، أن يعطوا جزءاً من فائضهم لأولئك الذين يحملونهم».

ولم يقتصر بؤس حاملي الكراسي المتنقلة على مشاكل الوزن، بل تعداها إلى طبيعة الحمالين، فهؤلاء بالأساس تجار مكانهم الشارع، ولا ينقطعون عنه مهما كانت الظروف، وتعد الظروف الجوية القاسية أفضل الأوقات لممارسة عملهم، فليس هناك من أحد يود المشي وقد أغرقت الأمطار الغزيرة الشارع؛ لهذا كانت الملابس المبللة بالماء دون وجود طريقة حديثة لتجفيفها منظراً شائعاً جداً. وطلب من أصحاب المنازل في ظروف الجو المتجمدة

رمي الرماد في الشوارع لتمكين الحمالين من المشي بثبات على الجليد.

وورد عن جون إيفيلين، كاتب اليوميات، قوله ساخراً: «كان الكرسي وسيلة نقل مناسبة للأشخاص اللاهثين وراء تلبية رغباتهم الحسية، ولنساء المتعة الساعيات للوصول إلى مواعيدهن الغرامية بخفية وسرية تامة». كما أشارت أغنية تعود إلى عام (1695) تدعى «رجل الكرسي المبتهج» إلى التنوع الطبقي الواسع لأنواع الزبائن الذين يخدمهم حامل الكرسي.

«نحمل الكسالى، والجديرين بالفخر، والمصابين بالنقرس ومرضى السلفس، نعتاش بحمل جميع صنوف البشر في صندوق».

ولم تكن الكراسي ثقيلة فحسب، بل كانت مربكة كثيراً. فالقضبان كانت طويلة عن قصد، لتمكين الحمال الخلفي من رؤية دربه، ومع هذا، يقوم الحمال الأمامي بتزويد الحمال الخلفي بالاتجاهات.

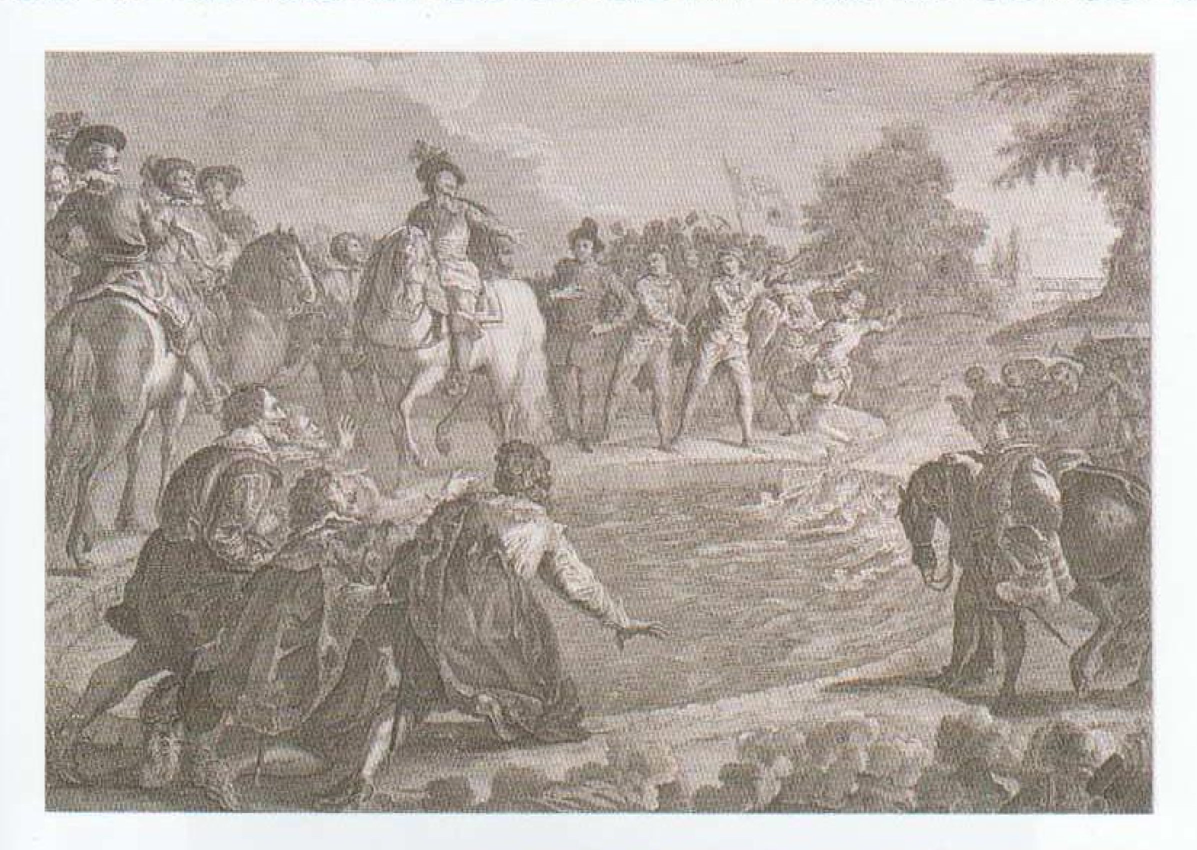
ووفقا لرؤية القرن السابع عشر لنظام الطرق الرئيسة، كان للكراسي المتنقلة أولوية المرور على المشاة. وكثيراً ما كانت العبارات «خذ حذرك» أو «عن إذنك لو سمحت!» تتردد في الشوارع للطلب من المارة إفساح المجال أمام الكراسي المتنقلة للعبور. ولم يكن هناك أرصفة مرتفعة في تلك الأيام؛ فقد كانت الحواجز الحديدية هي ما يفصل الطريق الافتراضية عن الرصيف، وكثيراً ما تعرض المشاة للدهس من حاملي الكراسي المتنقلة. ووصف زائر فرنسي يدعى سيزار دو سوسير هذا الوضع في مذكراته: «تلقيت دفعة قوية رمتني على بعد أربعة أقدام، ومن المؤكد أنني كدت أسقط على ظهري لولا جدار أحد المنازل الذي منع سقوطي، وضاعف الإصابة التي حلت بيدي». وورد أنه قام بعض المشاة الذين حشروا بين البنايات والكراسي الكريهة، بالاستسلام لعنف الشوارع حين قاموا بكسر زجاج الكرسي. وفي الليل يحمل غلام مصباحاً مضيئاً الطريق أمام حاملي الكرسي، بيد أن الكراسي المتنقلة كانت عرضة لعمليات السطو، وكانت هذه مشكلة للزبائن أكثر منها للحمالين. فعندما كان يتم إيقافهم، كان الحمالون يتراجعون بخنوع إلى الخلف، لإتاحة المجال أمام السارق لسلب مال الزبون. فأعظم خطر قد يمس حياة الحمالين هو دمار الكرسي.



هذه مذكرة وفاة تشارلز الأول. لقد أحب فكرة الكرسي المغلق المحمول لأنه كان يعتقد أن الكثير من العربات قد سببت الازدحام المروري. ولم يكن يعلم أنه بمنحه الإذن لهم بالعمل في لندن سيحمل في واحدة منها عند وفاته. وقد زعم السير بيريك تيمبل بعد جلوس تشارلز الثاني على العرش في شهادته ضد من وقع مذكرة وفاة الملك أن الناس كانوا يصرخون قائلين: «ما الذي يحدث؟ أتحملون الملك في كرسي محمول عادي، كما يحمل المصابون بالطاعون؟»

أصبحت الكراسي المتنقلة مع بداية القرن الثامن عشر شائعة جداً، إلى حد استدعى سنّ قيود عليها. فأصبحت هناك غرامات، وحالات إيقاف عن العمل، وحالات سُجن فيها الحمالون الذين استخدموا لغة مشينة، أو طالبوا بأجورٍ مرتفعةٍ، أو كان لهم حالات تصرّف مشينة كالعنف أو عدم الانضباط أو سد الطريق أو الثمل، أو الحالات المتصلة بأولئك الذين تردت كراسيهم إلى أبعد حد.

كان عمل حمّال الكراسي قاسياً وسيئاً، بيد أن هناك عملاً آخر مساوياً له في السوء، لكنه لم يتضمن أي جانب من جوانب الإثارة الإنسانية، أو فرصاً ربحية كتلك التي كانت متاحة لحمال الكراسي.



الافتتاح العظيم لنهر السير هيو ميدلتون الجديد عام 1613، بحضور النبلاء المحليين.

حمّال الماء (Water Carrier):

أصبح نقل الماء مع نمو المدن عملاً أساسياً، فضلاً عن أن توفير الماء النقي أضحى مشكلة كبيرة. ولم يكن معظم الماء المنقول مستخدماً للشرب، فالبيرة والخمر هما المشروبان المفضلان دائماً على شرب ماء لاذع أو آسن، أو ملوث. وكان الماء ضرورياً للطبخ، والغسيل، وللأطفال. وأصبح منظر بعض الرجال وهم يحملون براميل الماء المثبتة على عارضة خشبية يضعونها فوق أكتافهم جزءاً من الحياة في العصر الستيوارتي.

ونستمد أفضل معلوماتنا عن هؤلاء من مدينة لندن، التي كانت تقوم على تنظيم توصيل المياه منذ العصور الوسطى. تأسست شركة حمالي الماء في مدينة لندن عام 1496. وكان أعضاؤها يجوبون شوارع المدينة حاملين أوعية طويلة مخروطية الشكل على ظهورهم، وأصبح بمقدورهم في تلك الأوقات، الحصول على الماء المستخدم في الغسيل من الأنهار، أو تعبئة أوعيتهم بماء الشرب من الينابيع، أو الآبار، أو القنوات الصناعية.

أما في التجارة، فقد قامت شركة الهند الشرقية البريطانية بإرساء القواعد الاقتصادية لما أصبح فيما بعد إمبراطورية امتدت إلى جميع أرجاء العالم. بيد أن هذا الانفجار في التجارة الجديدة لم يكن مقتصراً على الأغنياء والمتعلمين. فلقد انتشرت الوصفات، والعلاجات وغيرها من المنتجات المصونة ببراءات الحق الخاص، وكانت جميع هذه المنتجات تنتظر تسويقها. وتزودنا أشكال التجارة الأولية بواحد من أغرب الأعمال سوءاً في هذا الكتاب ألا هو آكل العلاجم.



هل تثق بهذا الدجال؟

ويعد آكلو العلاجم، عند مقارنتهم بحياة حمالي المياه القاسية والبسيطة، دجالين كسالى. ويعمل هؤلاء في العادة مساعدين لمدّعي الطب، الراغبين في بيع منتجاتهم الخاصة من الأدوية. وليس هناك من أحد في القرن السابع عشر قد يشكك في إدراج آكل العلاجم في منظومة أسوأ الأعمال؛ فهؤلاء كانوا يقومون بما لا يمكن تصوره؛ كوضع العلاجم في أفواههم وابتلاعها. وكان هذا العمل– في منظور جميع الناس– ضرباً من الجنون، وبمثابة الانتحار.

والعلاجم مخلوقات لطيفة تقضي معظم حياتها في بيئة رطبة مظلمة، وهي لا تشبه الضفادع الشائعة الانتشار، التي تفر من مفترسيها بالقفز أو السباحة بعيداً، وإنما تبقى في مكانها، إن تعرضت لخطر ما، وتفرز مادة سمية حليبية بيضاء من الغدة اللعابية الموجودة خلف الأذن، وهذه المادة كفيلة بجعل أكثر الحيوانات المفترسة شدة تتحاشاها.

والاعتقاد الشائع آنذاك، هو أن هذه المادة ذات المذاق السيئ قادرة على قتل الإنسان. ويقوم المتطبب– وقد يطلق عليه كلمة (Mountebank) وتعني الدجال؛ لأنه كان يرتقي فوق المناضد لترويج سلعته– بجلب انتباه العامة عن طريق مشهد تمثيلي يظهر خلاله خلاصه من

ومع الازدياد المطرد في عدد السكان– إذ بلغ عدد سكان المدينة خلال الفترة الستيوارتية 500000 شخص– أصبحت مشكلة شح الماء تتفاقم شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى أزمة حقيقية. وعلى الرغم من أن بعض البيوت المنتقاة قد تم توصيل الماء إليها عبر أنابيب مرتبطة بأنبوب الماء الرئيس، إلا أن الغالبية العظمى من اللندنيين لم يكن لديهم مصادرهم الخاصة من الماء. أما الفقراء، فبقي المجال أمامهم مفتوحاً لاستخدام الآبار والينابيع التقليدية، التي غدت حينها ملوثة بالتيفوئيد والكوليرا الناتجين عن اختلاط مياهها بالفضلات البشرية.

ولم تحل المشكلة إلا بعد مشروع تجاري جريء. فلقد قام هيو ميدلتون عام 1609 بتمويل شق نهر جديد لجلب الماء إلى العاصمة من هيرتفورد شاير. لم يكن ميدلتون مهندساً، بل صانعَ مجوهرات ذا رؤيةٍ لا تخيب. ولقد وضع مخططاته لتزويد القناة الصناعية بالماء من الينابيع في آمويل وتشادويل وتحويلها إلى كليركين ويل.

كانت عملية بناء انحدار سهل على طول أربعين ميلاً مهمة ضخمة، شارف خلالها ميدلتون على الإفلاس، لكنه نجح في إقناع الملك جيمس بتغطية نصف تكلفة المشروع، وتم الانتهاء من شق القناة عام 1613. ووزّع ماء النهر الجديد، عند كليركين إلى جميع أرجاء لندن عبر شبكة من الأنابيب الخشبية والرصاصية تمتد إلى بيوت الأغنياء، ولباقي المواطنين من خلال أربعة آلاف حمال ماء كانوا يحملون الماء على أكتافهم.

ولا يخفى على أحدٍ أن الماء ثقيل الوزن؛ فوزن كل لتر منه يبلغ كيلوغراماً واحداً. ويحمل كل حمّال برميلين مخروطي الشكل يزن الواحد منها خمسة عشر لتراً. وستتكشف لديك بعض الأفكار عن قسوة الحياة اليومية لحمال الماء إذا ما شاهدت المسابقة التليفزيونية «أقوى رجل في العالم»، بما تضم من متنافسين ضخام الجسم، وهم يصرخون بينما يحملون براميل ثقيلة الوزن حينها. أصبح هيو ميدلتون باروناً، ومايزال هناك تمثال له في آيلينغتون غرين (Islington Green)، ولكن ليس هناك من نصب يذكرنا بأولئك الذين كانوا يحملون الماء.

آكل العلاجم/ الضفادع (Toad Eater):

لم يكن ميدلتون وحيداً، فعالم الستيوارتيين كان مليئاً بالمشاريع والابتكارات. فقد تم تأسيس الجمعية الملكية في تلك الفترة، وقام إسحاق نيوتن في كامبردج بتعريف قوانين الجاذبية.

موت محقق. ويقوم مساعده، آكل العلاجم بابتلاع علجوم سام، ويتناول بعده جرعة من الدواء المعروض للبيع الخاص بالدجال كترياق مضاد لسم العلجوم. والأمل يحدو الطبيب الدجال وآكل العلاجم- إذا ما نجا من الموت- بأن تنفد جميع زجاجات الدواء من على رفوف البيع.

ولكن، هل كان هذا العرض بحق مجرد عملٍ تجاري لا فتحاً طبياً؟ من المحتمل، أن يكون آكل العلاجم قد ابتلع العلجوم بالفعل، وربما قام باجتراره لاحقاً، وهذا احتمال بعيد عن الواقع. وفي الحقيقة، حليب العلجوم ليس مميتاً، ولكنه قد يجعلك شديد الإعياء، ومصاباً بالغثيان. ومن المحتمل أن يقوم آكل العلاجم بإخفاء ذلك الحيوان البرمائي ذي الزغب في راحة يده. ولم يكن هذا النوع من التسويق نادراً، والتعبير الفرنسي الذي يصف هذا الوضع هو (un avalar des couleuvres) ويعني «بالع أفاعي العشب».

ولم يكن أحد متأكداً لحظة العرض إن كان قد ابتلع العلجوم أم لا. فمعظم الناس يعرفون شخصاً كان قد قابل رجلاً له أخٌ شاهد حادثة ابتلاع العلجوم بالفعل، ولكن ليس هناك روايات مستقاة من المصدر. ومن الممكن أن يكون آكل العلاجم قد قام بهذه الفعلة المخيفة، بيد أنه ليس هناك براهين تثبت ذلك. وعلى أي حال، دعونا نعطي هؤلاء المؤدين الواثقين بأنفسهم فضل الشك، فنجزم بأن مهنتهم كانت بالفعل واحدة من أسوأ المهن.

ومازالت ذكرى آكلي العلاجم، أو (Toadies) كما أصبحت تدعى هذه الأيام، حاضرة في لغتنا. فأي شخص يبدي استعداده لابتلاع مخلوق سام لأن رئيسه في العمل طلب منه القيام بذلك، إنما هو أسوأ أنواع المتملقين الأذلاء، أو هكذا يقول المنطق. والمتملق هذه الأيام لص يميل حيث مصالحه، هذا رغم أن خسارتك المتعمدة أمام رئيسك في العمل في مباراة للغولف ليست في سوء ابتلاع حيوان برمائي سام.

وهذا يقودنا إلى عمل آخر غير سار لم يكن اسمه موجوداً في قاموسنا.

دخل آكل العلاجم الأدب. فلقد استخدمت قصيدة لروبرت بيرنز كُتِبت بعد انتهاء سلالة الستيوارتيين بثمانين عاماً، هذا التعبير بمعناه المجازي. وقد قصد بها هنا المتملقين الاجتماعيين دون ذكر أسماء.

«تفتخر بسمو معارفك
والدوقات الذين تناولت الطعام معهم مساء أمس
بيد أن الحشرة ستبقى حشرة
حتى لو كانت تزحف على جلد الملكة»

روبرت بيرنز 1791

ملتقط بيض القمل (Nit Picker):



صاموئيل بيبيز مرتدياً هذه الحلية المسببة للحكة.

كان لكل شخص في العهد الستيوارتي، بغض النظر عن مرتبته علاقة- بطريقة أو بأخرى- مع بيوض القمل (الصئبان). وقد أصبحت باروكات الرجال والنساء الفارهة رمزاً لذلك العصر. وكانت- لأنها مصنوعة من شعر الإنسان- معرضة للطفيليات ذاتها التي تسكن الشعر أو الجلد الاعتيادي، والمسماة (Pediculus Humanus Capitis) أو قمل الرأس.

ومما لاشك فيه أن معظمنا قد خضع لفحص البحث عن قمل الرأس خلال أيام المدرسة، أو عرفنا أطفالاً وجد القمل في رؤوسهم. ولم تكن عملية استخدام المشط لإزالة بيوض القمل الدبقة، أو البيوض التي تتعلق بحويصلات الشعر عملية سارة. ومن عساه يقوم بهذه المهمة لكسب عيشه؟ إنه الباحث عن بيوض القمل.

وتستخدم الكلمة هذه الأيام مرادفةً لوصف شخص شديد العناية بالتفاصيل، أو متحذلق،

أما قبل ثلاثة قرون فقد كانت هذه الكلمة وصفاً لإحدى الوظائف المتاحة. وتقوم الخادمة في البيوت الصغيرة بإزالة القمل من باروكات أفراد البيت. أما الأثرياء فلقد توفرت لهم خدمة متخصصة متكاملة في هذا المجال.

وكانت الموضة في ذلك العصر تقضي بأن يقوم الرجال بقص شعورهم، ولبس شعر مستعار أبيض وضخم، مصنوع من شعر الإنسان المخيط إلى شبكة، وفي كثير من الأحيان، قد تتعلق بعض بيوض القمل بشعر الباروكة، وعندما يفقس البيض، يزحف القمل عبر الشبكة إلى رأس الضحية، ليتغذى بامتصاص الدم من المنطقة الخلفية للرقبة وخلف الآذان.

والقمل ليس مميتاً، لكنه مزعج للغاية؛ وقد تؤدي الحكة إلى التهاباتٍ جلدية وأشكالٍ أخرى من الالتهابات، وكانت الرقابة صعبة. وهناك من حاول صنع غطاء قاس من الماء والطحين حول شبكة الشعر المستعار للحيلولة دون وصول القمل لشعر الشخص الذي يضع الباروكة. بيد أن ارتداء قبعة قاسية من العجين الجاف لم يكن مريحاً كوجود بيوض القمل تماماً.

ولهذا كان ملتقطو بيوض القمل، ومعظمهم من النساء، ينتقلون بشكل دوري من بيت إلى آخر لعرض خدماتهم، أو يتم استدعاؤهم لتنظيف الباروكات.

وكان الخيار الآخر أمام أصحاب الباروكة المصابة هو إعادة الباروكة إلى صانعها والحصول على أخرى نظيفة؛ ولهذا كان لدى صانعي الباروكات أعداداً لا تنتهي من الباروكات المستخدمة المليئة بالقمل. وعلى سبيل المثال، أصبح صاموئيل بيبيس غاضباً جداً عندما أرسل له صانع الباروكات باروكة جديدة مليئة بتلك الدويبات.

أما الفقراء، الذين لا يتمكنون من اختيار باروكاتهم بأنفسهم وتصميمها كيفما يشاؤون، فقد كان أمامهم خيار «الغطسة» في هولبورن- وقد يكون هذا الخيار مصدر العبارة «الغطسة المحظوظة». حيث يستطيع الناس، لقاء أجر ثابت مقداره ثلاثة بنسات، الغوص بأيديهم في صندوق مليء بالباروكات. وقد يتجلى الحظ للمتسابق بإخراجه باروكة غير مصابة.

كان عمل هؤلاء النسوة مريعاً كريهاً، لكن القمل الذي عليهن التعامل معه كان إلى حد ما غير مؤذ. بيد أن المتطفل الوحيد الذي كان على الستيوارتيين الحرص منه- لو كانوا يعلمون- هو البرغوث، الذي دخل البلاد على ظهور الجرذان السوداء. وكان البرغوث يحمل أسلحة

دمار شامل بالغة الصغر. فلقد أظهرت التجارب المخبرية أن الفئران تفقد الوعي بعد إصابتها بثلاثة ميكروبات عضوية من فئة (Yersinia pestis). وينشر البرغوث مع كل عضة منه أربعة وعشرين ألف مكروب عضوي. مما يمكن عدّه جرعة مميتة من طاعون الدبلي.

أسوأ المهن خلال فترة الطاعون

(Worst Jobs in the Plague)

حلّ الطاعون العظيم في بريطانيا عام 1665، وكان من أشد الأمراض قسوة، وضم طاعون الدبلي، الذي يمتاز بالجروح المتقرحة المعروفة بالدبليات، وطاعون تعفن الدم، الذي كان يضرب الأوردة الدموية بشكل مباشر، وطاعون ذات الرئة، الذي كان يهاجم الرئة. وانتشر الوباء في الكثير من المناطق البريطانية، بيد أن لندن كانت الأكثر تأثراً. وتقلص عدد السكان في غضون بضعة أشهر بمقدار الثلث.

وظهر الطاعون في بدايته في سانت غايلز (St. Giles) الموجودة في ظلال جدار مدينة لندن، حيث كان الفقراء يعيشون في أكواخ مزدحمة جداً بين أكوام القمامة، وأصبحت مارغريت بورتيوس في الثاني عشر من إبريل من عام 1665 أول ضحية رسمية. وبلغ عدد الموتى خلال شهرين ستة آلاف شخص، وارتفع العدد بحلول شهر أغسطس إلى واحد وثلاثين ألف شخص. وتم الاحتفاظ بسجلات شهرية تفصل في الطريقة التي مات عليها الناس. لكن الكثير من الفقراء، كما يوضح صموئيل بيبيس، لم تظهر أسماؤهم في القوائم الرسمية.

وقد ربط صموئيل بيبيس نفسه بين الباروكات المليئة بالقمل والطاعون، وأشار في هذه المذكرات اليومية إلى تفاقم مشكلة لندن، ومن ثم تساءل عن تأثيرها الكبير على صناعة الباروكات.

31أغسطس 1665

إذاً، انتهى هذا الشهر بحزن عظيم لما أصاب الناس من وباء عظيم



في جميع أرجاء المملكة. وتردنا يومياً أخبار أشد حزناً من سابقتها تخبرنا بتفاقم الوضع.

لقي 7496 شخصاً حتفهم في المدينة هذا الأسبوع، كان عدد المتوفين منهم بالطاعون 6102. وهناك مخاوف من أن عدد المتوفين الحقيقي هذا الأسبوع يقارب عشرة آلاف شخص، بعضهم من الفقراء الذين لا نستطيع عدّهم لعظم عدد المتوفين، وبعضهم من الأطباء الدجالين، وغيرهم من الذين لا يأبه بهم أحد.

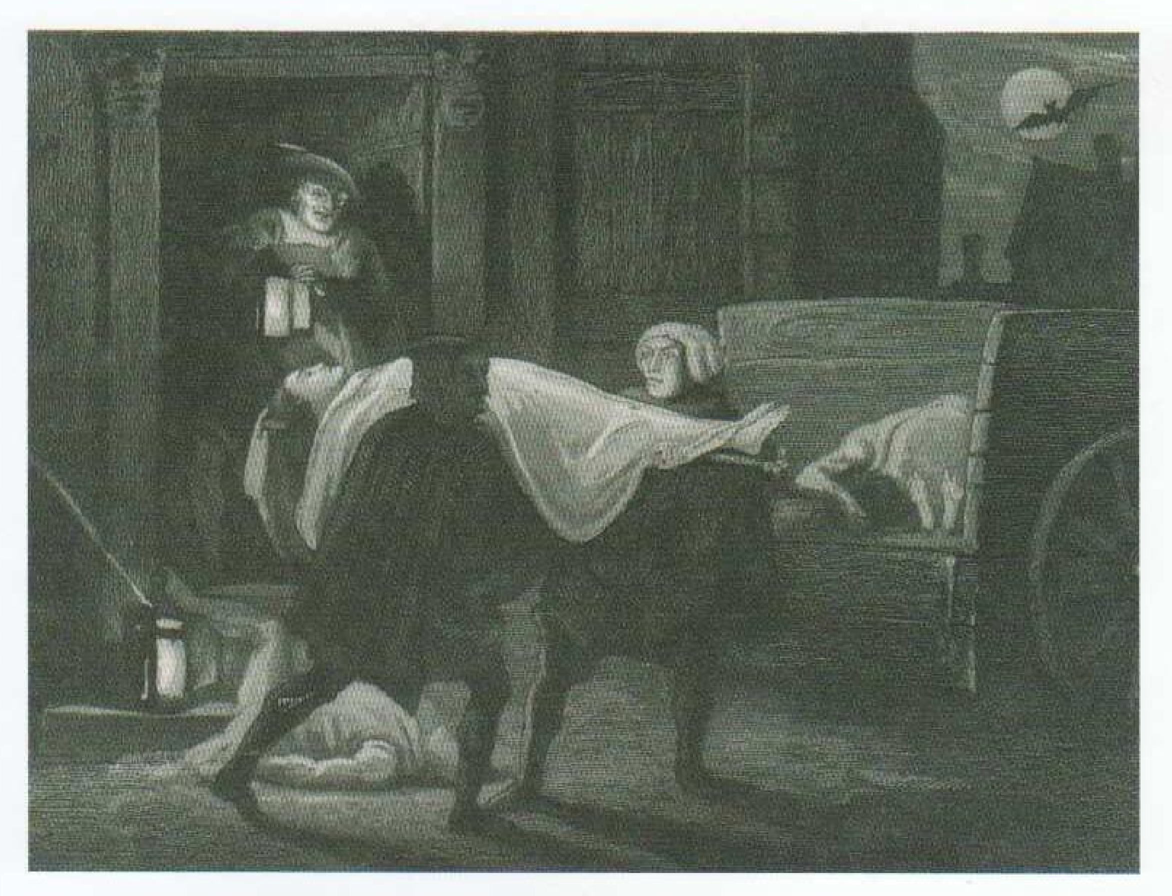
يوم الرب، 3 سبتمبر 1665

نهضت وارتديت بذلتي الحريرية الملونة، كم كانت جميلة، ونظرت إلى باروكتي الجديدة، التي اشتريتها منذ فترة قصيرة، ولكني لم أجرؤ على لبسها، لأن الوباء كان قد حل في ويستمينستر عندما اشتريتها. وهناك تساؤل عن الموضة التي قد تظهر بعد ما فعله الطاعون بالباروكات. فليس هناك من يريد شراء شعر مستعار خوفاً من العدوى، فمن المحتمل أن يكون هذا الشعر قد قص من رؤوس أشخاص ماتوا بالطاعون.

وجاء للدجالين وأكلة العلاجم يومهم الموعود، فلقد لجأ الناس لأي شيء يحميهم من هذا المرض المخيف، وتم توجيه الناس إلى التبغ كوسيلةٍ زكيت بقوة لردع انتشار العدوى. وعلى عكس قوانين الطبيعة الآن، قد يتعرض أي شخص يضبط وهو لا يدخن إلى عقوبة.

وكان لهذه السنة التي عمّقت جراح الناس وقع عظيم في وعيهم، ومازلنا نستخدم العبارة «تجنبه كالطاعون» ويقال: إن لعبة الأطفال «دقي دقي يا زهور» (ring ring o' roses) إنما هي إشارة مروعة لأعراض المرض وعواقبه. وسقط كل الناس قتلى خلال العهد الستيوارتي.

في الحقيقة، لم يسقط كل الناس قتلى، بل بقي هناك أحياء بما يكفي ليعتنوا بأولئك الذين يدفعون الموت عن أنفسهم، والقيام بمجموعة من الأعمال المرتبطة بالطاعون.



بمجرد إعلان الباحث عن الموتى عن وجود إحدى ضحايا الطاعون في بيت ما، تبقى الجثة داخل البيت حتى منتصف الليل عندما يقوم دافنو الطاعون بجولاتهم المعهودة.

الباحثون عن موتى (Searchers of the Dead):

لم يكن البحث عن الموتى بالعمل الصعب، فلقد كانوا في كل مكان. ويتلخص عمل الباحثين الكئيب في دخول المنازل، التي حدثت فيها حالة وفاة، وإجراء تشريح غير متقن وعلى عجل. ويقوم هؤلاء، إذا ما تبين بأن سبب الموت هو الطاعون، بإغلاق المنزل بألواح خشبية لإبقاء قاطنيه في حجر صحي.

ولكن ما السبب الذي قد يدفع شخصاً لاختيار عملٍ كئيبٍ كهذا؟

والجواب عن هذا السؤال ليس صعباً. فمعظم العاملين في هذه المهنة كانوا نساء قد بلغن من العمر ما أكسبهن معرفة طبية بسيطة، بيد أنهن لفقرهن قد انسقن للقيام بعملٍ- اعتقد العالمون بأمره- أنّه قد زاد من فرصهن في الوقوع ضحايا للطاعون. كان معظم هؤلاء النسوة مشردات، يعشن على معونات الأبرشيات، ويتلقين أجراً لقاء قيامهن بهذا العمل، وفي حال

رفضهن، كن يُهدَّدنَ بقطع معونات الأبرشية عنهن، بما قد يتركهن مفلسات تماماً.

ولم تنشأ الحاجة إلى عمل هؤلاء النسوة بسبب طاعون عام1665فحسب، وإنما كانت هناك موجات من الطاعون كل خمسة عشر عاماً، أو حول هذا الرقم خلال الفترات التيودورية والستيوارتية. ونحن نعلم أن أربع باحثات عن الموتى من ستيبني كن يتلقين أربعة بنسات مقابل كل جثة نقلنها خلال انتشار طاعون 1625.

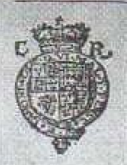
غير أن الأسعار انخفضت كثيراً خلال الطاعون العظيم، نظراً للارتفاع الباهر في عدد الموتى والمحتضرين، حتى إن الأبرشيات قد خفضت أجورها أيضاً. وتلقى الباحثون عن الموتى زهاء البنسين لقاء كل جثة يفحصونها.

ويقوم قاطنو بيت المتوفى قبل قدوم الباحثين إلى منزلهم، بمحاولة «تزكية» الجو بالأعشاب، أو إخماد العدوى بحرق الكبريت. ويقوم الباحث عن الموتى بعمله في ظل هذه الظروف المليئة بالأدخنة.

ويجري الباحثون عن الموتى- كخطوة أولى- استجواباً مع الأصدقاء والجيران حول أعراض المرض، وحول طول فترة المرض، وكيفية موته. ومن ثم ينتقلون للجثة، فيبحثون بحرص شديد عن الجروح المتقيحة، وسواد الجلد، وهي العلامات الفارقة للطاعون. وقد كانوا وهم يبللون أياديهم بالإفرازات الناتجة عن الحرارة والبثور التي تنز بالسوائل من جسم المتوفى حديثاً كمن يلعب بالموت. ومن المثير للسخرية، أن هؤلاء لم يكونوا معرضين للخطر عند قيامهم بهذه الأفعال، بل إن مصدر الخطر الذي قد يتهددهم هو حديثهم مع باقي أفراد العائلة. فالأحياء هم من كانوا يعايشون مراحل العدوى، لا أولئك الذين استسلموا للمرض سابقاً.

ويقوم الباحثون بتحريهم استناداً إلى ما يرونه بأم أعينهم، بيد أن هذا لا يعني أن مرحلة التشخيص كانت بالضرورة بسيطة؛ فالجروح الكبيرة المتقيحة، وما يرافقها من رقع سوداء على الجلد هي الأشياء الواضحة، لكن ضحايا بعض الأمراض الأخرى المفزعة كالجدري قد تبدو عليهم أعراض مروعة مشابهة. واحتمال الخطأ في التشخيص تحت أضواء أكواخ لندن الخافتة، كبيرٌ جداً.

وبمجرد الإعلان عن وفاة شخص بسبب الطاعون، يتم وضع علامة على منزل المتوفى،



A generall Bill for this present year, ending the 19 of *December* 1665. according to the Report made to the KINGS most Excellent Majesty.

By the Company of Parish Clerks of *London*, &c.

Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.
St Albans Woodstreet	200	121	St Clements Eastcheap	38	20	St Margaret Moses	38	25	St Michael Cornhill	104	52
St Alhallowes Barking	514	330	St Dionis Back-church	78	27	St Margaret Newfishst	114	66	St Michael Crookedla.	179	133
St Alhallowes Breadst	35	16	St Dunstans East	265	150	St Margaret Pattons	49	24	St Michael Queenhit	203	122
St Alhallowes Great	455	426	St Edmunds Lumbard.	70	36	St Mary Abchurch	99	54	St Michael Quene	44	18
St Alhallowes Honila	10	5	St Ethelborough	195	106	St Mary Aldermanbury	181	109	St Michael Royall	152	116
St Alhallowes Lesse	239	175	St Faiths	104	70	St Mary Aldermary	105	75	St Michael Woodstreet	122	62
St Alhall. Lumbardstr.	90	62	St Fosters	144	105	St Mary le Bow	64	36	St Mildred Breadstreet	59	26
St Alhallowes Staining	185	112	St Gabriel Fen-church	69	39	St Mary Bothaw	55	30	St Mildred Poultrey	68	46
St Alhallowes the Wall	500	356	St George Botolphlane	41	27	St Mary Colechurch	17	6	St Nicholas Acons	46	28
St Alphage	271	115	St Gregories by Pauls	375	232	St Mary Hill	94	64	St Nicholas Coleabby	125	91
St Andrew Hubbard	71	25	St Hellens	108	75	St Mary Mounthaw	56	37	St Nicholas Olaves	90	62
St Andrew Undershaft	274	189	St James Dukes place	262	190	St Mary Summerset	342	262	St Olaves Hartstreet	237	160
St Andrew Wardrobe	476	308	St James Garlickhithe	189	118	St Mary Staynings	47	27	St Olaves Jewry	54	32
St Anne Aldersgate	282	197	St John Baptist	138	83	St Mary Woolchurch	65	33	St Olaves Silverstreet	250	132
St Anne Blacke-Friers	652	467	St John Evangelist	9		St Mary Woolnoth	75	38	St Pancras Soperlane	30	15
St Antholins Parish	58	33	St John Zacharie	85	54	St Martins Iremonger.	21	11	St Peters Cheape	61	35
St Austins Parish	43	20	St Katherine Coleman	299	213	St Martins Ludgate	196	128	St Peters Cornehill	136	76
St Barthol. Exchange	73	51	St Katherine Creechu.	335	231	St Martins Organs	110	71	St Peters Pauls Wharfe	114	86
St Bennet Fynch	47	22	St Lawrence Jewry	94	48	St Martins Outwitch	60	34	St Peters Poore	79	47
St Benn. Grace-church	57	41	St Lawrence Pountney	214	140	St Martins Vintrey	417	349	St Stevens Colmanstr.	560	391
St Bennet Pauls Wharf	355	172	St Leonard Eastcheap	42	27	St Matthew Fridaystr.	24	6	St Stevens Walbrooke	34	17
St Bennet Sherehog	11	1	St Leonard Fosterlane	335	255	St Maudlins Milkstreet	44	22	St Swithins	93	56
St Botolph Billingsgate	83	50	St Magnus Parish	103	60	St Maudlins Oldfishstr.	176	121	St Thomas Apostle	163	110
Christs Church	653	467	St Margaret Lothbury	100	66	St Michael Bassishaw	253	164	Trinitie Parish	115	79
St Christophers	60	47									

Buried in the 97 Parishes within the walls, — 15207 *Whereof of the Plague* — 9887

Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.
St Andrew Holborne	3958	3103	Bridewell Precinct	130	179	St Dunstans West	958	665	St Saviours Southwark	4235	3446
St Bartholmew Great	493	344	St Botolph Aldersga.	997	755	St George Southwark	1613	1260	St Sepulchres Parish	4509	2746
St Bartholmew Lesse	193	139	St Botolph Algate	4926	4051	St Giles Cripplegate	8069	4838	St Thomas Southwark	475	371
St Bridget	2111	1427	St Botolph Bishopsg.	3464	2500	St Olaves Southwark	4793	2785	Trinity Minories	168	123
									At the Pesthouse	159	156

Buried in the 16 Parishes without the Walls — 41351 *Whereof, of the Plague* — 28888

Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.
St Giles in the Fields	4457	3216	St Katherines Tower	956	601	St Magdalen Bermon.	1943	1363	St Mary Whitechappel	4766	3855
Hackney Parish	232	132	Lambeth Parish	798	537	St Mary Newington	1272	1004	Redriffe Parish	304	210
St James Clarkenwel	1863	1377	St Leonard Shoreditch	2669	1949	St Mary Islington	696	593	Stepney Parish	8598	5583

Buried in the 12 out-Parishes, in Middlesex and Surrey — 18554 *Whereof, of the Plague* — 21420

Parish	Buried	Pla.	Parish	Buried	Pla.
St Clement Danes	1969	1319	St Mary Savoy	303	198
St Paul Covent Garden	408	261	St Margaret Westminst.	4710	3742
St Martins in the Fields	4804	2883	Whereof at the Pesthouse		156

Buried in the 5 Parishes in the City and Liberties of Westminster — 12194
Whereof, of the Plague — 8403

The Total of all the Christnings — 9967
The Total of all the Burials this year — 97306
Whereof, of the Plague — 68596

The Diseases and Casualties this year.

Disease	No.	Disease	No.	Disease	No.
Abortive and Stilborne	617	Executed	21	Palsie	30
Aged	1545	Flox and Small Pox	655	Plague	68596
Ague and Feaver	5257	Found dead in streets, fields, &c.	20	Planner	6
Appoplex and Suddenly	116	French Pox	86	Plurisie	15
Bedrid	10	Frighted	23	Poysoned	1
Blasted	5	Gout and Sciatica	27	Quinsie	35
Bleeding	16	Grief	46	Rickets	557
Bloody Flux, Scowring & Flux	185	Griping in the Guts	1288	Rising of the Lights	397
Burnt and Scalded	8	Hangd & made away themselves	7	Rupture	34
Calenture	3	Headmouldshot & Mouldfallen	14	Scurvy	105
Cancer, Gangrene and Fistula	56	Jaundies	110	Shingles and Swine pox	2
Canker, and Thrush	111	Impostume	227	Sores, Ulcers, broken and bruised Limbs	82
Childbed	625	Kild by severall accidents	46	Spleen	14
Chrisomes and Infants	1258	Kings Evill	86	Spotted Feaver and Purples	1929
Cold and Cough	68	Leprosie	2	Stopping of the stomack	332
Collick and Winde	134	Lethargy	14	Stone and Strangury	98
Consumption and Tissick	4808	Livergrown	20	Surfet	1251
Convulsion and Mother	2036	Meagrom and Headach	12	Teeth and Worms	2614
Distracted	5	Measles	7	Vomiting	51
Dropsie and Timpany	1478	Murthered and Shot	9	VVenn	1
Drowned	50	Overlaid & Starved	45		

Christned	Males	5114	Buried	Males	48569
	Females	4853		Females	48737
	In all	9967		In all	97306

Of the Plague — 68596

Increased in the Burials in the 130 Parishes and at the Pest-house this year — 79009
Increased of the Plague in the 130 Parishes and at the Pest-house this year — 68590

نسخة من وثيقة تعداد الوفيات تظهر أسباب الوفاة في أديرة لندن عام 1665. ويتكفل الطاعون بعدد لا بأس به، ولكن لدى الجميع يقين أن معظم الوفيات المدرجة تحت مسمى «البرداء والحرارة» هم في الحقيقة ضحايا الطاعون، وقد تكون البرداء والحرارة سبب وفاة بعضهم، أو أن أقارب المتوفى دفعوا للباحث عن الموتى ليغض الطرف عن سبب الوفاة الحقيقي.

ولا يسمح لأحد بولوجه أو الخروج منه إلا للطبيب أو الباحث عن الموتى. ويقوم الباحث، ويرافقه المشرف عليه؛ الموظف الكنسي أو القندلفت بجمع لائحة بأسباب الوفاة. بيد أن السجلات لم تكن شديدة الدقة، نظراً لأن هؤلاء أيضاً كانوا يموتون بالطاعون.

وكان على الباحثين أداء يمين يتعهدون من خلاله بالقيام بعملهم بأمانة وإخلاص. وعلى الرغم من ذلك تم اتهام بعضهم بقبول الرشوة من عائلات ضحايا الطاعون، ليقوم الباحث بالتنسيب أن سبب الوفاة ليس الطاعون، وإنما سبب آخر كالتهاب اللوزتين أو الارتعاب. وسيتمكن الأقارب، إذا ما حصلوا على شهادة «خلو أمراض» من التنقل إلى مناطق تخلو من المرض المفزع.

وبدت مهمة الباحث عن الموتى أكثر صعوبة؛ لأن الوباء العظيم كان مزيجاً من عدة أنواع من الأمراض، كان أشهرها الطاعون الدبلي. وفي العادة، تقوم عضة برغوث بغرس الميكروبات العضوية في النظام اللمفاوي للجسم، وتؤدي هذه إلى ظهور أورام مؤلمة ضخمة الحجم في الغدد اللمفاوية، وفي مغبن الفخذ، أو الإبط أو الرقبة، والموت هو النتيجة المحتمة إذا ما وصلت العدوى إلى الدم.

وفي حالة طاعون تعفن الدم، تنتشر العصيات في مجرى الدم مباشرة، وقد يعني هذا أن المريض قد يموت دون ظهور أعراض الأورام الاعتيادية. وينتقل المرض عبر عضات البراغيث كما في حالة الطاعون الدبلي.

ويسبب طاعون ذات الرئة أمراضاً رئوية شديدة الخطورة قد تكون مميتة، ولكنها لا تتطلب قرصة برغوث لانتشارها. وتوجد العُصيات في قطرات الماء المتطايرة من سعلات المريض إلى ملابس المجاورين له؛ ولهذا تعد هذه العُصيات معدية جداً، وبخاصة في البنايات المزدحمة ذات التهوية السيئة. وقد سجلت حالات مستعصية من ذات الرئة بمجرد وصول العُصيات للرئتين.

وقد يقود طاعون ذات الرئة للموت في غضون ثلاثة أيام أو أربعة، بيد أن الفترة التي يستغرقها طاعون تعفن الدم هي أقصر بكثير. فهو يحتاج لأربع وعشرين ساعة فقط. ويتسبب النزيف الداخلي في جميع هذه الأنواع بحدوث كدمات ضخمة تظهر على الجلد، وقد يفسر سبب هذا تسمية الطاعون في القرن الرابع عشر بالموت الأسود.

وتشير قوائم الموتى إلى أن عدد الوفيات الشهري هائل. وكانت جميع هذه الجثث تحتاج إلى من يدفنها، ويقودنا هذا إلى مهنة سيئة أخرى.

دافن موتى الطاعون (Plague Burier):

كان على جميع أبرشيات لندن السبع والتسعين الموجودة داخل أسوار المدينة، والثلاث والثلاثين الموجودة خارج أسوار المدينة القيام بدفن موتاهم. ويشير مشهد فرقة مونتي بايثون المسرحية الشائع والملهم إلى عربة تشق طرقات المدينة يقودها سائق يقرع جرساً ويصرخ بصوت متحشرج قائلاً: «أحضروا موتاكم». غير أن العمل لم يكن على هذه الدرجة العالية من التكنولوجيا.

فمعظم دافني صرعى الطاعون كانوا من الفقراء البائسين، الذين يقومون بالعمل ليلاً دون وجود أقارب الميت خوفاً من الإصابة بالعدوى. ولم يتمكن سوى أقل القليل منهم من امتلاك رفاهية العربة، فقد قاموا بجر الجثث المشوهة ببشاعة على شبكة المقلاع التي بدت كأرجوحة شبكية.

كان الصيف حاراً وطويلاً، وعبقت أجساد أولئك برائحة الموت والجثث المتعفنة. وسرعان ما امتلأت المقابر بالموتى، بحيث تم السماح بالقيام بعمليات دفن جماعية. وقد تحدث أخطاء بين حين وآخر؛ فهناك حالة واحدة على الأقل لموسيقي سكير فقد وعيه، فظنوه ميتاً وتم جره بالعربة لدفنه، ونحن نفترض هنا أنه قد أفاق قبل أن يموت اختناقاً من تراكم الجثث فوقه.

وأصبح الخوف كالغمامة السوداء التي تحوّم فوق المدينة. ولجأ الدافنون، في محاولتهم لدفع الهواء الموبوء، للتدخين بكثافة، لكنهم أدركوا في قرارة أنفسهم أن فرصهم في البقاء على قيد الحياة، هي أقل من فرص مساعد المفجر الذي قد لا يسعفه عرجه بالهروب من موقع التفجير. وكان هؤلاء في منظور العامة، نظراً لاقترابهم الجسدي اللصيق من صرعى الطاعون، رجالاً محكوماً عليهم بالإعدام. وفي العادة فإنهم يحملون قضباناً حمراء لتحذير الناس من الاقتراب منهم، وقد يضطرون للعيش في معزل عن الناس، داخل أكواخ في المقابر، لإبقائهم بعيدين عن نقل العدوى للآخرين.

وفي الواقع، كان لهؤلاء ذات الفرص المتاحة أمام باقي الناس في البقاء؛ فالبراغيث وقطرات



يقوم الدافن مع تراكم الجثث في قبور جماعية، بالتدخين بشدة على غليونه لحمايته من العدوى.

الماء الملوثة من المصابين بالمرض هي أسباب الطاعون. ولم يشكل دفن الموتى أي فارق يذكر. إن ما يجعل هذه المهنة سيئة بحق، بعيداً عن النظر إلى حالة الدافنين الصحية، وفضلاً عن الرائحة النتنة والمتعفنة، هو الخوف المسيطر عليهم؛ أن عملهم مميت لا محالة.

وتوجز لنا هذه الفقرات من تعليمات توصيات رئيس البلدية فيما يتعلق بالطاعون عمل الباحث عن الموتى ودافنهم، والمحاولات الإنسانية البائسة في مواجهة الكارثة الطبيعية.

الأوامر الصادرة عن رئيس بلدية لندن وأعضاء المجلس التشريعي فيما يتعلق بعدوى الطاعون 1665

ونظراً لقيام عاهلنا الملك الراحل الملك جيمس، الذي نستذكره بكل خير، بسن قانون خاص بجهود الإغاثة، وتراتبية الأشخاص المصابين بالطاعون، ووفقاً لهذا القانون تم تخويل منفذي العدالة، والمحافظين، والمأمورين القضائيين، وغيرهم من الموظفين ذوي المرتبة الرفيعة بتعيين مفتشين وباحثين ومراقبين وحراس ودفنة للأشخاص المصابين بالمرض في جميع الأماكن، ووفق صلاحياتهم الممنوحة لهم. كما كان من صلاحياتهم جعل هؤلاء يقسمون يميناً للقيام بواجباتهم على أكمل وجه. ونص القانون أيضاً على أنه من صلاحيات هؤلاء الموظفين المذكورين إصدار تعليمات تعد ضرورية في وقتها. وبعد تداولٍ في هذا الشأن، وكإجراءٍ مناسبٍ، لمنع انتشار العدوى وردعها (إن كان هذا يوافق إرادة الرب العظيم)، قررنا إنشاء الوظائف الآتية، وعليهم القيام بالمهمات الآتية على أكمل وجه.

الباحثون

يجب الحرص بشكل خاص بتعيين باحثات في كل أبرشية، معروف عنهن الأمانة، ومن أفضل ما يمكن استئمانه للقيام بهذا العمل. وعلى هؤلاء النسوة أداء القسم للقيام بعملهن على أكمل وجه، وتقديم تقرير وافٍ، حسب ما توصلن إليه من معرفه فيما إذا كان الأشخاص الذين عليهم معاينة جثثهم قد لقوا حتفهم، نتيجة العدوى أو أي مرض أخر. والأمر متروك للطبيب الذي قد يعين، ليشمل عمله عدة أبريشات ليحدد فيما إذا كان هؤلاء النسوة مناسبات للقيام بهذا العمل، وإيقاع العقوبة المناسبة عليهن إذا ما تم اكتشاف تقصيرهن في عملهن.

ولا يسمح لأي باحث خلال هذا البلاء العظيم بالعمل في شتى أنواع العمل العام، كالإشراف على متجرٍ، أو العمل كغاسلة، أو في أي نوع

من أنواع العمالة مهما كانت.

دفن الموتى

وبمقتضى هذا القانون يتم دفن الموتى بعد تفقدهم في أنسب الأوقات– قبل شروق الشمس أو بعد الغروب– وبحضور آمر الكنيسة أو مراقبي الأمن، ويجب عدم القيام بالدفن إن لم يحضروا، ويجب منع جيران المتوفى أو أقربائه المنكوبين من مرافقة الجثة إلى الكنيسة، أو دخول البيت الذي وجد فيه المتوفى كي لا يتم إغلاق البيت تماماً أو حبسهم. ويجب ألا يبقى في الكنيسة أو يدفن فيها خلال وقت الصلاة العامة، أو الخطبة أو المحاضرة. ويجب ألا يسمح للأطفال بالاقتراب من الجثة أو التابوت أو القبر، خلال عملية الدفن في الكنيسة أو فناء الكنيسة، أو مكان الدفن، ويجب أن تكون جميع القبور على عمق ستة أقدام، وعلاوة على ذلك يجب منع جميع التجمعات العامة خلال عمليات الدفن، في حال استمرار هذا العقاب الإلهي.

يجب وضع علامة على كل بيت تمت زيارته

يجب رسم صليب أحمر حجمه قدم على باب كل بيت تمت زيارته، بشكل واضح للعيان؛ ويجب كتابة الكلمات الآتية: «ارحمنا يا رب!» فوق الصليب. ويجب أن يبقى الصليب والكلمات على الباب حتى يتم فتح الباب قانونياً

السير جون لورنس، رئيس البلدية

السير جورج واترمان، والسير تشارلز دو– مفوضا الأمن.

غير أن هناك وظيفة متعلقة بالطاعون أسوأ من الوظائف التي ذُكرت، فالمهمة التي قد لا يحسد عليها أي شخص، هي قتل الكلاب والقطط في أمة تعشق الحيوانات.

قاتل الكلاب والقطط (Dog and Cat Killer):

كان الاعتقاد السائد حينها أن القطط والكلاب الوحشية هي سبب انتشار الطاعون، وكان يعتقد أن الكلاب المعروفة بالنغلية والجعارية هي التي تحمل المرض في فرائها، ولهذا كانت المجالس البلدية تدفع بنساً مقابل كل حيوان يقتل. وتم قتل أربعين ألف كلب، وثمانين ألف قطة، وكانت هناك محاولات لتسميم الجرذان بالزرنيخ وسم الجرذان– وتشبه المهنة الأخيرة عمل صائد الفئران في العهد الفيكتوري– هذا إن نسينا القتل الموسمي للأرانب والحمام. بيد أن قتل القطط والكلاب، بغض النظر عن عمرها، قد جعل الجرذان الحاملة للطاعون طليقة لا تخشى مفترسيها.

وتعد وظيفة قاتل الكلاب امتداداً لوظيفة أبرشية قديمة تدعى «طارد الكلاب»، وهو لقب أطلق على الرجل المكلف بدفع الكلاب خارج الكنيسة. وكان من مهماته أيضاً نخز الناس لإيقاظهم خلال المواعظ الطويلة. وضمت كاتدرائية إكستر غرفة خاصة لطارد الكلاب، الذي كان يتلقى راتباً من الأبرشية، التي تزوده بمستلزمات عمله وهي: السوط، والقفازات، والملقط، الذي يستخدم للإمساك بالكلاب من مسافة بعيدة. ومايزال طاردو الكلاب في باسلو (Baslow) التي لا تبعد كثيراً عن قرية الطاعون الشهيرة إيام (Eyam) في ديربيشاير، يتلقون سوطاً كالذي كان يستخدمه طارد الكلاب.

وأصبح طاردو الكلاب مسؤولين خلال فترة الطاعون عن تجميع الكلاب والتخلص منها، فقد نظر الناس إلى الكلاب الضالة بالتخوف والإحساس بالقذارة اللذين نرى بهما الجرذان الآن. وظن الناس أن هذه الكلاب – لأنها تتجول فرادى أو في جماعات– هي المسؤولة عن نشر الطاعون. واستدعى وقوع وفيات بين أفراد منزل قتل الحيوان الأليف في ذلك المنزل.

وتم التشديد في تطبيق الإبادة الكاملة بحق هذه المخلوقات، ولم تكن الطرق المستعملة إنسانية على الإطلاق، فقد تم استخدام السكاكين، والعصي، والمصائد، والكتل الخشبية الضخمة في قتل القطط والكلاب المسكينة. بيد أن العلم الزائف الذي برر هذه المذبحة، لم يكن ذا جدوى في القضاء على الطاعون، الذي تم القضاء عليه– كما يعلم معظم طلاب المدارس– بواسطة خباز مهملٍ، لا بواسطة طبيب.

فالشرارة التي بدأت في مسار البودنغ في الثاني من سبتمبر عام 1666 أصبحت فيما بعد حريق لندن العظيم. والرأي التقليدي في هذا الشأن أن هذه الكارثة الطبيعية العظيمة في العهد الستيوارتي قد استأصلت الكارثة الأولى؛ هذا على الرغم من عدم وجود تفسير مقنع لهذا الاعتقاد. وفي الواقع، واصل الطاعون انتشاره لفترة تلت الحريق العظيم، وكان دور الحريق في إزالة ما يكفي من المدينة لدفع الكثير من الجرذان خارجها، وبذا أسهمت في إنهاء الوباء.

بيد أن الحريق العظيم قد وضع نهاية لكاتدرائية القديس بول القديمة؛ ويعد المبنى الذي تعرض للاحتراق رابع كاتدرائية تبنى في ذلك الموقع بلا انقطاع، بدءاً بتلك التي بنيت في عهد الملك إثيلبيرت في كنت في عام 604 بعد الميلاد. وتعرضت البنايات الأخرى جميعها للاحتراق أيضاً. وورد عن كاتب اليوميات جون إيفيلين قوله: «ليست كاتدرائية القديس بول الآن سوى دمار حزين، وذلك الرواق الجميل ليس سوى أكوام من الحجارة». وكان لدى المعماري العظيم كريستوفر رين، حتى قبل وقوع الحريق العظيم، مخططات لهدم الكاتدرائية القديمة والاستبدال بها تصميماً كلاسيكياً بيد أن حلمه لم يتحقق لرفض السلطات مثل هذه المشاريع، وجاء الحريق العظيم ليمنحه الفرصة الذهبية لتحقيق حلمه. فقام ببناء أكبر كاتدرائية في بريطانيا، وواحدة من أشهر المعالم في العالم. وبقيامه بهذا العمل، وضع حجر الأساس لواحدة من أكثر المهن سوءاً.

رسام القباب (Dome Painter):

تطلب العمل في المبنى الجديد آلاف العمال الذين عملوا بكد لتنفيذ تصاميم رين، وأشرف عليهم تشارلز الثاني بنفسه. بدأ العمل عام 1675، وانتهي منه عام 1710. واحتفل رين بعيد ميلاده السادس والسبعين وانتهاء العمل بالكاتدرائية، بوضع نفسه في سلة، وسحبه إلى المنارة التي ترتفع فوق القبة.

وعُدَّت القبة نصراً عظيماً كلّل به رين عمله طوال حياته. وكان عم رين أسقف إيلاي. وتمتاز الكاتدرائية في إيلاي بمنارتها المضيئة الثمانية الشكل، التي تضفي على الكاتدرائية بأكملها بعداً خاصاً. ولقد استمد رين إلهامه من هذه الكاتدرائية، وأضفى عليه لمسة





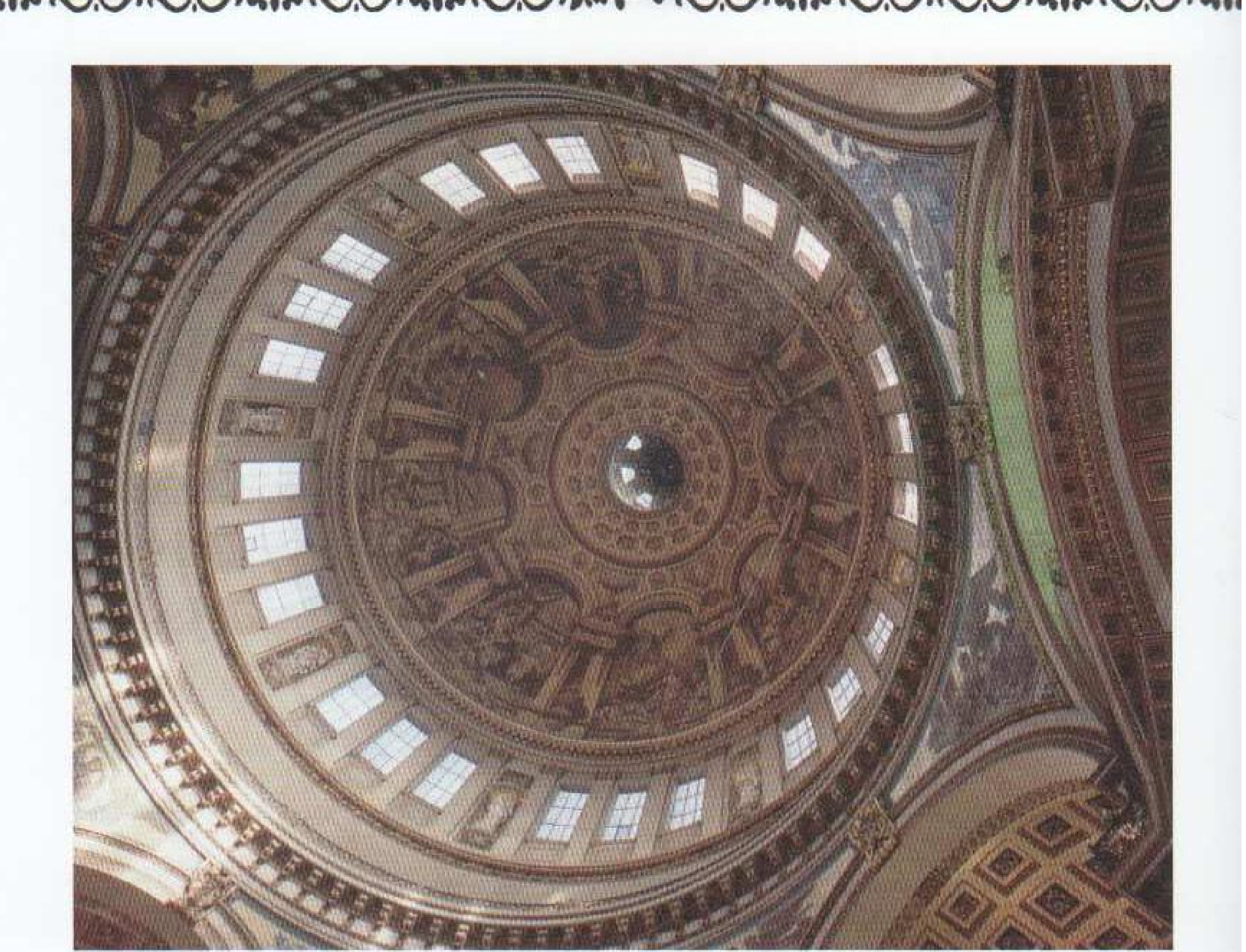
يظهر السير جيمس ثورنهيل في هذه اللوحة بميزة مريبة بعض الشيء كما لو أنه يشك في مكانته بين الآخرين.

كلاسيكية. وترتفع القبة إلى ما يزيد على مئة متر؛ وبذا تكون واحدة من أطول الكاتدرائيات في العالم. وحتى وقت قريب، كانت الكاتدرائية تملأ فضاء لندن. أما من الداخل، فالقبة تزود البناية ببعدٍ ضخم. وستكون حين دخولك رواق الاعتراف- بعد صعودك مئتين وتسعاً وخمسين درجة- قد وصلت إلى منتصف الطريق إلى القمة.

ويمكن عدّ الرسومات التي تكسو القبة من الداخل مرشحة لواحدة من أسوأ المهن في ذلك العصر. إن مجرد قيامك بطلاء الجدران، التي تبلغ مساحتها ألفاً وأربعمائة وأربعين متراً مربعاً بدهان عادي، هو عمل صعب، فكيف بعمل رسام القباب الذي يعدُّ مزيجاً من التحمل الجسدي والإقفار الروحي؛ بل يمكن القول إنه قصة رجل واحد هو: جايمس ثورنهيل.

أراد رين أن تكون الزخارف بسيطة؛ فهذا المبنى- أولاً وأخيراً- كاتدرائية بروتستانتية. ولم يُقْدم البيوريتانيون على استخدام الزجاج الملون والرسومات في زخارف الكنيسة إلا حديثاً، وكان الناس على الدوام يعزون أي شيء ذي وضع مريب للبابوية. وفي حقيقة الأمر، تداول الناس شائعات مفادها أن الكاثوليكيين هم من ورّى نيران الحريق العظيم. ويظهر نموذج رين، الذي صممه بين عاميْ 1673 و1674 قبل بدء العمل، القبة، وقد غطي أكملها بالنحاس.

بيد أن سلطات الكاتدرائية قررت أنها ترغب في زخارف أكثر تميزاً. وقامت عام 1708 بإجازة مخططات لجداريات ضخمة وضعها الفنان الفرنسي العظيم لويس لاغير (Louis Laguerre). ولم تمض سوى شهور محدودة حتى حصل اليمينيون على السلطة من المحافظين،



قبة كاتدرائية القديس بول تزدان بجدارية ثورنهيل الترامبولية.

وأصبح مصير الأمور الداخلية للكاتدرائية معلقاً بأيديهم. فطالبوا باتباع طريقة بروتستانتية أكثر تحفظاً، وذلك بعد أن رأوا أن رسومات لويس صارخة ومبهرجة؛ وبذا عدّت مرتبطة بتجاوزات صور روما الصارخة، ولهذا تم إخراجه من المشروع.

وتم الإعلان عن مسابقة لاختيار أفضل بديل عن لويس ورسوماته. وضمت القائمة المختصرة السير توماس ثورنهيل، والرسام الإيطالي بيليغريني. وطلب العميد من رين إبداء رأيه بالتصاميم المقترحة، فقال إنه لم يعجب بأي منها؛ مع أن أعمال ثورنهيل أقلها سوءاً. بيد أن هذا العميد كان جديداً، وكذا كانت الجماعة الدينية صاحبة القرار في هذا الشأن، فقاموا برد اقتراح رين.

ولقد مُنح ثورنهيل هذا الشرف، فكان له امتياز مضاعف كونه إنجليزياً وبروتستانتيا أميناً. وبدأ تفويضه في شهر يونيو من عام 1715. (وعلينا القول هنا: إن هذا التاريخ يدخلنا في الفترة الجورجية، غير أن كاتدرائية القديس بول ذاتها تعد رمزاً للعهد الستيوارتي، وتم طرح عطاء الصور في عهد الملكة آن).

وتظهر لوحات ثورنهيل التي تم اختيارها ثمانية مشاهد للقديس بول، فكانت هذه الرسومات أولى اللوحات الرمزية في الفترة التي تلت حركة الإصلاح الديني. وقد يكون ثمة مشاعر معادية للرومان لدى الحكومة، وفي جميع أرجاء الوطن، بيد أن القديس بول لم يكن موضع خلاف على الإطلاق، فقد كان حوارياً، وتصب مبادئه التوحيدية في صميم المذهب البروتستانتي، وكانت مواضيعه الرئيسة توراتية بالكامل. ولكنه لم يلق الجلبة ذاتها التي تلقتها مريم العذراء، أو أي واحد من القديسين الأسطوريين.

وغدت كاتدرائية القديس بول، حتى قبل انتهاء العمل فيها، متسخة بسبب الدخان الذي كان يغطي سماء لندن، وواصل الدخان تراكمه عليها إلى حين تنفيذ قانون الهواء النظيف عام 1956. وتم مؤخراً ترميم المبنى والرسومات التي كلفت في الأصل أربعين مليون جنيه إسترليني. ويمكن للندنيين الآن أن يروا مبنى رين كما صممه، وبذا كسبت سمعة ثورنهيل ثناء متأخراً.

والمشروع عبارة عن جدارية ضخمة تعتمد طريقة الترام بوليه في الرسم، وتظهر الشخصيات فيها مؤطرةً عبر الأروقة المعمارية المتعددة التي تحمل مجموعة من الجرار، وقشور المحار، والأكاليل. وتم اعتماد طريقة غريزاي (grisaille) في رسم اللوحات؛ وهي طريقة توظف اللون البني، والرمادي، والأصفر- المحمر ودرجات هذه الألوان لاستنزاف جميع العلاقات اللونية (والبابوية) من لوحة الألوان.

ويمكن القول هنا: إن هناك تشابهاً مع حياة مايكل أنجلو وعمله، وكان من الممكن أن تكون القبة ككنيسة سيستينا الخاصة بثورنهيل (في إشارة إلى كنيسة سيستينا التي أبدع أشهر الرسامين الإيطاليين في رسمها، والتي تعد مقراً للبابا). ولقد ذاق فنان عصر النهضة الأمرين من تحفته الفنية، فقضى في رسمها سنوات، وهو متمدد على ظهره، وأنفه ملامس للسقف. اعتاد ثورنهيل العمل في مثل هذه الظروف، ولكن على حمّالات خشبية أكبر. وعلى الرغم

من أن شخصين أو ثلاثة قد ساعدوه في عمله هذا، إلا أن العمل استغرق سنتين لإكماله.

ولم تكن مهنة الرسم على القباب بالعمل المناسب لضعاف القلوب؛ وتبلغ المسافة الواقعة بين أرضية الكاتدرائية وأعمق نقطة خمسة وثلاثين متراً. وقد يتطّلب وصول ثورنهيل ومساعديه إلى الرقعة التي يريدون العمل عليها ما يقارب الساعة. ومن ثم يبدأ العمل الصعب.

كان يجب في بداية الأمر تغليف الجزء الداخلي الضخم باستخدام حمّالات معلقة من السقف، تفتقد لحواجز قد تحمي الرسّامين من السقوط عنها. وفي حين إنّهم يستطيعون العمل في وضعية طبيعية في المراحل السفلى، لم يكن ذلك متاحاً لهم في أعلى القبة، حيث اضطروا، نظراً لانحناء القبة، للعمل وهم مستلقون على ظهورهم، وليس خلفهم سوى فراغ مروع يمتد إلى الرخام في أرضية الكاتدرائية. والعمل مزيج من المشقّة الجسدية البالغة والدوار المتواصل. ولكن لم تسجل أي حالة وفاة، مع ورود أخبار أن ذلك كان يمكن أن يقع، فقد كان ثورنهيل يمشي للخلف ويقترب، بشكل خطير، من حافة الحمّالة الخشبية. وكيف تمكن مساعده أن يجلب انتباهه دون أن يجعله يقفز ويرتطم بالأرض؟ وكان الحل الذي ارتآه- رغم أنه لم يمنحه الشكر الذي استحقه- هو رمي علبة دهان على الجدار ليجلب انتباهه.

وضم هذا العمل الضخم عدة مراحل، كانت أولاها تحضير المناطق التي يجب الرسم عليها بطبقتين من دهان الأساس، ويلي ذلك، رسم التصاميم بدقة رياضية فريدة؛ فإعطاء الأشكال الضخمة الحجم ما يناسبها في اللوحة كان إنجازاً فريداً، ولا يجوز ترك الأمور تقريبية، فهذا مما لا يسهم في خلق بعد مرئي مناسب. كانت الأشكال ضخمة بحق، فَقَدَمُ القديس بول وحدها كانت بطول ذراع رجل، وقد تتّسم العملية أكملها بشعور محبط صفته العامة: «هل تستطيع أن تراها الآن؟»، وبالطبع، لم يكن بمقدور الرسّامين الرجوع إلى الخلف ليبدوا رأيهم فيما يقومون به.

وعلاوة على ذلك، كان الرسّامون يعملون في الظلام، بكل ما تحمله كلمة «ظلام» من معنى، ولاسيما في شهور الشتاء؛ فالأجزاء العليا من القبة كانت مظلمة وشديدة البرودة، ولم تكن الشموع ذات فائدة كبيرة، وبخاصة في وضع رسّامينا الذين كانوا يستخدمون الألوان البنية والسوداء والرمادية. ولقد شعر رسّامونا بالوحدة في قمة القبة؛ إذ صرح ثورنهيل ،عندما

قام كاتب اليوميات والعضو في البرلمان ددلي رايدر (Dudley Ryder) بزيارته في أغسطس من عام 1716، أن أحداً لم يرتق الحمالة الخشبية أبداً ليتحدث معه.

ورغم كل هذه الظروف السيئة، اكتمل العمل في الكاتدرائية، وتلقى ثورنهيل ستة آلاف وخمسمائة جنيه إسترليني، وأصبح أول رسام بريطاني يمنح لقب فارس، بل أصبح عام 1720 عضواً في البرلمان. فحقّق إنجازات على صُعُد عدة.

ولكن أين تكمن المشكلة؟

في الحقيقة، كان ثمة طعنة في صميم هذا العمل السيئ. فقد وجد ثورنهيل نفسه، بعد تسلقه آلاف الأدراج ، وإجهاد عينيه لإكمال هذا العمل، أنه تقليدي كممثّلتيْن كوميديتين في حفلة موسيقية عديمة القيمة. فقد تغيرت– بين ليلة وضحاها– المعايير الجمالية لدى العامّة، ووجهت انتقادات إلى رسومات ثورنهيل – قبل انتهائها– مفادها أنها مملة جداً وكئيبة. وأصبح أسلوب الروكوكو، بدوّاماته وزخارفه المتوهّجة أسلوب الحياة الطاغي حينها.

ويقول النقش المثبت على ضريح السير كريستوفر رين في كاتدرائية القديس بول: «أيها القارئ، إذا أردت النظر إلى شيء خالد، فانظر حولك.» وقد يكون رين أشهر رسام معماري في تاريخ بريطانيا، وكانت كاتدرائية القديس بول كفيلة بتحقيق ذلك الأمر له. أما ثورنهيل، الذي بدأ عمله بآمال عريضة بأن تخلّد اللوحات اسمه أيضاً، فقد اختفى اسمه في غياهب التاريخ؛ ولا يُذكر هذا الفنان الستيوارتي العظيم– إن ذكر اسمه على الإطلاق– إلا عند الحديث عن صهره، فنان العهد الجورجي الأكثر شهرة، هوغارث (Hogarth). وقد أصبح عمله، الذي أنجزه في ظروف شديدة الإعتام، وعلى ارتفاعات شاهقة، مسجلاً في ذاكرة النسيان. إن ما يظهره هذا العمل هو أن الأعمال السيئة لم تكن قليلة الكلفة أيضاً.

إن العمل الذي يستحق جائزة أسوأ المهن في الفترة الستيوارتية هو بحق عمل شخص محترم جداً، وعلى درجة عالية من الثقافة، وفي بعض الأحيان، ذو دخل جيد. وليس هذا فحسب، فإسهاماته جليلة في الفنون الأدائية لبلده. ومن يكون هذا الشخص غير صانع أوتار الكمان؟

صانع أوتار الكمان (Violin-String Maker):

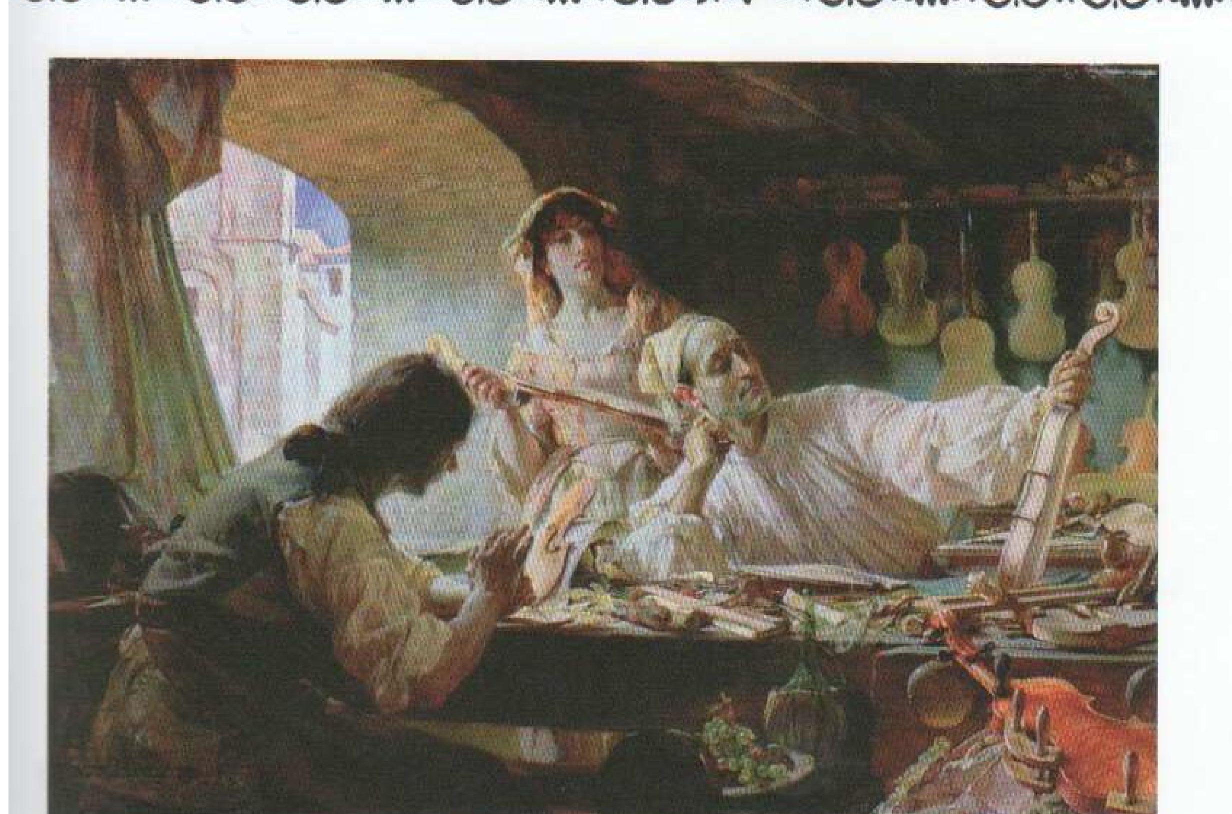
تغيرت الموسيقى التي كان الناس يستمعون إليها خلال الفترة الستيوارتية بشكل كبير، وتعدّدت عند جلوس جيمس الأول على العرش، الآلات الوترية الأنيقة متعددة الطبقات الصوتية مثل العود والفيولا (viol). ومع انتهاء فترة حكم الملكة آن، كانت الصرخات الكبيرة في عالم الموسيقى هي التحف الفنية البالغة التعقيد ككونشيرتات باخ وفيفالدي على آلة الكمان، وموسيقى هاندل المائية، وبذا حلت في تلك الفترة موسيقى الباروك، وولدت الأوركسترا الحديثة، التي كان الكمان عمادها. بيد أن هذه التحولات الموسيقية لم تصبح في متناول اليد لولا وجود مجموعة صغيرة مكرسة من الناس، ومستعدة لتحمل أقسى الظروف في محاولتها غسل أمعاء الخراف المذبوحة حديثاً للتخلص مما فيها من فضلات.



إن إحدى الجوانب المشتركة في أسوأ المهن هي أنه لا يمكن الاستغناء عن أي شيء مهما كان حقيراً. فقد كان أجدادنا يستفيدون من كل جزء من الحيوان بعد ذبحه. واقتسام صانعي السجق وصانعي أوتار الكمان أمعاء الحيوان هو أفضل مثال على ذلك.

عمّت القرن السابع عشر ثورة في تكنولوجيا صناعة الأوتار. فقبل تلك الفترة ضم الكمان ثلاثة أوتار فقط. ويلحظ من نقر شريطاً مطاطياً منا أن الوتر القصير والرفيع والمشدود يصدر نوتة موسيقية مرتفعة / حادة، بينما يصدر الوتر الغليظ والطويل صوتاً منخفضاً. وقد أدرك صانعو الكمان أن من المستحيل إنتاج وتر خليط لعزف النغمات المنخفضة، مع بقاء هذا الوتر قصيراً، ومشدوداً، ليناسب حجم الكمان.

وفي النهاية، حلت المشكلة باستخدام



حصلت عائلة ستارديفاري شهرة لم تتأت لأحدٍ من قبل في صناعة الكمان، غير أن أفرادها لم يقوموا مطلقاً بسلخ شرج الأغنام.

طريقة جديدة تفتل بها الأوتار المستخلصة من أمعاء الأغنام. وقادت هذه التقنية إلى اختراع الكمان الحديث ذي الأوتار الأربعة، ومكنت هذه الطريقة أفراد عائلة سترافاريوس، (Stravarius) وغيرهم من الحرفيين في كريونا من إنتاج آلاتهم الوترية الشهيرة، ومكنت المؤلفين الباروكيين من كتابة ألحانهم.

ولهذا يمكن القول: إن صانعي الأوتار كانوا حرفيين ثوريين. قد لا تكون عملية فتل الأمعاء عملية شديدة الصعوبة. ولكن عليك في بداية الأمر الحصول على المواد الخام للتعامل معها. واعتاد صانعو الأوتار هذه الأيام شراء الأمعاء نظيفة ومعدة للاستخدام، أما في العهد الستيوارتي، فقد كان الحرفيون أنفسهم يقومون باستخلاص الأحشاء من الأغنام.

وحين تقول من الأغنام، فإننا نعني من الأغنام لا القطط، رغم أن أوتار الكمان كثيراً ما تسمى بأحشاء القطط، لكننا نعلم تماماً أن صانعي الأوتار لم يتدنوا إلى مرتبة قاتلي القطط. وتشير الموسوعة البريطانية إلى أن تعبير (catgut) جاء تحريفاً من الكلمة الايطالية للكمان وهي (kit)؛ ولهذا كانت الأوتار (kitgut) التي حرفت فيما بعد إلى (catgut). ولا عجب

أن العبارة قد بقيت مستخدمة للإشارة إلى أوتار الكمان، وبخاصة إذا ما سمعنا لحن عازف مبتدئ وهو يتخبط محاولاً إصدار لحنٍ جميل.

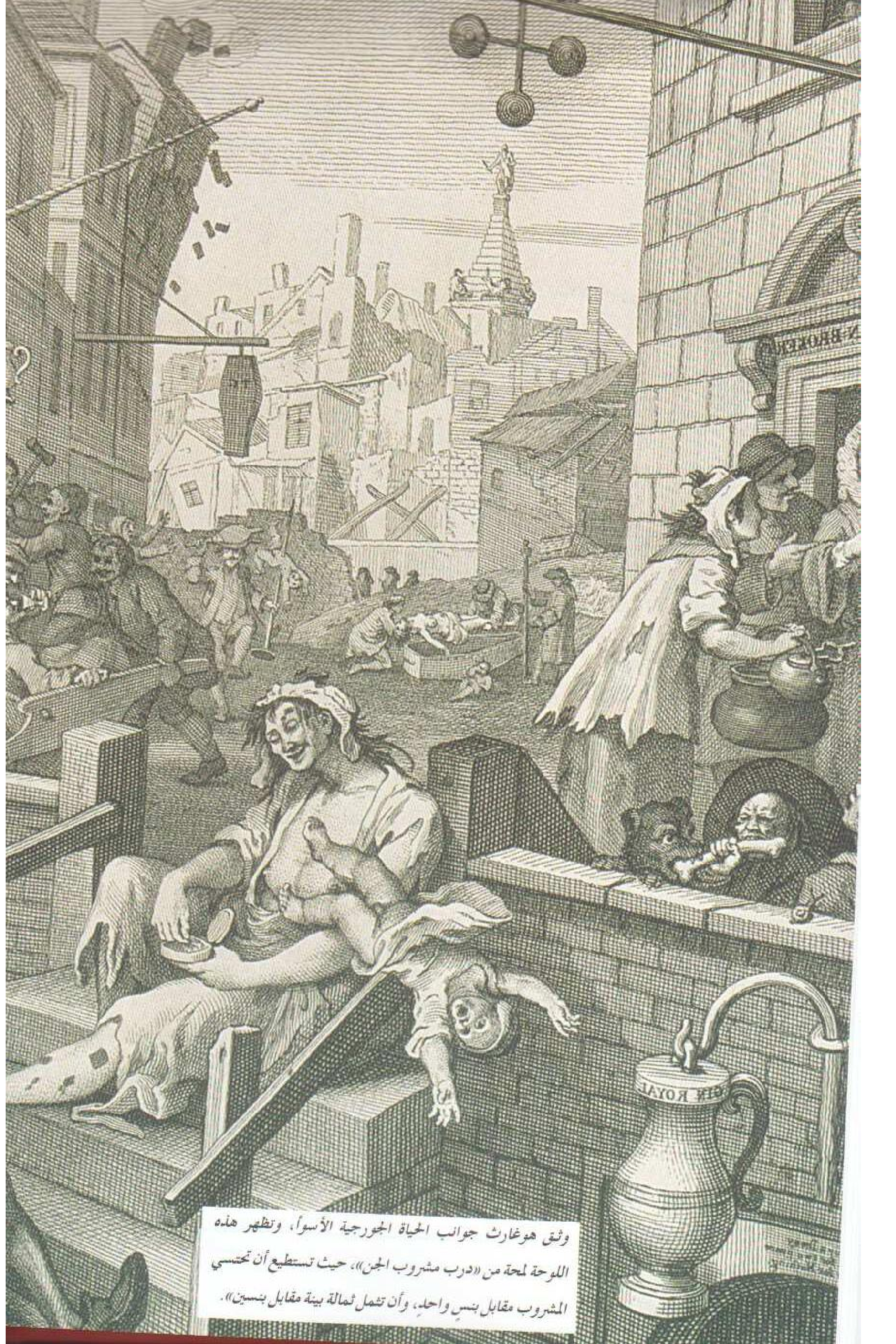
وتستخلص الأوتار من أمعاء الأغنام السفلى، التي قد يبلغ طولها (30) متراً، وقد يقطن صانعو الأوتار في كثير من الأحيان بالقرب من المسالخ، التي يتم ذبح الخراف فيها، ليتمكنوا من الحصول على موادهم الخام. ولقد عُدَّت عملية الحصول على الأمعاء دون أن تتعرض إلى أذى عمليةً دقيقةً ومقززة إلى أبعد حد؛ فعليك شق المعدة بلطف كي لا يصل نصل السكين إلى الأمعاء، فسكين مرتعشة قد تؤدي إلى ملء تجويف المعدة بأعشاب غير مهضومة تماماً، وتلف الأمعاء المناسبة لصنع الأوتار.

وعدّت عملية تفريغ الأمعاء مما اكتنزته سهلة، إذ عمل صانعو الأوتار بشكل عام ضمن مجموعات عائلية، ولهذا قد يكون نصيب ابن صانع الأوتار أو ابنته التمتع بتحضير الأمعاء. ويجب في بداية الأمر، إزالة جميع الأنسجة الدهنية عن الأمعاء– من عضلات وأوعية دموية– يدوياً. وتعد تلك عملية مقززة ومضنية، اختُص المساعد بها أيضاً، وكان عليه، من ثمّ، الضغط على الأمعاء الأنبوبية لإزالة ما بها من فضلات وتنظيفها بشكل كامل.

وتتم العملية بجعل الماء يجري من خلالها، بيد أن الماء وحده لا يكفي للحصول على نظافة تامة. ونستطيع أن نترك الأمعاء مغمورة في نهر، كما هي الحال مع عاطن الكتان، وهو أمر قد يستغرق وقتاً طويلاً.

والبديل الأفضل عن هذا وذاك، هو غمس الأمعاء في محلول يضم رماد الخشب والماء. وقد يستغرق الأمر هنا قرابة الأسبوع، مع تغيير المحلول بانتظام. ويجب أن تخضع هذه العملية لمراقبة تامة؛ ذلك لأن الأمعاء ستتعفن إذا ما تركت طويلاً إلى درجة لا يمكن معها إصلاحها. وبمجرد الانتهاء من تنظيفها بشكل كامل، تُرسل الأطراف الواسعة– وهي الأغلى ثمناً– لتستخدم غلافاً للسجق، أما الأطراف الرفيعة فتقطع إلى ضفائر يتم لفها فوق بعضها في درجات مختلفة من السماكة، ومن ثم تثبت الأوتار على خطافات صغيرة يتم إدارتها لشد الأوتار. وبعد ذلك تترك الأوتار ليجف كل واحدٍ منها على حدة.

وفي نهاية المطاف، فإن جل ما تحتاجه هو كمان، وقوس وجمهور ذواق.



وثق هوغارث جوانب الحياة الجورجية الأسوأ، وتظهر هذه اللوحة لمحة من «درب مشروب الجن»، حيث تستطيع أن تحتسي المشروب مقابل بنسٍ واحدٍ، وأن تثمل ثمالة بينة مقابل بنسين».

الفصل الخامس

أسوأ المهن في العصر الجورجي



قد يكون لدى جين أوستن وكولين فيرث إجابات وافية في هذا الشأن، فمجرد ذكر العصر الجورجي قد يثير لدى الكثير من الناس مشاهد طبيعية للكياسة المزدانة بالمتنزهات الريفية، وأخرى لفنون العمارة النيوكلاسيكية (الكلاسيكية الحديثة)، وربما امتلأت هذه المشاهد الرزينة بجمع من العزاب المرغوب فيهم، الباحثين عن زوجات، وهم يتناولون الشاي مع عذراوات جديرات بالاحترام، يرتدين فساتين تصوّر الموضة الإمبراطورية حينها، ويخفين مشاعرهن بكياسة.

غير أن الحقيقة بالطبع كانت مختلفةً تماماً، فخلف كل ظاهرة جورجية باهرة باطنٌ خفيٌّ مظلمٌ. فلقد قامت حياة الإقطاعيين الرائعة على ما يمكن اعتباره بئراً لا قاع له من البؤس الإنساني، وانجذبت أعدادٌ لا تحصى من قاطني الريف المدقعين إلى المدن الصناعية الجديدة، الباحثين عن عمل في المعامل والمصانع، وأصبحت الحياة بالنسبة إليهم أقرب إلى حالة الفوضى، كما وصفها هوغارث في «درب مشروب الجن» منها إلى الحياة في رواية جين أوستن «كبرياء وهوى».

حتى إن الشاي –أكثر المشروبات براءةً– كان له جانبٌ مشؤوم. وكانت القهوة والشوكولاتة هي المشروبات المفضلة في المقاهي منذ القرن السابع عشر، بيد أن مشروب الشاي الشرقي الغريب، أصبح هو المفضل في تلك الفترة، وعُدَّ الشاي نوعاً من الرفاه، ففرضت عليه ضرائب استيراد باهظة. وحيثما توجد رسوم استيرادٍ باهظة، ثمة فرص للتهريب. فقد تم تهريب ثلاثة أرباعٍ مذهلةٍ (يعادل إحداها ثمانية وعشرين رطلاً) من مشروب الشاي خلال القرن الثامن عشر إلى بريطانيا.

وكثتفت دائرة الرسوم الجمركية والضرائب من مساعيها الحثيثة للسيطرة على عمليات

التهريب. وقامت السفن بتمشيط المناطق البحرية المحاذية للساحل، الذي يمتد على طوله آخر خطٍ من خطوط الدفاع المالي، ويحوي أسوأ الوظائف في العهد الجورجي. حاول- وأنت تسمع قصة الضابط الراكب- ألا تكون متحيزاً ضده، ذلك أنه رائد خفر السواحل، والنموذج الأول لجامع الضرائب (The Vat Man).

الضابط الراكب (The Riding Officer):

كان الضابط الراكب مسؤولاً عن تمشيط الساحل بحثاً عن سفنٍ تحوم في المياه المحاذية، أو قوارب صغيرة تحمل مهربات. وأُسست دائرة الضباط الراكبين في الساحل الجنوبي عام 1690 في المنطقة المحاذية لرومني مارش. ومع حلول الفترة الجورجية، انتشر النظام في جميع أرجاء البلد. وأصبح هناك ضابط راكب في كل عشرة أميال على طول الساحل، وتم تقليص المساحة التي يغطيها الضابط الراكب في بعض المناطق التي ينتشر فيها التهريب كسَسيكس الشرقية، وحول خليج روبن هود في يورك شاير إلى أربعة أميال.

تلقى الضباط الراكبون أربعين جنيهاً إسترلينياً في العام، ولا يزيد هذا المبلغ عما يتلقاه العامل سوى القليل، وكان عليهم أن يتكفلوا بنفقات حصانهم من هذا المبلغ، بيد أن هذا الأمر لم يكن العقبة الوحيدة في مهنةٍ خطرةٍ وغير مريحةٍ، ويمكن عدّها انتحاراً اجتماعياً.





كانت ساعات العمل وظروفه سيئةً جداً، ذلك بأن المهربين يختارون أسوأ ليالي العام، وبخاصة عندما تؤمن لهم الغيوم المرافقة للعواصف غطاءً ليقوموا بعملياتهم. ولهذا كان على الضابط الراكب أن يمشّط المكان المخصص له ليلاً، وفي أقسى الظروف الجوية. ولم يكن التجول على امتداد الجروف البحرية، تحت رداءٍ صوفيٍ مخضلٍ بالمطر مثقلاً قبعته الثلاثية الإبعاد، بأكبر هموم الضابط الراكب،

وإنما تبدأ المشكلة عندما يلمح منظراً منذراً بعملٍ متعلق به.

والصورة النمطية للمهربين هي تلك التي يظهرون بها كصائدي أسماك مبتهجين ومعادين للمؤسسة، يجوبون البحار لكسب بضعة شلنات لتحسين دَخْلهم. وكان هؤلاء بحارة ذوي وجوه متجعدة، وبرفقتهم عشيقاتهم المتوردات الخدود، اللواتي يحاولن إخفاء زجاجات مشروب الجن تحت تنانيرهن. وهذه الصورة بعيدةٌ كل البعد عن الحقيقة، فالتهريب خلال القرن الثامن عشر كان جريمة منظمة، وقد يكون على الساحل خمسمئة شخص مدججين بالسلاح، يحاولون تفريغ كميات ضخمة من الشاي، أو الجن، أو البراندي.

ويقوم الضابط الراكب بأداء مهمته، وكل ما يحمله هو مسدسٌ وسيفٌ مقوسٌ؛ وكانا عديمي القيمة وحدهما، فنحن هنا كمن يرسل شرطياً على دراجة هوائية لإيقاف اتحادٍ كولومبي يتجر بالمخدرات. ورغم أنه يستطيع- نظرياً- الرجوع إلى الحامية المحلية للفرسان لطلب دعمٍ، غير أن كلمة «محلي» قد تعنى أنه يبعد أربعين ميلاً. وكانت الطرق ووسائل الاتصال سيئة للغاية بحيث تَعذر معها أي إجراءٍ فوري. وفي الحقيقة، كانت الطرق في يورك شاير- على سبيل المثال- سيئةً للغاية، حتى إن مجموع ما يتلقاه الضابط الراكب قد لا يمكنه من الوصول إلى مبتغاه. وقد أرسل أحد ضباط الجمارك في وايتباي في يناير من العام 1722 رسالة محزنة إلى مركز القيادة يقول فيها: «أرجو منك إن تلقيت مالاً أن تخبرني لأرسل لك من يستلمه، فضباطي بحاجة ماسة إلى المال، فهم لم يتلقوا أي راتب منذ منتصف الصيف».

وإذا ما أراد الضابط الفارس أن يستعرض عضلاته ويجابه جموع المهربين، فهو الخاسر لا محالة. وخير مثالٍ على هذا توماس كارسويل، الذي سقط مقتولاً بالرصاص عام 1740 بعد محاولته اعتقال أعضاء عصابة هوكسيرست العنيفة، التي كانت نشطة على حدود سَسيكس الشرقية وكنت. وفي السنة اللاحقة، تم احتجاز ضابطين في ليد (Lydd) على أيدي مهربين كان يفترض أنهما يطاردانهم، وتم ربط أيديهما وإرسالهما إلى بولون، ومن ثم تم إرجاعهما، وإركابهما على فرسيهما، اللذين استخدمهما المهربون، خلال احتجاز الضابطين، في نقل بضاعتهم.

تقرير مرفوع إلى لجنة برلمانية حول التهريب عام 1745

صدف قبل تسع سنوات أن قامت مجموعة غوغائية بالتقدم إلى ممرٍ مائي، وخطفت ضابطاً في دائرة الجمارك يدعى ماي من منزله، ثم قطع أفرادها لسانه وأذنيه، وشوهدت واحدةً منهما مثبتةً بمساميرٍ على سوق صرف النقود في كورك. ومن ثم قاموا بلف حبل حول عنقه، وجرّوه مخترقين جميع بيوت الكلاب، وقاموا أيضاً بتوجيه عدة لكمات في مواقع مختلفةٍ من جسمه قبل أن يرموه في النهر، حيث لقي حتفه. وأعلن عن جوائز كبيرة للكشف عن المتهمين، لكن دون فائدة.

كان الضابط الراكب منبوذاً اجتماعياً على الدوام؛ فحيثما توجه، وجد حاجزاً من الكراهية والصمت الرهيب أمامه.

وقد يكون جميع من يقطن بعض الأماكن كراي وخليج روبن هود يعمل بالتهريب؛ فهو اقتصاد المنطقة. وعلى سبيل المثال، شهد خليج روبن هود واحداً من أعلى الدخْل الفردي في البلاد، ولهذا لم يكن ثمة شخص يرغب بوقف هذا النعيم.

ونتيجة هذا، أصبح من المستحيل تقديم المتهمين إلى محكمة محلية، لأنّ هيئة المحلفين متعاطفة مع المهربين، أو لأن المحلفين أنفسهم متورطون بأعمال التهريب، وقد يكون قضاة الصلح المحليون مرتشين، ويتلقون مبالغ مالية من المجرمين. يتلقى الضباط الراكبون– نظرياً– عشرين جنيهاً إسترلينياً لقاء إدانة أي مهرب. ومهما كانت درجة المحتجز، فقد توجب على الضابط الراكب دفع تكلفة الادعاء. ومع انخفاض فرص الإدانة، لم تكن محاولة الإمساك بالمهربين وتقديمهم للعدالة تستحق عناءها.

ومما سبق، يمكن القول: إن الضابط الراكب كان مبتلاً، ومرتجفاً من البرد، وخاسراً في ميزان السلاح، وذا دخلٍ ضئيلٍ، وعديم النفع. ولقد أشار السير ويليم مسغراف مفوض الجمارك في تقريره السنوي العام 1783، أن الضباط الراكبين كانوا «قليلي النفع، ويشكلون عبئاً كبيراً على الدخل الحكومي».

وليس مستغرباً العلم أن ممارسة الأعراف البوليسية المباشرة مع المهربين لم تكن– مع توفر فرص الفساد، وترامي المساحة المطلوبة من الضباط تغطيتها– ذات نفعٍ كبيرٍ. وتطلب إيجاد فجوة في هذا الدخل غير القانوني، تخفيض ضرائب الدخل. ومن ثم اختفى التهريب بعيد إلغاء ضرائب الواردات (أو تلك المفروضة على الشاي). وشكلت عام 1822 قوات خفر السواحل التي حلت محل الضباط الراكبين.

وتبنى العديد من الضباط الراكبين، نظراً للعداوة الشديدة التي كانوا يلقونها تسوية مفادها «إن لم تستطع أن تغلبهم، فانضمَّ إليهم». فغض النظر عن بعض الأفعال. قد يؤمن لهم بعض المال الذي قد يكون ذا فائدة تفوق الملاحقات القضائية عديمة الجدوى، وقد لا يتسم الضابط الراكب، الذي يعد موضوع هذه الشهادة البرلمانية، بالحماس الزائد للمحافظة على جزيرة مان خالية من التهريب.

شهادة السيد دانييل جيل

الضابط الراكب في مينا ء رامسي، في جزيرة مان تم تسجيلها في دوغلاس في الثاني عشر من أكتوبر عام 1791.

تقول هذه الشهادة إن الضابط الراكب في ميناء رامسي، يقوم بهذا العمل منذ 1773. وعين وفقاً لدستور الخزينة الذي سنَّ ذلك العام، وتم ترحيله من مفوضية الجمارك. وقام بأداء اليمين، وأعطى مقابله التزاماً وتعهداً بالحماية، وتلقى عند ترحيله تعليمات مطبوعة تحكم سلوكه. وتلقى لقاء عمله أربعين جنيها إسترلينيا، ولم يكن يتلقى رسوماً أو إكرامياتٍ، وكان لديه حصان على الدوام.

وتمتد المساحة التي عليه أن يراقبها من رامسي إلى لاكسي وهي تسعة أميال؛ ومن رامسي إلى كيرك مايكل التي تبعد ثمانية أميال. وفي العادة يقوم

بجولات نهارية بين هذه المواقع قد تبلغ ست مرات أو سبعاً في الشهر، ليرى فيما إذا كانت هناك بضائع مستوردة أو مصدرة وفقاً للقانون، أو أخرى مهربة.

ويحاول الحصول على معلومات حول أية ممارسات غير قانونية، وقد يقوم بمصادرة البضائع عندما يجد لذلك سبيلاً. وكما يظهر في يومياته، لم يقم بأية عملية مصادرة منذ الأول من يناير عام 1789، ولا يستطيع أن يتذكر آخر مرة قام بها بمصادرة بضائع غير شرعية. كما أنه لا يتذكر قيامه بتمرير أية معلومات لقادة البحرية أو دوريات الضرائب حول وجود مراكب تحوم حول الشاطئ أو راسية على الشاطئ، أو أية معلومات أخرى ذات علاقة بإجراءات غير قانونية، ولم يقم منذ الأول من يناير عام 1789، أن زود ضباط الضرائب في جزيرة مان بمعلومات من هذا القبيل، ولا يستطيع ،حالياً، أن يتذكر أي حادثة كان قد مرر فيها معلومات كهذه.

ويعد البراندي والجن، كما يعتقد، المواد الرئيسة في عمليات التهريب التي تحدث.

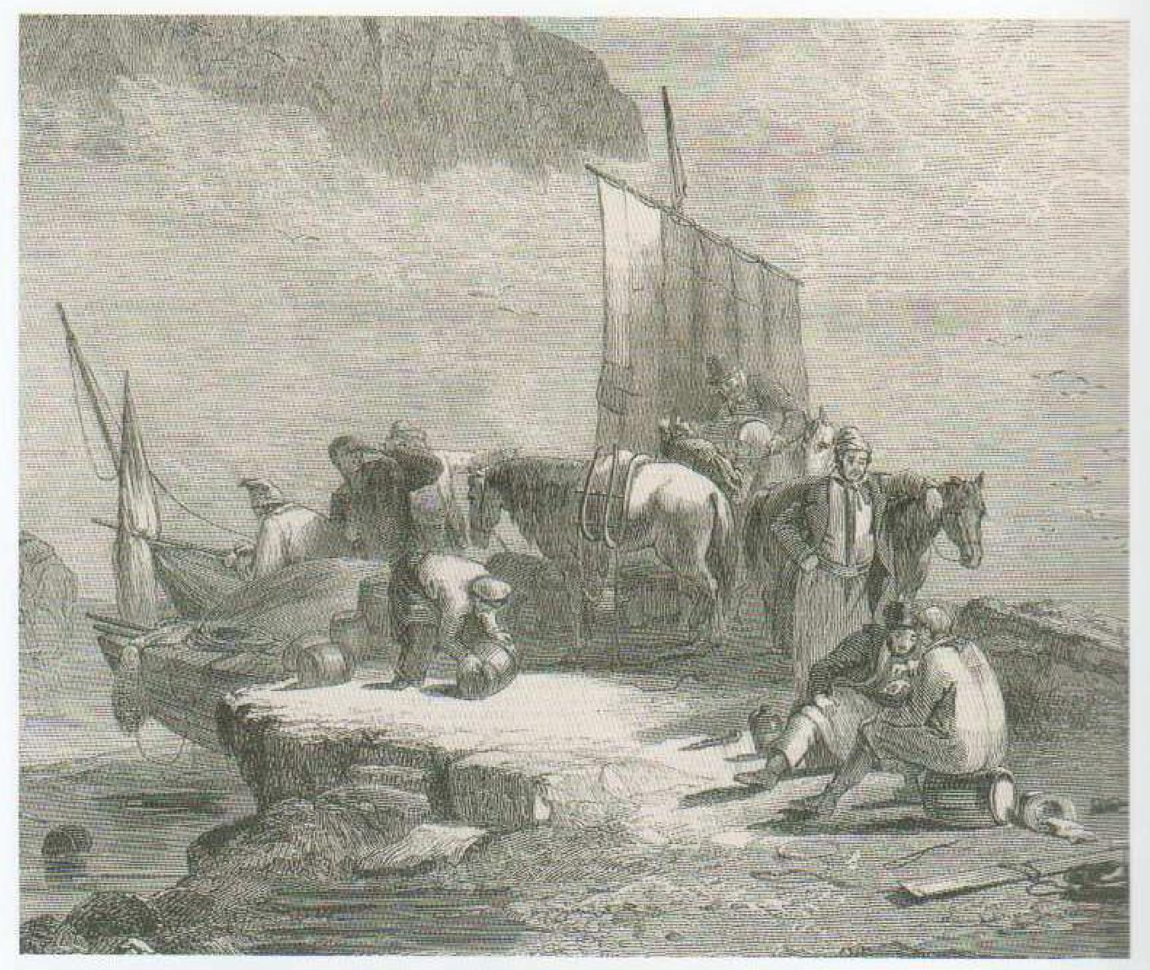
دانييل جيل

مرشد باث (Bath Guide):

من الممكن أن يكون الضابط الراكب قد ابتلَّ بالماء حتى الصميم، وهو يسعى إلى الإمساك بالمجرمين، بيد أن عمله لم يكن الأكثر بللاً في بريطانيا الجورجية، وإنما ذهب ذلك الشرف الرفيع إلى مرشدي مدينة باث.

وكان هؤلاء خليطاً غريباً من منقذي الحياة، ومقدمي الرعاية الطبية في مستشفى خاص بالعناية بالأمراض الجلدية المقززة، غير أن هؤلاء كانوا أسنان الدولاب الرئيسة الذي لا يدور إلا بها، وقاموا على إحياء إحدى أهم المظاهر الاجتماعية والترفيهية في بريطانيا الجورجية: منتجع باث للمياه المعدنية.

ويتدفق يومياً، من تجاويف الأرض أسفل باث، ما يقارب مليون لتر من الماء، الذي



لا يمتلك هؤلاء المهربون الريفيون الروح القاسية التي كان أفراد عصابة هوكهيرست يتحلون بها. لكنهم لا يكترثون لوجود الضابط الراكب إذا غطاهم الضباب الكثيف.

تبلغ حرارته ستاً وأربعين درجة مئوية. وكانت الينابيع مكاناً مقدساً للبريطانيين القدماء قبل أن يصل الرومان إلى المنطقة بفترة طويلة، وقيامهم بتكريس المنطقة للإله سوليس منيرفا (Sulis Minerva).

ولقد بقيت هذه الينابيع قيد الاستخدام لخصائصها المسكنة والعلاجية خلال الفترات الوسطى والتيودورية، ولم تتحول هذه الينابيع إلى ثروات حقيقية إلا تحت رعاية الملكة آن، التي كانت تتردد عليها بكثرة، وبدأت ولعاً امتد إلى غيرها من الناس بنهل كميات من الماء منها. وعلى الرغم من أن عدد سكان باث، عام 1698، قد بلغ ألفا ومئتي شخص فقط، فإنها أصبحت خلال العهد الجورجي واحدة من منتجعات إنجلترا الرئيسة، وصارت تعج

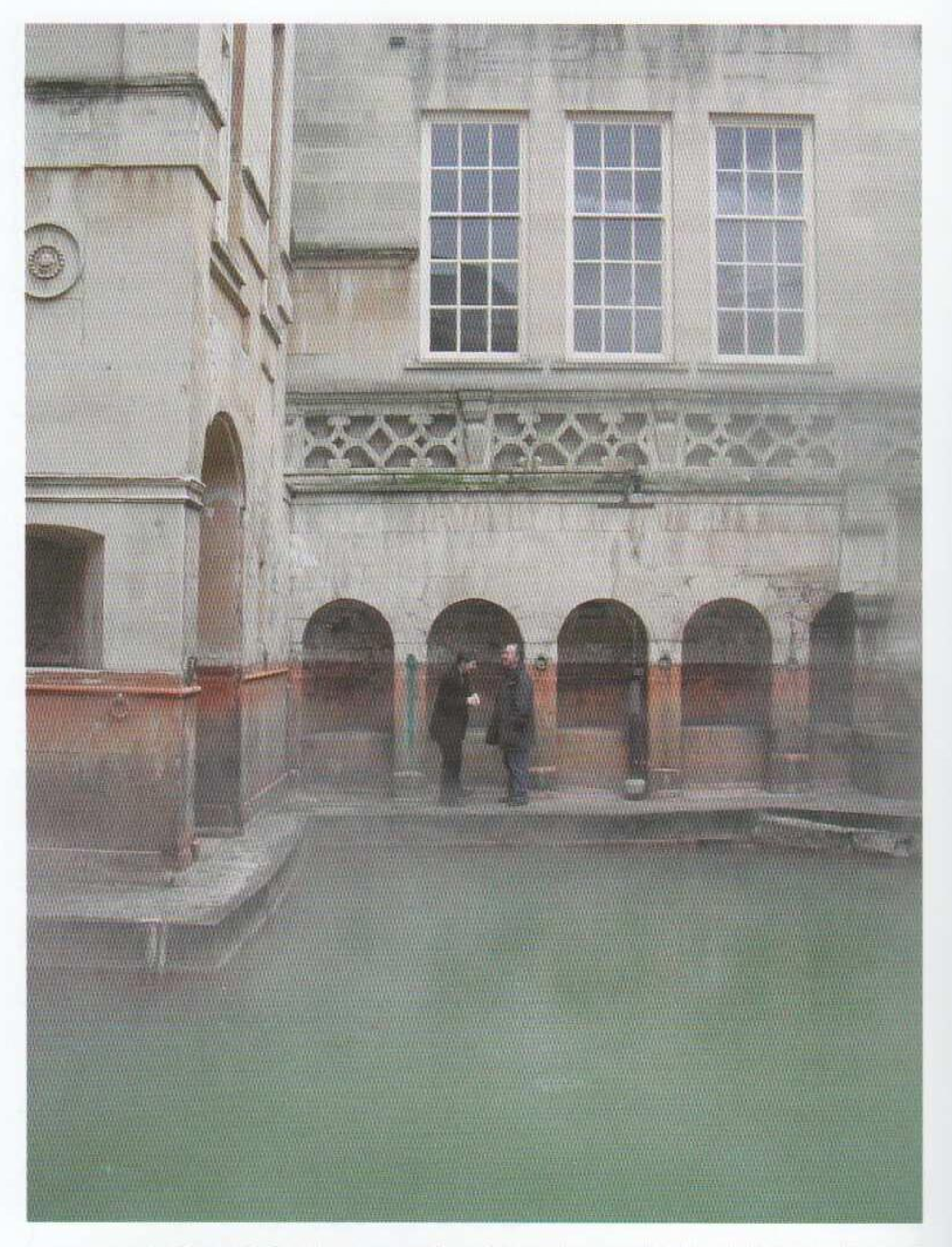
بالأعمال الطائشة والمسلية. وزاد عدد سكان المدينة مع انتهاء القرن، على أربعة وثلاثين ألف شخص. وقام بعض المعماريين كجون وود، وجون بالمر بالإشراف على بناء مدينة بالادين الجميلة، التي مازالت قائمةً دون أن يمسها أي ضرر. ولقد حوّلت أماكن كميدان الملكة، والسيرك، ومبنى البلدية ومبنى لانسداون كريسنت، والمبنى الملكي، مدينة باث إلى المدينة الأنموذج لمدن القرن الثامن عشر.

وعُدّت الرحلة إلى باث بالنسبة للجورجيين كرحلات التزلج إلى كشتات (Gstaodlt) هذه الأيام. فهي المكان الملائم للأذكياء كي يقضوا إجازة بين أقرانهم؛ فإلى جانب كونها مكاناً مفيداً للصحة، أصبحت باث المكان الأمثل للعلاقات الاجتماعية وتبادل الحديث، بل هي المكان المناسب لبث مكنونات النفس. ولقد عرضت منشورة تدعى «مفاتن باث» وتعود إلى عام 1798 مشاهد لا يمكن عدّها غريبةً في برنامج «اكتشاف إيبيزا».

وتلقى على عاتق مرشدي باث السياحيين مهمة تسيير الأمور هناك، فهؤلاء كانوا مسؤولين عن مساعدة الناس منذ نزولهم من كراسيهم المحمولة حتى نزولهم في مياه حمام الملك.

وكان هذا العمل مصدراً للبلل. وكان المرشدون يرتدون أرواباً كتانيةً تبتل في بداية كل مناوبة، وتبقى هكذا إلى حين عودتهم إلى البيت. ويقضي المرشدون ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة والأرواب الكتانية تحتك بأجسامهم كلما انتقلوا بين المياه لخدمة زبائنهم، ولم يتعاطف الشاعر كوبر مع مصابهم المخضل بالماء، فقد كتب في رسالة إلى أخيه «إن أسوأ منظر - حسب ما أعتقد - يمكن رؤيته هناك هو منظر المرشدين في باث؛ فقد كانوا مبللين ومعرضين كذلك لحرارة لا تطاق».

وكان للماء دورٌ دائمٌ في جعل حياتهم أكثر بؤساً، كما لو أن كل جانب آخر كان مقبولاً ومحتملاً. ويأتي دور الماء حاسماً في تغيير لون جلودهم بشكل نهائي، وذلك لأن المياه الساخنة التي كانت تنتج الفقاعات في الينابيع غنية بالحديد. ولهذا دور في تحويل ألوان الجدران إلى اللون البرتقالي على مر السنين. كما صبغت المياه المرشدين بشكل جعلهم كمن قام بتسمير بشرته مقابل مالٍ زهيد. ومازال حمام الملك هذه الأيام يحتفظ بأثر صبغة الحديد في الماء. ويظهر مستوى الماء في العصر الجورجي بعلامة المد التي قد تصل إلى منتصف الجدران. وقد



تظهر صورة حمام الملك آرثر السخام الناتج عن وجود الحديد في الماء. ويظهر مستوى الماء خلال الفترة الجورجية بمؤشر ارتفاع منسوب الماء إلى منتصف الجدران. تخيل نفسك وقد تغير لونك وغدا بلون الحديد، كم سيغبطك دافيد ديكينسون على هذا!

وصف كاتب يدعى نيد وارد «مجموعةً أو اثنتين من المرشدين الذين قد تظنهم- بجثثهم المصابة بمرض الإسقربوط، وجلودهم المصبوغة- قد انقضى عليهم سنة ضوئية وهم يختمرون في بحيرة جهنمية». كل هذا، وهم قد بلغوا من العمر مرحلة يتم فيها مدح الجلد الأبيض النقي كمثال للجمال.

كما كان عليهم تحمل مزحات الزبائن الثقيلة. وكان معظم مستخدمي الحمامات يتمتعون باللياقة الجسدية وحسن السلوك، وكان على المرشدين- كما هي الحال في برك السباحة العامة هذه الأيام- الحرص على حسن تطبيق التعليمات، كعدم القفز المباشر في الماء، وعدم اصطحاب الحيوانات.

حول سيدة ذاهبة إلى باث

عندما كشفت سيلفيا عن مفاتنها في الحمام،
كانت المأدبة العظيمة تتراقص أمام أنفها،
وكاد قلبي ينفطر مبتعداً عن روحي
ويقفز من ضلوعي في الإناء
وكنت كل يوم أدفع
رشوة لمرشدتها السياحية
وأعطيها كروناً (ما يعادل خمسة شلنات)
لتحضر لي الماء الذي جلست فيه
وَدَع الأطباء المجانين يعتقدون أن مياه التصريف علاج
قد تكون هذه الفكرة مشكوكاً فيها، بيد أنها مع سلفيا مؤكدة
والموسيقيون الذين استأجرتهم لعزف مقطوعات رفيعة
وتتسابق دقات قلبي مع الوقت في انتظارها
يبتهجون عند دخولها ويحزنون عند مغادرتها
فالكل يعرف تمام المعرفة لمن توجه هذه الموسيقى.
أتمنى لو كنت إحدى الهوام
أو كنت أحد حاملي كرسيها المتنقل

أو أن أخدمها كأحد المرشدين
رغم أن جلودهم سمراء شنيعة
أو أن أكون كحصاة ملقاة في القعر
همها تمجيد جمالها، وكم سأكون سعيداً حينها.

توماس ديرفي، أقراص تطهير الحزن، 1719

وتظهر لنا قصيدة (ديرفي) المتينة، والغنية بالطباق، أن الحمام المختلط كان ممتعاً كالعبث على الساحل هذه الأيام (تم اختيار هذه القصيدة وغيرها من الاقتباسات حول هذه الوظيفة من كتاب بول كريسويل «باث في اقتباساتها- منظور أدبي منذ العصر السكسوني وما تلاه»).

كان مرشدو باث معيّنين من قبل السلطات المحلية، لكنهم كانوا يعتمدون كثيراً على البقشيش، وبلغت أجرة «الاستحمام العام» عام 1784 ثلاثة شلنات، ذهب نصفها إلى الزي والمنشفة، وشلن واحد للمرشد، وستة بنسات للأغراض الأخرى.

وقد يكون أسوأ جانب في العمل هو التعامل مع مصائب العمر المريعة. فالزبائن الذين كانوا بحاجة إلى عناية فائقة هم أولئك الذين قدموا للتخفيف من حدة أمراضهم أو جراحهم المتقرحة. وساد اعتقاد لدى الناس، بأن هذه المياه قادرة على شفاء مرض سل الغدد اللمفاوية، ومشاكل الجلد، وجميع حالات التلف الناتجة عن الأمراض الجنسية المعدية.

ويصف نيد وارد في الاقتباس التالي: «زانٍ كبيرٍ في السن معلقٍ بحلقات، وقد امتلأ برطوبة عفنة، وإلى جانبه سيدة عامرة الصدر، وأخرى مغطاة حتى نصفها بقماش مغموس بالشمع، وكان لديها من التقرحات ما يفوق تلك التي كانت لدى لعازر، تحاول أن تتوب عن خطايا اقترفتها في شبابها».

ولا يُسمَح للمرشدين بعد قضاء يومهم بأكمله في هذا الخليط المشبع ببخار الجلد الميت، والجرب، والبول، ومساحيق التجميل، والأدوية، بالذهاب إلى البيت بعد مغادرة آخر مستحمٍ المكان، بل كان عليهم البقاء لتنظيف البركة مما حل بها من نفايات.

مخاوف الاستحمام

انتهيت من الاستحمام؛ ولهذا يمكن القول إن نصيحتك قد جاءت متأخرة جداً. ذهبت إلى حمام الملك قبل يومين، وفقاً لنصيحة صديق لي يدعى «ك»، وذلك لتنظيف الجلد وجعله يتنفس بسهولة. وكان أول منظر شاهدته لطفل مليء بتقرحات سل الغدد اللمفاوية يحمله أحد المرشدين أمام المستحمين تماماً. صدمت عند رؤيتي هذا المشهد، فاندفعت إلى الخلف ممتلئاً بالحنق والتقزز. افترض أن المواد المسببة لهذه التقرحات علقت بالماء ولامست جلدي، وقد انفرجت المسامات عما تضمه. وحينها سأسألك من أين ستكون العافية؟ يا الله، إن الفكرة نفسها تجعل دمي يتجمد في عروقي.

ولكنني الآن أخشى الحمام بمقدار ما أخشى شرب الماء، فبعد حديثٍ مطول مع الطبيب حول بناء المضخة والخزان، أدركت أنها أبعد ما تكون عن النظافة، وأن المرضى في غرفة المضخة لا بد أن يبتلعوا أوساخ المستحمين. لا أستطيع أن أتخلى عن شكوكي بأن هناك بعض القيء، وما شابهه من الأوساخ التي انتقلت من الحمام إلى الخزان. وإن كانت الحالة هي تلك، فيا له من مشروب ظريف، ذلك الذي يتجرعه الشاربون وقد تمت تحليته بالعرق والوسخ والقشرة، وغيرها من الإفرازات المقززة، بمختلف صنوفها من الأجسام المعتلة الأربعة والعشرين التي تسلق في الغلاية في الأسفل.

توبوا سموليت، بعثة هنري كلينكر، 177.

ولكن رغم أن مرشدي باث قد شغلوا أكثر الأعمال مجلبة للبلل في بريطانيا الجورجية، فإن وظائفهم كانت دائمة، فهؤلاء كانوا عمالاً محترفين، ومتخصصين فيما يقومون به، ويستطيعون أن يفتخروا بذلك، فلم يكن هناك من حرج من المحافظة على استمرار صناعة الراحة هذه، بيد أننا لا يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن الوظيفة التي صنعت سمعة بريطانيا الفنية.

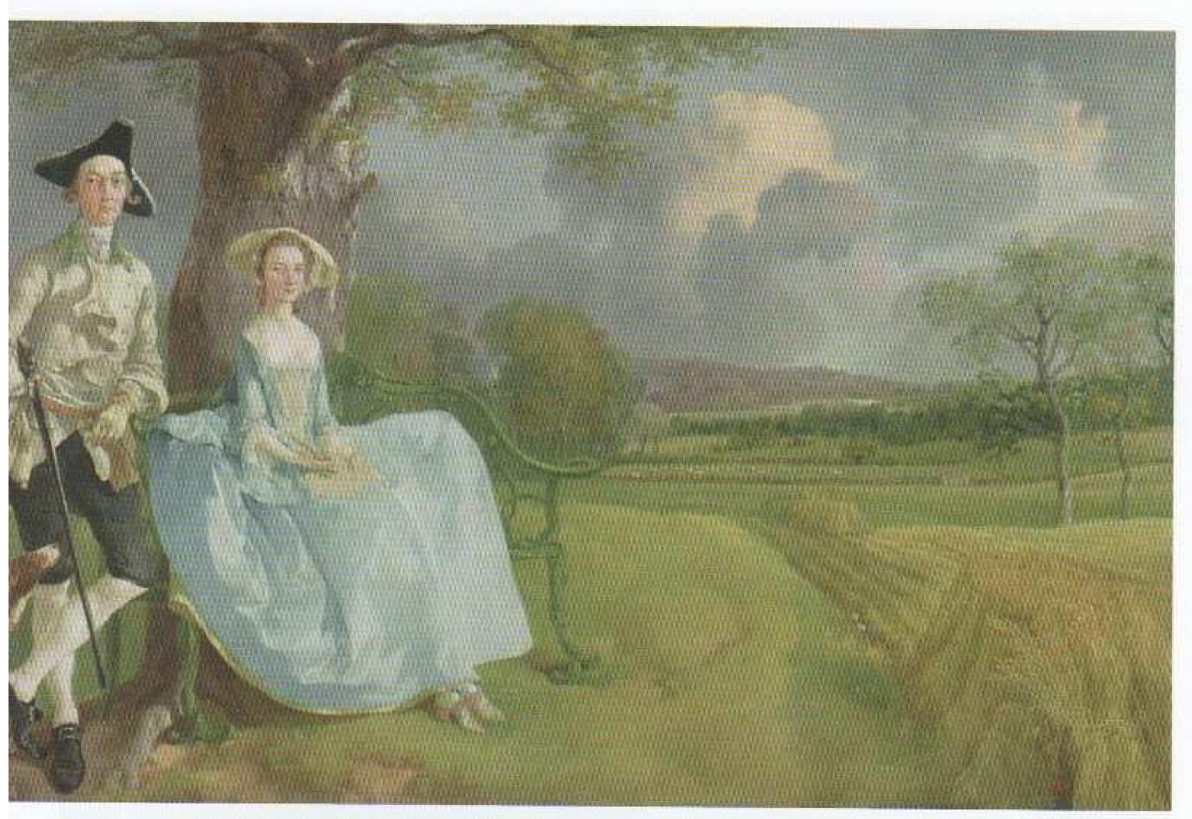
عارض الفنان (Artist's Model):

شكلت الفترة الجيورجية العصر الذهبي لفن الرسم البريطاني، فهي الفترة التي تم خلالها- ولأول مرة- إنتاج مواهب فنية محلية يمكننا مقارنة أصحابها بالفنانين في القارة. فأسماء كجوشوا ورنولد، وجانزبورو، وهوغارث، ورامسي، وبلاك، وتيرنر، وكونستابل؛ كانت جميعها نتاج القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

ولكن، قبل إطلاق العنان لهؤلاء الفنانين لتصوير العالم، كانوا يخضعون للتدريب، ولقد نظر الجميع إلى الفن الإغريقي الكلاسيكي القديم كأسمى أشكال التعبير الفني، ولهذا تلقى الفنانون دروساً في محاولة الإمساك بزمام غموضهم عبر فنون الرسم والتصوير الزيتي. وتطلب هذا العمل ساعاتٍ طويلةٍ وصعبةٍ من التركيز عليه، بيد أن هذا العمل تطلب أيضاً شكلاً بشرياً يتم



يظهر في هذه الصورة جورج وايت، أحد الماهنين من مشفى الحمى وذو اللحية المميزة. انتهى المطاف ببعض أفراد الطبقة الدنيا بتخليدهم في صور الفن الرفيع.



إحدى روائع الفن الجيورجي: اللوحة التي رسمها توماس غانسبورو للسيد والسيدة أندروز. تصور اللوحة ببراعة تامة تجمع بعض الغيوم المرتبطة بالعواصف، مما يعكس الزواج بين شخصين غير منسجمين. مقت غانسبورو الوضع الاقتصادي المر الذي دفعه إلى رسم اللوحات الشخصية، وهو الذي كان يرغب في رسم المناظر الطبيعية كما فعل كلود وبوسين، أو رسم المواضيع الكلاسيكية المثالية الراقية المستندة إلى عارضي الفنانين. ولم يتمكن غانسبورو من تجاهل الجالسين الذين يفتقدون الجاذبية وحسب، وإنما تمكن من التسلل على منظر طبيعي مليء بأشعة الشمس في الخلفية.

التركيز عليه. ومن هنا نشأت وظيفة الموديل أو عارض الفنان الباردة والمنهكة للأعصاب.

وقد يبدو هذا العمل سهلاً، فجل ما هو مطلوب منك ألاّ تفكر، أو تقوم بعمل مضنٍ، أو تأتي بأقلّ حركة. ولكن علينا أن نفكر بمتطلبات ذلك العمل، فالقيام به لا يعني على الإطلاق أن تخلع ملابسك، وتجلس على كرسي وحسب، وإنما كان يتوجب عليك أن تتخذ وضعاً كلاسيكياً مناسباً، وأن تثبت عليه لفترة. ولمساعدة العارضين على الثبات على وضعٍ محدد، يتم تقييدهم بحبال تتدلى من السقف لربط أيديهم- وفي بعض الأحيان أقدامهم- في الوضعية البطولية المطلوبة، التي يرغب الصف في رسمها. وقد يكون بقاؤك مقيداً على هذه الشاكلة لبضع دقائق محتملاً، ولكن أن تبقى مقيداً ساعة تلو أخرى، وأن يطال الخدر أعضاءك وأصابعك، وأن تصرخ خلالها العضلات طلباً للراحة، فهو أمر مؤلم بحق. وقد يشعر ذلك

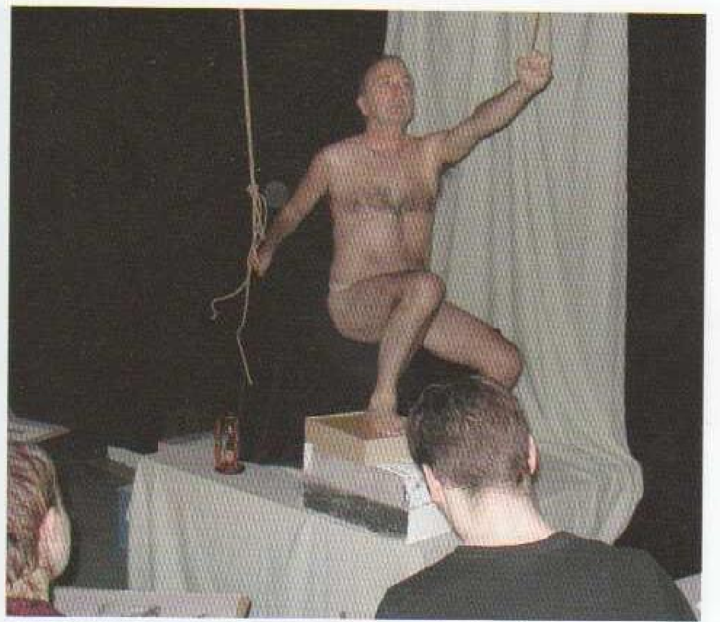
الوضع بالبرد الشديد أيضاً. إن ردة فعل الإنسان الطبيعية للبرد هي ضم الذراعين قريباً من الصدر، ولم تكن هذه متاحة لك بوصفك عارضاً للفنان عندما تتخذ وضعية رامي القرص. وينطبق الكلام كذلك على حاجات الإنسان الطبيعية....

وقد يكون دافع هؤلاء للقيام بهذا العمل ظروفهم البائسة؛ فمعظم المرشحين لملء هذا العمل يتم إيجادهم في أماكن غامضة، ومنهم جورج وايت؛ العارض المشهور العجوز، الذي اكتشفه رينولدز في مستشفى الحمى. وكان هذا العجوز يتمتع ببنية جسمانية عضلية فريدة، نتيجة عمله اليومي في مد ألواح الرصف، ولحيةٍ كثةٍ غزيرةٍ، مما جعله مناسباً لتصوير البطريركات والقديسين. وانضم إلى قائمةِ العاملينَ في هذه الوظيفة، أفراد القوات المسلحة والملاكمون بيدين عاريتين، وكان لهم تقديرٌ واحترامٌ بين الرسامين، لأن أجسادهم الممتلئة بالعضلات كانت تلائم المثال الكلاسيكي الذي يفضلونه. وقد مدح الفنان بنجامين روبرت هايدون عارضهُ الجندي هادجسين بقوله: «إنه ملائمٌ تماماً لدور أخيل».

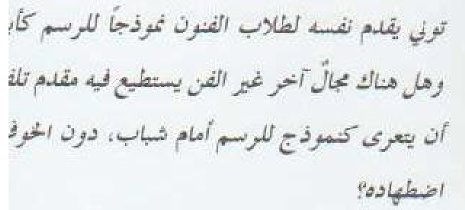
وإذا كان اختيار حثالة القوم من مستشفيات الحمى، ومقاتلي الشوارع للقيام بأفضل تمثيل للأبطال الإغريق، مستغرباً، فعليك إذاً تلمّسَ الثغرةِ الواسعةِ بين المعبودات اليونانيات والنساء اللواتي قادتهن ملامحهن الطبيعية للوحاتٍ لاتنسى.

عُدَّ القيام بدور عارضةٍ لفنانٍ عملاً مخزياً جداً، فقيام المرأة باتخاذ وضعيةٍ قد يطلبها الفنان منها وهي عاريةٌ تماماً أمام جمهور ذكوري خالص عُدَّ كالظهور في فيلم إباحي هذه الأيام، وبهذا العمل لم تكن المرأة تقوم بفعلٍ مقززٍ فحسب، وإنما يتم توثيق قيامها بهذا العمل. وليس من المستغرب إذاً أن نعلم أن معظم العارضات كن عاهرات، وهؤلاء أيضاً وجدن العمل بغيضاً. ويذكر جيمس نوركوت في مذكراته عام 1830 أنه دعا إحدى عارضات رينولد «بالمومس المهانة»، ومضى بقوله إن العارضات «ينظرن إلى هذا العمل كعار أضيف إلى ما منحتهن وظيفتهن الأصيلة من عار، وأنه عملٌ غير طبيعي حتى لو كانت الواحدة منهنَّ ترتدي قناعاً».

ومما لاشك فيه أن معظم الطلاب الجادين المنكبين على عملهم قد لايرون في عارضيهم سوى ترتيبٍ مثيرٍ من الأضلاع والعضلات، بيد أننا لا نستطيع أن ننكر توافر السمعة الرديئة عن بعض الصفوف التي تحضرها العارضات. فقد سجلت العديد من الحوادث التي تم خلالها تسلل أشخاصٍ غير مرخصين لمشاهدة العارضات، وكان من هؤلاء طلاب غير بالغين؛ حتى







توني يقدم نفسه لطلاب الفنون نموذجاً للرسم كأ
وهل هناك مجالٌ آخر غير الفن يستطيع فيه مقدم تلف
أن يتعرى كنموذج للرسم أمام شباب، دون الخوف
اضطهاده؟

إن أمير ويلز كان يدفع رسماً لدخول بعض الصفوف الحقيقية في الأكاديمية الملكية، عندما يشعر برغبة في مشاهدة امرأةٍ عارية.

وتجلى عار هؤلاء النسوةِ في معدل ما يتقاضين من أجور. فالعارض في الأكاديمية الملكية يتقاضى خمسة شلنات أسبوعياً، وشلناً واحداً مقابل كل عرض يقدمه، بينما تتلقى النسوة نصف جنيه لكل عرض (وهذا التفاوت في الأجر يماثل التفاوت في الأجر الموجود في صناعة الأفلام الإباحية، إذ يتلقى الرجال أجراً يفوق أجر النساء).

ومما يشفى صدور هؤلاء العارضين أن ساعات العمل في الأكاديميات الكبرى كالأكاديمية الملكية منظمةٌ ومحددةٌ؛ فالصفوف تبدأ عند الساعة السادسة مساءً في الشتاء وعند الساعة الرابعة في الصيف، وتستغرق كل جلسة عرضٍ ساعتين. ولا ينتهي دور العارضين عند بلوغ الطلاب المران المطلوب، بل قد يطلب منهم أداء مهمات خاصة يطلبها الفنان، وتتطلب هذه المهمات جهداً أكبر، ففي سعي فنان للحصول على دراسة منفردة ، قد يطلب ذلك الفنان من العارض أن يثبت في وضعية محددة لفترة أطول– قد تكون بضع ساعات.

وقد سجلت حالاتٌ عديدةٌ من الإساءاتِ المتعمدةِ والعرضية، كان منها حالة العارض الأسود ويلسون، الذي كاد يلقى حتفه عندما قرر هادن أن يصنع له قالباً جبسياً دون أن يترك

له منفذاً يتنفس من خلاله. وحصل النحات نولكينز على أكثر مما أتفق عليه، عندما وظف عاهرة من ماخور تديره سيدة قاسية تدعى السيدة لوب. وكان قد استخدم إحدى العاملات لديها تدعى بيت بولمانو لاتخاذ وضعية خاصة لينحتها. قامت السيدة لوب بمجرد وقوفها على عتبة بيته، بتوبيخه لاجباره الفتاة على اتخاذ وضعية خاصة مدة ثماني ساعات دون طعام أو شراب مقابل شلنين فقط. وتحت وطأة هجوم المرأة اللاذع، دفع نولكينز خمسة شلنات إضافية.

لم يكن الفنانون هم الوحيدين المهتمين بالنظر إلى الأجساد فقد شهدت نهاية القرن الثامن عشر إنجازات علمية غير مسبوقة على جميع الصُعُد. وأصبح الفحص الدقيق والتجارب نمط حياة يومياً. فإذا ما أردنا للعلوم للطبية أن تتقدم، علينا دراسة جسم الإنسان من الداخل والخارج. وكان هذا يعنى وجود شخص يقوم بمد هؤلاء الدارسين بمعين لا ينضب من الجثث.

رجل البعث/ نابش القبور (The Resurrection Man):

«أبي»، قال جيري الصغير، بينما كانوا يمضون قدماً حريصين على ألا تزداد المسافة بينهم عن الذراع، وعلى اتزان الكرسي بينهم، «ما المقصود برجل البعث؟»

توقف السيد كرنشر على الرصيف قبل أن يجيب بقوله: «كيف لي أن أعرف؟»

«كنت أظن أنك تعرف كل شيء، يا أبي،» قال الولد الجاهل.

«حسنا» قال السيد كرنشر، معاوداً المحاولة، دافعاً قبعته إلى الخلف، ليطلق العنان لأفكاره، «رجل البعث تاجر».

«بم يتاجر، يا أبي؟» سأل جيري الصغير المفعم بالحيوية.

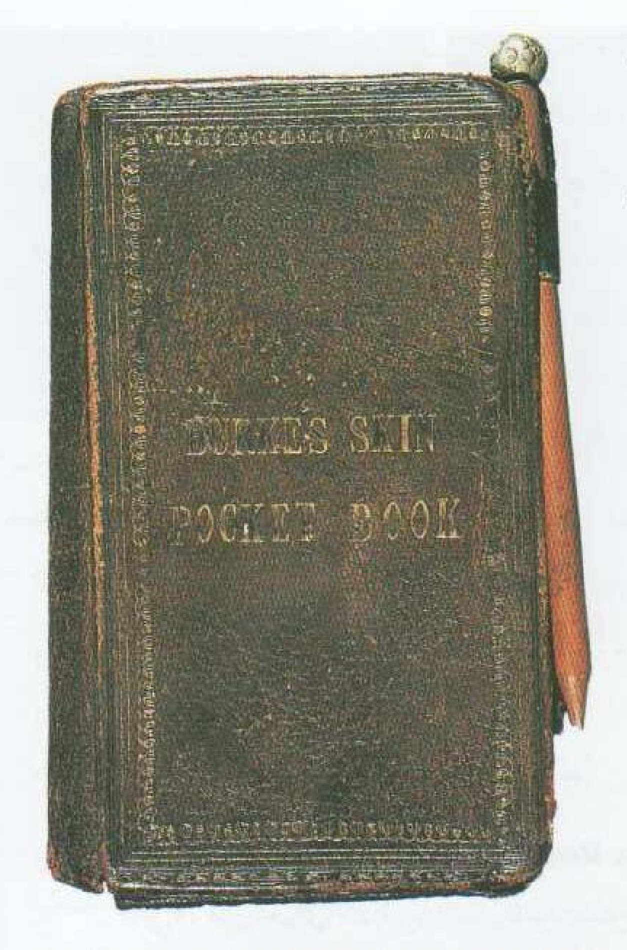
«بضاعته نوعٌ من المواد العلمية» قال الأب بعد أن قلّب الأمر في رأسه.

«جثث أشخاصٍ، أليس كذلك يا أبي؟» سأل الولد الرشيق أباه.

«أعتقد أنه نوعٌ من هذا القبيل،» قال السيد كرنشر.

«آه يا أبي كم أود أن أصبح رجل بعثٍ عندما أكبر».

تشارلز ديكنز، قصة مدينتين



البقايا الدنيوية من وليم بيرك، نابش القبور: جلده بعد دباغته وتحويله إلى مفكرة جيب.

أحرزت الجراحة بعض التقدم منذ أيام الجراح الحلاق، لكنها بقيت تمتاز بمكانة متدنية. وليس من قبيل الصدفة، أن يطلق على الجراحين المستشارين في المستشفيات هذه الأيام كلمة (.Mr) وتعنى (السيد) بدلاً من كلمة (.Dr) وتعني الدكتور. ويعدُّ هذا الفرق في التسمية من بقايا الزمن الذي كان فيه الأطباء وحدهم من يتلقى تدريباً لائقاً، بينما كان أولئك الذين يحتلون مراتب أدنى منهم مطبّبين. وتلقى التقدم المعرفي الجراحي بعض المعوقات الناجمة عن عدم توافر الجثث الحديثة ليتم تشريحها، وهذا قاد إلى انتشار وظيفة لاقت رواجاً في السوق السوداء في خفايا الحياة الجورجية ألا هي رجل القيامة، أو– كما يسمى هذه الأيام– مختطف الجثث.

وفي الحقيقة، كانت الجثث الوحيدة التي يمكن إخضاعها للتشريح هي جثث المجرمين المعدمين. فقد قاد الاعتقاد المسيحي الشائع ببعث الأجسام، الناسَ إلى أن يهابوا التشريح بعد الموت؛ فقد كانوا يعتقدون أنك لن تتمكن من النهوض كاملاً يوم القيامة، ما لم تكن هيئتك سوية في قبرك (وهذا هو السبب الكامن في عدّ العقوبات القديمة كالشنق، والملع[1]، والتقطيع سيئة للغاية، فهي لا تنهي الحياة فحسب، وإنما تقضي على فرصك في الوصول إلى الجنة كاملاً دون نقص). وفي هذا السياق، نص قانونٌ يعود إلى عام 1752، بوضوح، على أن التشريح الذي تقوم به شركة الجراحين ينبغي أن يكون جزءاً من عقوبة القتل في لندن. ومع نهاية القرن الثامن عشر، تزايد الطلب على المزيد من الجثث، فقد بلغ عدد طلاب الطب في

(1) مَلَع الشاةَ: سلخها من قِبَل عنقها.

لندن عام 1793 مئتي طالب، وارتفع عددهم عام 1823 إلى ألف طالب، كان كل طالب منهم في حاجة إلى جثةٍ ليعمل عليها.

وكان رجال البعث في الحقيقة مجرمين، وعرفوا «بالمُكيّسين»، وذلك لأنهم كانوا يغيرون على مقابر الكنائس، ويقومون بوضع الجثث في أكياس قبل بيعها للأطباء، ولا يوجه أي سؤال لأي طرف في هذا الشأن. ولكن أشارت مفكرةٍ تنسب إلى جوشوا نابلس (Joshua Naples)؛ أحد أفراد عصابة البعث المسماة كرواج (Crouch) إلى حجم هذه التجارة:

الأحد – الخامس من يناير 1812

مكثت في البيت طوال اليوم، وتقابلنا عند الساعة الخامسة، حيث ذهبت العصابة بأكملها إلى نيوين، وحصلت على ثلاث جثث، قمت أنا وجاك بتوصيلها إلى ويلسون، وأقصد جيمس ويلسون من كلية التشريح العظيمة الواقعة على شارع ويندميل، ومن ثم عدت للبيت، وتقابلنا عند الساعة الثانية عشرة، فحصلنا على خمس جثث لبالغين وجثتين صغيرتين في هآربس، وقد يكون المقصود به هنا هارير، وهو حارس مقبرة. وذهبنا بعد ذلك إلى ييغ غارتس– وقد تكون هذه إحدى بوابات مقابر لندن– حيث حصلنا على ثلاث جثث لبالغين، تركت دان في البيت، وانطلقت ومعي الجثث كلها إلى بارثوم– مستشفى القديس بارثولوميو (St. Bortholomew's).

ويتطلب هذا العمل الحصول على الجثث حديثة الوفاة؛ وفي العادة يستمد صائدو الجثث معلوماتهم من حفاري القبور. بيد أن العمل لم يكن سهلاً على الإطلاق؛ فقد يقوم أصدقاء المتوفى بحراسة القبر أربعة أسابيع أو خمسة حتى تتعفن الجثث، وتم تشكيل «نوادي القبور» لمنع نبشها في المستقبل، وأحيطت الأكفان بأقفاص معدنية مقفلة. وفي ليدز، حيث كانت سرقة القبور مشكلة بالغة التعقيد، أخذ الناس يدفنون موتاهم على عمق اثني عشر قدماً، واضعين قضباناً حديدية في الأرض على مسافات متساوية فوق النعش.

وينقلنا هذا للحديث عن بيرك وهار (Burke and Hare). لم يكن هذان من رجال البعث،

بيد أنهما لم يريدا أن يتجشما مصاعب نبش القبور لاستخراج الجثث، وإنما فاقا الوسطاء السابقين بقتلهم ضحاياهما بنفسيهما؛ فقتلا ستة عشر شخصاً في أدنبره أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر لبيعها لعالم التشريح المسمى الدكتور نوكس. وقد تم إعدام بيرك لجرائمه عام 1829، واستخدمت جثته للتشريح، بل إن جزءاً من جلده دبغ وصنعت منه محفظة، مازالت محفوظة في المتحف الملكي في إدنبره. أما هار فقد تمكن من الهروب من الإعدام، لكن هناك إشاعات تفيد أنه قد أصبح أعمى عندما قامت عصابة برميه في حفرة جير. وأصبح بعد ذلك متسولاً في لندن. ويقال إن حانة الشحاذ الأعمى (Blind Begger) في وايت تشابل قد سميت على اسمه.

وكما هي الحال في التهريب، تم تغيير القانون بشكل قُضِي بموجبه على هذه التجارة غير القانونية. فقد سمح قانون التشريح الصادر عام 1832 باستخدام جثث الفقراء من بيوت الإعالة لتدريس التشريح. وليس مستغرباً، مع إدراكنا الحالة التي آلت إليها بيوت الإعالة في العصر الفكتوري، أن نعلم أن تلك البيوت كانت قادرة على رفد الجراحين بما يحتاجونه من جثث.

المنعزل/ الزاهد (Hermit):

قد لا تكون هناك أمثلة أوضح على أناس لديهم من المال يفوق ما لديهم من الإحساس والذوق، أكثر من أولئك الناس الراغبين في توظيف مرشحين للقيام بالمهنة السيئة التالي ذكرها.

كان هذا عصر التجوال العظيم، فقد أكمل الشباب تعليمهم عبر القيام بالترحال في أوروبا للاطلاع على مختلف جوانب الثقافة. وعاد هؤلاء إلى أوطانهم محملين بالمثل الكلاسيكية، وكانوا يريدون أن تبدو منازلهم وحدائقهم كلوحة لبوسين (Poussin)، فقاموا ببناء منازل نيوكلاسيكية على شاكلة المعابد الرومانية، ووظفوا بعض المختصين في بستنة المناظر الطبيعية ككابيلتي براون (Capability Brown)، معيدين تشكيل الريف، ليصبح نسخة فنية كلاسيكية.

قبع كابيتلي براون على رأس هرم المختصين في المناظر الطبيعية، ويقبع الفقراء المتعثرون

أسفله، وهم الذين اتفق معهم ليصبحوا زُهّاداً محترفين. لأنك إذا ما أردت صنع نسختك الخاصة من الأركاديا، فكل ما تحتاجه لاكتمال هذه الصورة زاهدٌ حكيمٌ ذو رأي صائبٍ قابع في قلب حديقتك الغنّاء، يتأمل فيها قِصَر الحياة، وعدم نفع الثروات الطائلة.



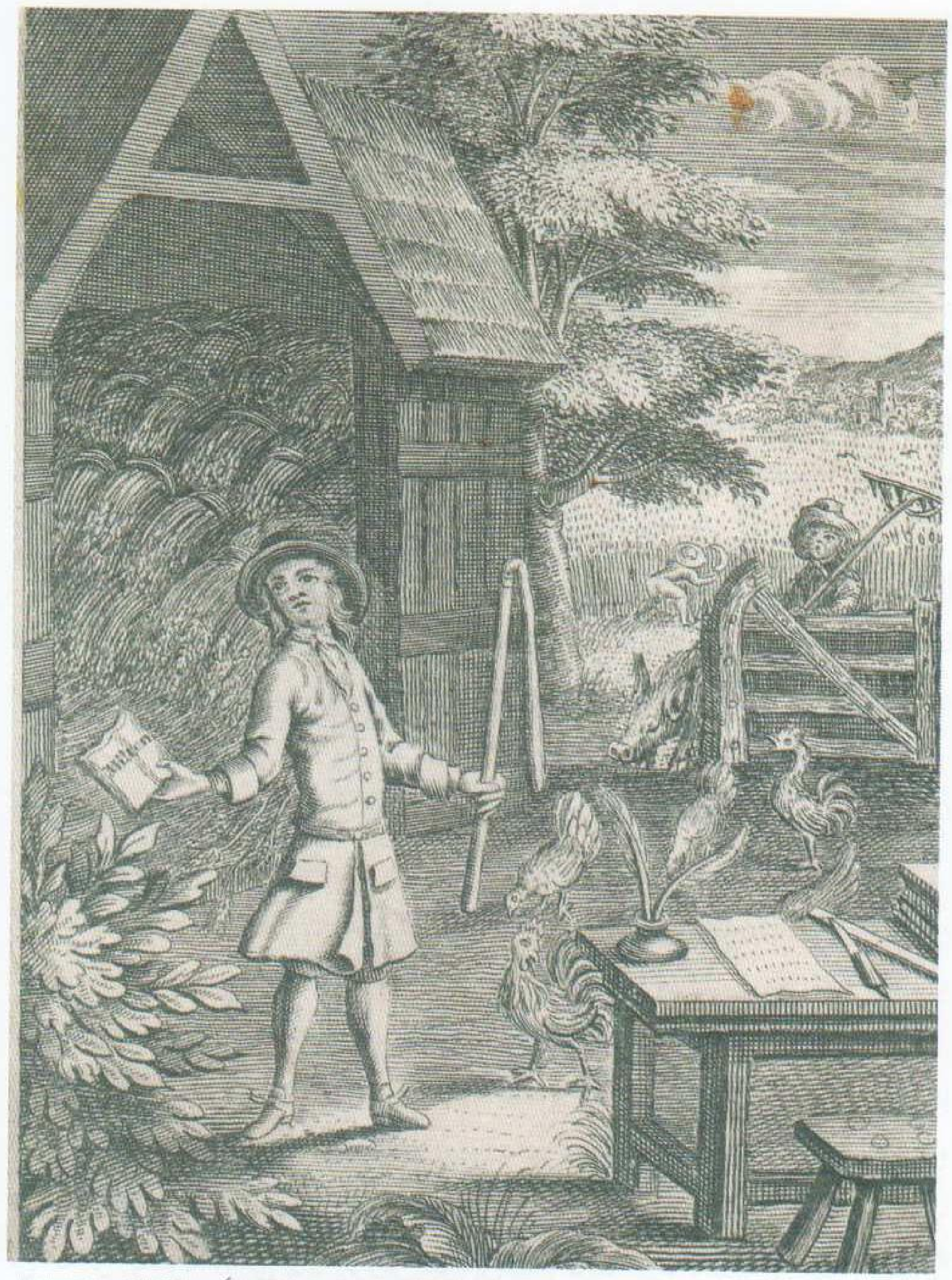


طالب بعض أرباب العمل من زهادهم وقفة تأملية لفترة طويلة عندما كانوا يزورونهم.

وتكمن المشكلة في أن النّساك كانوا عملة نادرة خلال القرن الثامن عشر؛ ولن تستطيع تعيين ناسك حقيقي براتب ضئيل. ولهذا قام ملاك الأراضي التواقون للوصول إلى أسمى أشكال الإضافات النيو-كلاسيكية بتوظيف غريبي الأطوار، والمعاقين عقلياً، والشعراء، أو البائسين مالياً للقيام بهذا العمل. واستمرت هذه الموضة مئة عام بدأت سنة 1740، وكان ثمة أحد النّساك في متنزه هوكستون قرب شروبيري حتى عام 1830، عندما طالبت الجموع السير ريتشارد هيل بتحرير ناسكه من عقده، واستخدام دمية عوضاً منه.

وقد يبدو الوضع لبعضنا مستهجناً، أن يقوم الأغنياء بتشغيل كبار السن ليقوموا بالتجول في جميع أطراف عقاره ليتذكر- عند رؤيتهم- وجه الحياة الآخر. ولكن حتى في ذلك الوقت، كان هناك من استهجن هذه الفكرة، وقد صرح رئيس الوزراء هوارس والبول، في هذه الصدد قائلاً: «من المضحك جداً أن يخصص الشخص جزءاً من حديقته ليكون حزينا فيها».

إن الرغبة الغريبة في وجود عفريت حديقة حي يتنفس، قد تواجه مشكلة طبيعية. فالوظيفة قد تقود من يشغلها إلى الجنون. فعلى سبيل المثال، تعرض ستيفن دك؛ الزاهد الملكي في حدائق ريتشوند (وهي الآن جزء من كيو) إلى ضغوطاتٍ كبيرةً أوصلته إلى حد الانتحار. ووقع ملاك الأراضي، في سعيهم لتجنب رفض موظفيهم الاستمرار في العمل، عقوداً معهم، ألزموهم خلالها بقضاء فترة محددة قبل أن يتلقوا أجورهم ويستبدلوا بآخرين. وقام



ليس زاهداً كما ينبغي، لكنه الشاعر الذي علم نفسه، ستيفن دك (Stephen Duck) وقد كان جزءاً من الحركة التي تنادي بتصوير الحياة الريفية بشكل مثالي لقاطني المدينة. وقام دك بعد أن هجاه جوناثان سويفت، بكيل عبارات المديح في حق حياة ضارب الحنطة (وهذا يفسر وجود مدراسة القمح بيده اليسرى في الصورة). وعامل المزرعة بحق لا يبدو مندهشاً على الإطلاق

السير تشارلز هاميلتون؛ أحد ملاك الأراضي في بانزهيل في ساري، بتوضيح مهام زاهده:

> عليه الاستمرار في الصومعة لسبع سنوات، حيث يتم تزويده بالكتاب المقدس، ونظّارات بصرية، وحصيرة لقدميه، ووسادة، وساعة زجاجية ليعرف من خلالها الوقت، والماء والطعام. وعليه أن يرتدي رداءً من شعر الجمل، وألا يقص شعر رأسه، أو لحيته أو أظافره تحت أي ظرف كان. كما عليه ألا يخرج من أراضي السيد هاميلتون، أو أن يتبادل مع الخدم.

ويبدو أن هذه الشروط لا تكفي، فقد كان على الزاهد أن يواصل حياته حتى في غياب مالك الأرض، دون أن يتلقى أجره البالغ سبعمئة جنيه إسترليني، إلا بعد انقضاء الفترة الزمنية المتفق عليها، وعقب التزامه بجميع القواعد خلالها. وإذا اعتقدت أن الضابط الراكب كان يجني أربعين جنيهاً في العام لقاء قيامه بواجبه في جميع الأوقات وضمن كل الظروف، فإن الناسك كان قادراً على توفير بعض المال، فهو يجني ثلاثة أضعاف راتب الضابط الراكب، بيد أن عليه أن يكمل المدة المتفق عليها للحصول على مستحقاته.

إن بعض المساوئ البيّنة لهذه المهنة لم تكن دوماً سيئة من وجهة نظر الناس في ذلك الوقت. فناسك جورج دورانت، الذي كان في سابق عهده رجلاً نبيلاً أصابه الفقر، ويدعى كارلوس، عاش بسعادة في كهف حتى موته. وتم توثيق هذه الحالة في مجلة «الرجل النبيل». كما رغب سيد يدعى لورنس من بلاموث في نيل امتيازات التنسك، مما دفعه للإعلان عن الوظيفة بنفسه.

وتمكن بعض النساك من الحصول على شروط أفضل من تلك التي حصل عليها ناسك بانزهيل. فعلى سبيل المثال، تمتع ناسك فينش في بارلي بغرفة معيشة كاملة ذات مقاعد ريفية. وتلقى شخص يدعى السيد ريمبس من بريستون وعداً بالحصول على كتبٍ وأرغن وطعامٍ مغذٍ. بيد أن الجانب السيء في الأمر أنه عليه أن يعيش في ظروف بائسة للغاية.

وإذاً، هل كان هناك متقدمون لوظيفة السير تشارلز في بانزهيل؟ نعم. وهل استمر الناسك في عملة إلى نهاية فترة السبع سنوات؟ ليس تماماً. فقد طرد بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على بداية

عقده، بعد أن وجد في حانة محلية برفقة بعض الفتيات.

قد لا يجد أي منا عذراً في لومه على غيابه غير الشرعي، ولكن هل هناك عمل أسوأ من هذا الرجل ينبض حيوية ونشاطاً. واصلِ القراءة فقد تجد الجواب في القسم التالي.

الخصيّ (Castrato):



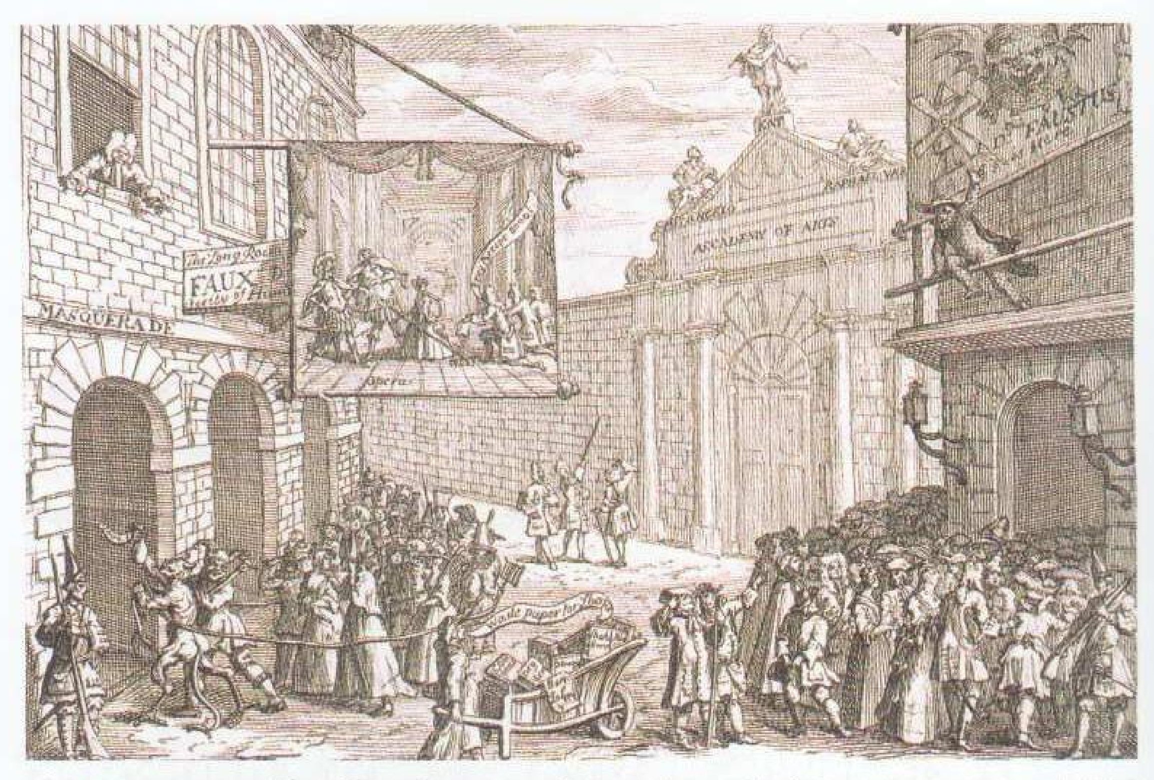
كماشات تستخدم في إجراء قطع القناة المنوية.

كانت النسخة الجورجية المماثلة لروبي ويلمز، أو لنكن أكثر دقة، تشارلوت تشرتش، هو نجم الصرعة الجديدة في عالم الأوبرا، أو ما يسمى بالكاستراتو (الخصي).

وتستطيع أن تسمى هذه الوظيفة بغير البريطانية، ذلك لأن عملية الإخصاء كانت تتم، وبشكل حصري في إيطاليا، لأن الكاستراتيين كانوا موجودين، وبشكل حصري في إيطاليا، لكنهم كانوا يجوبون جميع أرجاء أوروبا للغناء. وقد بدأت هذه الممارسة كوسيلة لمد الأوبرا بأصوات أنثوية، غير أن صوت الكاستراتو الملائكي قد لاقى قبولاً واسعاً، مما جعله يقوم بأدوار الرجال الرئيسية. فعلى سبيل المثال، يؤدي اثنان من الكاستراتيين دور الثنائي المتحاب في النهاية بين نيرو وبوبي في أوبرا مونتيفيردي؛ المسماة «تتويج بوبي»، وعلى النهج نفسه، قام خصي بأداء دور يوليوس قيصر في رائعة هاندل «يوليوس قيصر».

إن أقرب صوت لطبقة صوت الكاستراتو هو الصوت المصطنع العالي أو طبقة الكاونتر تنور (الصوت الرجولي الحاد)، لكنه مختلف تماماً عن حدة صوت الكاستراتو، الذي يقارب صوت امرأة حادٍّ، ولكن بطبيعة غريبة، وصافية، وغير مميزة للجنس، عبر صوت حاد لشاب.

ولم يكن للأطفال الذين يخضعون لهذه العملية أي خيار في هذه القضية؛ فمعظمهم ينحدرون من عائلات فقيرة كانت تأمل أن تتخلص من فقرها عبر هذه العملية. وقام



لوحة لوليم هوغارث تظهر الجماهير في أثناء تجمهرهم لحضور حفلة أوبرا. ويضم العلم رسماً كرتونياً لمشهد من خشبة المسرح يظهر عليها سانيسينو، خصيّ هاندل المفضل، الذي يمكن عدّه مزيجاً من بافاروتي وتشارلوت تشيرتش عصره. هو الرجل الطويل ذو الجسم العريض والرأس الصغير والأرجل الدقيقة.

الفاتيكان بحظر ممارسة الإخصاء، لأنها ممارسة همجية. ولكن رغم حظر القانونين الديني والمدني، فقد غض الطرف عن استمرار هذه الممارسة لقرون لاحقة: وفي كثير من الأحيان كانت العائلات، تنكر نيتها في إخصاء طفلها، مدعية أنه خصي بسبب مرض، أو نتيجة لحادث ركوب خيل، أو لأن خنزيراً برياً قد نطحه.



آخر المخصيين: أليساندرو موريشي.

تنمو خلال فترة المراهقة، الأوتار الصوتية للذكر فتصبح أخشن، فيتعمق الصوت. وتمنع عملية الإخصاء التدفق الضروري للهرمونات، مما يؤدي إلى وقف نمو الأوتار الصوتية بصورة تمنع الصوت من التغير. ولهذا قد يتمتع الكاستراتو بصوت سوبرانو حاد لطفل، وقوة رئتي رجل بالغ.

كانت عملية الإخصاء تجرى على الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة، وقد لا ترغب في مواصلة قراءة الفقرة اللاحقة إن كنت ذكراً.

يتم وضع الولد المقرر إخصاؤه في حوض ماء ساخن جداً حتى يفقد وعيه، ويحقن بعضهم بالأفيون. وفي ظل هذه الحرارة العالية، يتم التلاعب بالخصيتين يدويا وسحقهما حتى تفقدان قوامهما وتضمحلان. ومن ثم يتم قطع القناة المنوية القادمة من الخصيتين. ولم تكن جميع العمليات ناجحة، وقد يفارق بعض الأولاد الحياة. وبلغ عدد الأطفال الذين خضعوا للإخصاء في أوج هذه النزعة زهاء أربعة آلاف طفل إيطالي؛ وقد خضع بعضهم إلى هذه العملية، لسوء حظهم، اعتقاداً من عائلاتهم أن هذه العملية ستجعلهم مغنين جيدين في المستقبل، في حين أن عملية الإخصاء قد تجعل من الأطفال ذوي المواهب الغنائية وحسب، مغنين أفضل.

وقد يكون هناك المزيد من الأخبار غير السارة حتى في ظل نجاح العملية، فعائلة الخصي في العادة تخضعه لهذه العملية الوحشية من أجل الشهرة والثروة، بيد أن حقائق خشبة المسرح لا تختلف في القرن الثامن عشر عما هي الآن. فالقليل القليل من المخصيين قد يتمكنون من الوصول إلى الذروة في مستقبلهم المهني، وقد لا تتجاوز نسبة الذين يتوقعون النجاح أكثر من واحد بالمائة من الأربعة آلاف. أما الباقون فأمامهم حياة من العمالة المتقطعة دون أملٍ بعيش حياة عائلية طبيعية.

والأسوأ من ذلك أن يكون للعملية أعراض جانبية خطرة. فقد انتهى الأمر مع هؤلاء المخصيين بقضيب صبياني وبروستاتا غير نامية كما يجب. وقد يبدو هؤلاء على خشبة المسرح طويلين وذوي مهابة، إلا أن أذرعهم وأرجلهم كانت طويلة بشكل غير مألوف مقارنة مع أجسادهم، وكانوا معرضين لتراكم الشحوم المفرط في الأوراك، والصدور والجفون. وبعيداً عن تأثير العملية على أجسادهم، يقال إن العملية أثرت في حالتهم العاطفية. وكثيراً ما تم وصفهم بالبدينين، والجانحين عاطفياً والمتكبرين، وهذه اتهامات تطلق هذه الأيام على مغنيات الأوبرا. وقد عمت شهرة مواجهات الصراخ الصاخبة بين المؤلف هاندل ومخصيه سينيسنو جميع أرجاء إنجلترا. وكانت ذروة انتشار الكاستراتو بين عامَيْ 1650و 1750.

ورغم اعتبار هذه الممارسة معارضة للقانون الفاتيكاني، إلا أنها استمرت حتى نهاية القرن

التاسع عشر. ويتوفر لدينا الآن تسجيل لآخر كاستراتو، ويدعي أليساندرو موريشي، وقد توفي عام 1922. ورغم أن التسجيل قد جرى بعد اعتلائه قمة الشهرة، إلا أنه يعطينا فكرة واضحة عن الصوت الذي وجدت الوظيفة لأجله، وقد أصبحت- ونحمد الله على ذلك- جزءاً من الماضي.

أسوأ المهن في البحرية

سودي يا بريطانيا
فأنت تحكمين العالم،
ولن يصبح البريطانيون
عبيداً أبداً.

تعود أغنية بريطانيا هذه إلى العصر الجورجي، وتعبر عن ثقة الإمبراطورية المزدهرة الزاخرة وتطلعاتها، لكنها في الحقيقة ليست سوى عار جورجي آخر.

وتعبر الأغنية عن عزم شعبٍ حرٍ على حكم الآخرين، دون أن يتقبل خضوعه لأي حكم آخر. ولكن يمكن القول إن القوة الاقتصادية لبريطانيا في القرن الثامن عشر قد قامت على بؤس العبيد الذين كانوا مجبرين على العمل في مزارع العالم الجديد. وشكل طريق العبيد من غرب إفريقيا رعباً لا يمكننا أن نوفيه حقه في هذا الكتاب، فأسوأ مهنة من المهن التي تحدثنا عنها في هذا الكتاب، لا تقارن بالحياة البائسة لأولئك الذين تم الإمساك بهم وحشرهم في سفن ونقلهم عبر برستول وليفربول ومن ثم بيعهم- إذا ما بقوا على قيد الحياة- للقيام بأعمال إجبارية في جزر الهند الغربية.

وتم حظر العبودية في الوطن، عندما عادت بريطانيا إلى رشدها، وأرسل سلاح البحرية لوقف المستعبدين على السفن الفرنسية والإسبانية، وحرر الكثير من العبيد وأرجعوا إلى إفريقيا، أو أطلق سراحهم في الميناء. ولكن بعض المحررين رَغِبَ في الانضمام إلى طاقم السفن التي منحتهم الحرية، ومع هذا، بقيت حياة بحارة نلسون أفضل- بشكل واضح- من أولئك العبيد الذين كلفوا بالقيام ببعض أصعب الأعمال وأكثرها رعباً.

كان سلاح البحرية التعبير الصريح لسيطرة بريطانيا على البحار، بيد أن الثقة الموجودة في أغنيته تبدو جوفاء عند مقارنتها بالحقيقة التاريخية. كانت سيادة بريطانيا على البحار، لسنوات طويلة، على حافة الهاوية. ولا يمكن أن نعزو ذلك لنابليون وحده، بل إن السياسة الخارجية لبريطانيا الموسومة بالعداء قد جعلت البلد في مواجهات مستمرة مع أحلاف مختلفة كانت فرنسا، وإسبانيا، وأمريكا، وهولندا، وروسيا أطرافها. ورغم الانتصارات التي حققها البريطانيون في ترافلغار، واصل الفرنسيون مساعيهم في بناء سفن حربية جيدة التصميم، في حين أن سلاح البحرية البريطاني قد امتد إلى أماكن قصيّة وأصبح سيء التجهيز. وكان النجاح حقيقاً بأولئك الرجال الذين أبحروا، وقاتلوا الفرقاطات والسفن الحديثة أكثر منا، فقد قام هؤلاء بهذه الأعمال في ظروف سيئة جداً، مدفوعين برغبتهم في البقاء على قيد الحياة، والحصول على غنائم مالية من السفن التي قد يمسكون بها، غير أن الصورة النمطية لطاقم سلاح بحرية تحت إمرة نيلسون كانت مختلفة عن صورة البحارة المبتهجين التي قد نرسمها لهم.

وتطلّب خوض الحرب الأمريكية، وحرب السنوات السبع ما بين المئة وعشرة آلاف، والمئة وخمسة وأربعين ألف بحار وضابط. ولم يكن هناك ببساطة بحارة محليون لتأمين هذا العدد؛ ولهذا كانت سفن سلاح البحرية تحت إمرة نلسون أمثلة عائمة للتعدد الثقافي. شكل البريطانيون منهم ما يزيد عن نصف الطاقم بقليل، بينما كان الباقون من إيرلندا، وبولندا، والشرق الأقصى، وعبيداً سابقين من جزر الهند الغربية، وإسكندنافيا، أو بالأحرى من كل مكان له ساحل. ومع هذا لم تكن هذه المصادر كافية، فقد كانت الحياة على سطح السفينة قاسية جداً، مما جعل المتطوعين قليلين ومتفرقين. وأصبحت السفن تعتمد على إيمبرس سيرفس (Impress Service) أو عصابات الإجبار التي كانت تجبر المجندين على الانضمام. وكان نظام الحصص الذي أقر عام 1795 يعنى قيام المجرمين ذوي الجرائم الصغيرة بالانضمام إلى البحرية كبديل عن السجن، وهذا أدى إلى وجود الكثير من المهووسين، وضحايا التيفوس بين طواقم سلاح البحرية.

مذكرة تفتيش لعصابة الإجبار، صادر بحق قبطان سفينة عام 1809

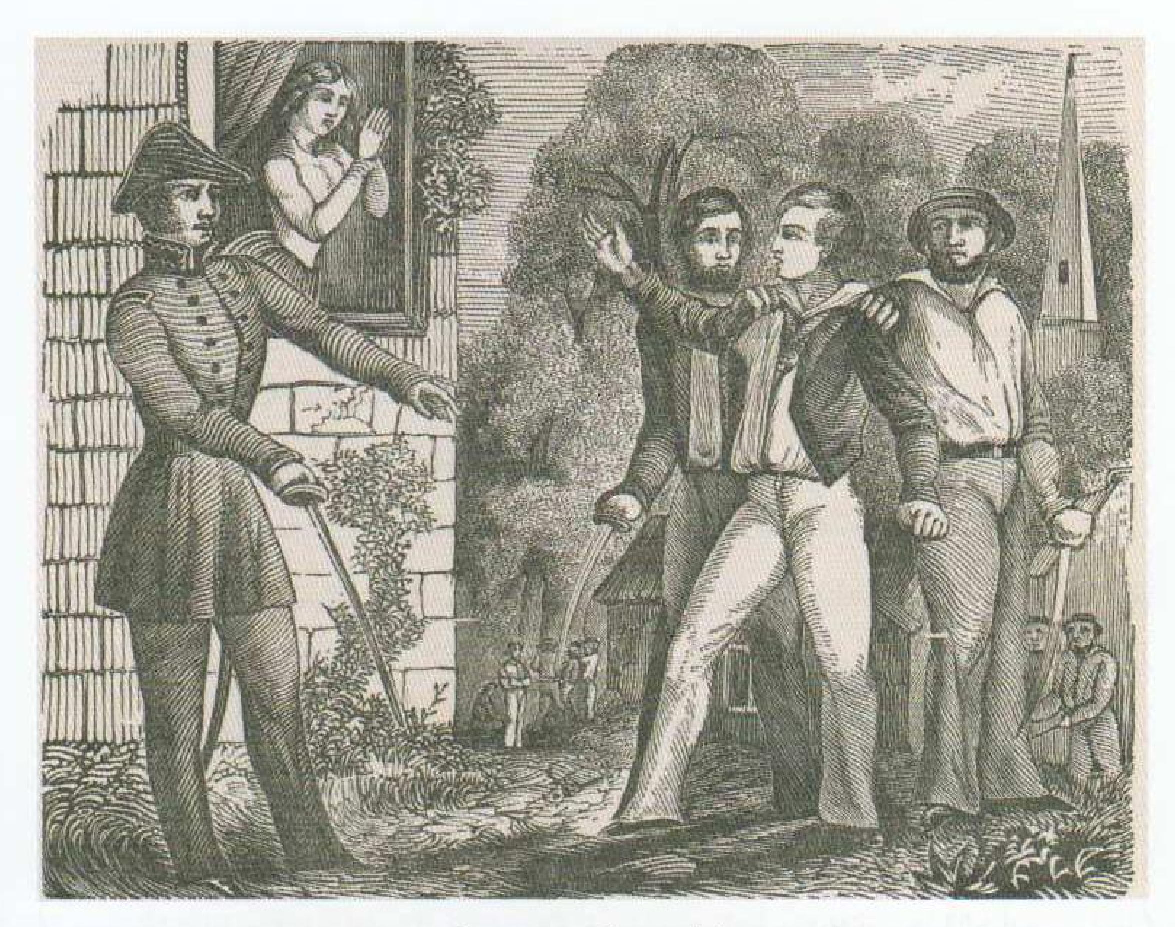
صادرة من جانب المفوضين المسؤولين عن تنفيذ قرارات مكتب اللورد، الأدميرال السامي للمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا والكومنولث وجميع مستعمرات جلالة الملك.

تنفيذاً لأمر جلالة الملك في مجلسه، والصادر في السادس عشر من نوفمبر، عام 1804، فإننا نفوضك هنا ونخولك ونمنحك القوة لإجبار من ترونه مناسباً، أو أن تتدخل لإجبار أكبر عدد من الأشخاص للعمل كبحارة أو مرتادي بحار، أو كأشخاص وظائفهم أو تسميات وظائفهم لها علاقة بالعمل على المراكب والقوارب في الأنهار، كما تستدعي الحاجة لذلك كي تمد سفينة جلالة الملك بالجنود تحت إمرتك أو أي سفينة أخرى، وإعطاء كل رجل تم إجباره شلناً واحد كسلفة. وعليك عند تنفيذ ذلك أن تحرص أنت أو أي من ضباطك المخولين ألا تطلبوا أو تتلقوا مالاً، أو عطية، أو مكافأة، أو أي مكافأة مهما قصد بها استثناء أو استبدال أو تسريح أي شخص أو أشخاص، تم إجبارهم أو قصد إجبارهم. وسيتم استجوابك في هذا الشأن. وعليك ألا تثق بأي شخص لتنفيذ أمر التفتيش باستثناء ضابط مفوض، وعليك إدراج اسمه ومنصبه في الجانب الآخر من مذكرة التفويض، وجهّز يدك وختمك على الفور.

وهذه المذكرة صالحة لغاية اليوم الحادي والثلاثين من ديسمبر عام 1809، وعلى جميع العمدات ومفوضي الشرطة، والقائمين على الأمن، ومساعدي المأمور، ومأموري الأحياء، وجميع موظفي جلالة الملك، ورعاياه ذوي الصلة، أن يقدموا المساعدة والعون لك كأولئك الذين تم توظيفهم تماماً، لأنهم معنيون بتقديم الخدمة لجلالة الملك، وسوف تتم مساءلتهم عن أي تقصير في هذا.

حررت بمعرفتنا وطبعت بختم منصب الأدميرال.

وحال صعود هؤلاء الذين لم يعرفوا في السابق سبيلاً إلى البحر، يطلق عليهم لقب جمعي



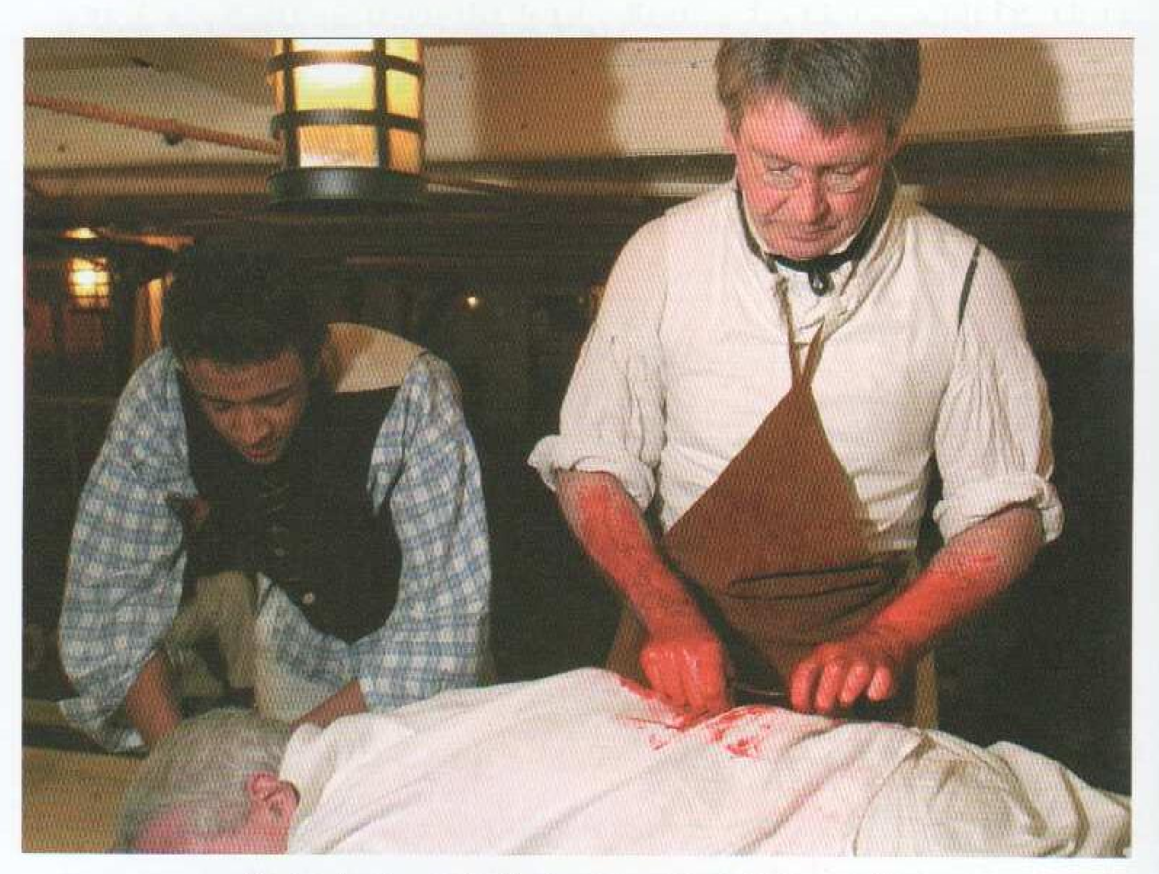
صورة توضيحية لإحدى عصابات الضغط، وقد تصرف أفرادها بشكل لائق، في حين أن الحقيقة تقول إنهم قد استخدموا العنف في معظم أجزاء مدن بريطانيا الساحلية.

هو «المتخصرون» (waisters)، وذلك لأنهم على عكس الرجال المصنفين كرجال بحر متمكنين، يحجزون في خاصرة السفينة، وهي الجزء الذي يتوسط السفينة، ويوكل إليهم القيام بأعمال حقيرة، كسحب الحبال حتى يتعلموا خفايا تجهيز السفينة، ولا يسمح لهم القيام بأي عملٍ أعقد حتى يكتسبوا المران الكافي في سابقه (أهلاً وسهلا بكم في «مدينة» الاشتقاق، فإسهام الوظائف البحرية في اللغة الإنجليزية، وبخاصة منذ أوقات الحروب النابليونية، يعد أكثر ما سُلك لغوياً من دروب). ولا يعنى افتقادهم المهارة، عدم تخصيص بعضهم للقيام بأفظع المهن على سطح السفينة.

مساعد جراح السفينة (Loblolly Boy):

لم يكن الغلام المساعد للجرّاح، كما هي حال غلام السفود، بالضرورة شاباً. ولكن، ماذا عن الكلمة (loblolly)؟ وكيف استخدمت لتعني الجراح نفسه؟ استخدمت هذه الكلمة بمعنى جراح؛ مشتقة من أحد الأدوية البحرية التي كان يحضرها، فالكلمة استخدمت في الأصل للإشارة إلى المعينات المجففة الداخلة في تكوين «الحساء المحمول»، الذي كان يحضر من خلاصة اللحم المجفف المذاب في الماء الساخن ليقدم للمرضى؛ وهي مكافئ القرن الثامن عشر لمكعبات المرقة. بيد أن تحضير خلاصة لحم كتلك التي نشهدها هذه الأيام تحت اسم بوفريل (Bovril)، للبحارة المرضى، كان أسهل جزء من عمل غلام الجراح، الذي كان يتضمن مساعدة جراح السفينة.

تباينت مهارات العاملين وخبراتهم في المجال الطبي على ظهر السفينة بشكل كبير.



إعادة إجراء جراحة في القرن الثامن عشر، وهي دقيقة في كل جوانبها باستثناء الألم.

فبعضهم، ولاسيما أولئك الموجودون على السفن الكبرى كسفينة نيلسون «فيكتوري»، كانوا أطباء حقيقيين، في حين أن القباطنة، في المراتب الدنيا من النظام البحري، قد يكونون مسرورين لحصولهم على مطبب هاو مع خبرة في خلع الأسنان. وفي الوقت الذي كان فيه زملاء هؤلاء الجراحين القابعين على الأرض يقومون بتجارب على ما يزودهم به رجال البعث من جثث، كان لدى معظم جراحي السفينة أبسط اللوازم الطبية والمعرفة والعلاج للتعامل مع الظروف المختلفة.

وتركزت المنطقة الطبية في أسفل طبقة في السفينة، وهي الطبقة الموضوعة فوق الماء الآسن في جوف المركب، ومنحت هذه الوضعية مكان العمل رائحة خانقة وغير صحية، رغم أنه حفظ الأطباء والمرضى بعيداً عن مخاطر القتال. وكان الشعور بالحركة، بسبب اقتراب المنطقة من مركز الجاذبية، أقل، مما جعله وضعاً مثالياً لإجراء العمليات.

وكانت هذه المنطقة عند اشتداد المعارك تمتلئ بالدماء. ويقوم الجراح بخياطة أكثر الجراح وحشية، الناجمة عن الشظايا الخشبية، ورصاصات البنادق، وطلقات المدافع، على طاولة عمليات مؤقتة مكونة من صناديق بحارة، رصّ بعضها إلى بعض. وحيثما تمزقت الأطراف، كان عليه أن يقوم بعمليات بتر طارئة، فهذا الإجراء هو العلاج الوحيد المتوفر حينها. إن هذا هو عالم الحلاق الجراح الجنوني بإفراط.

وتكمن مشكلة مساعد جراح السفينة في المحافظة على إبقاء المرضى ساكنين، وكانت إحدى الطرق التي اتبعها هي إبقائهم مخمورين ليتناسوا الألم، وقد يضطر لاستخدام مخدر اللودنوم، وهو مستحضر كحولي من الأفيون، لاقى شيوعاً منقطع النظير في العصر الفيكتوري. ويقوم مساعد الجراح، لإيقاف صراخ المريض، بربط طوق جلدي على فمه، أو بإعطائه طلقة بندقية ليعضها بأسنانه. ومن هنا جاءت العبارة «عض الرصاصة»، (والمرادف لها بالعربية هو «عضَّ على ألمه»). وأخيراً، يستطيع الجراح، بمجرد تمكن المساعد من إيصال المريض إلى حالة الهدوء التام، بمساعدة مجالسيه على طاولة الطعام، من الشروع في عمله.

والهدف هنا هو السرعة لا الإتقان. وبمجرد الانتهاء من عملية البتر، تسد الأوردة والشرايين بربطها وتركها مدلّاة من الجرح، وتقضي الخطة بإزالتها لاحقاً عندما يتشافى الجرح، بيد أن الأنابيب اللحمية المعلقة قد تترك المريض عرضة للإصابة بعدوى ذات عواقب وخيمة.

وكانت مهمة مساعد الجراح الأخيرة على طاولة العمليات هي التخلص من الإطراف المبتورة. وبعد اشتباك بحري كامل، يستطيع مساعد الجراح وبسهولة تامة تعبئة حوض كامل بأجزاء زملائه البحارة المهشمة.

ولم يكن المرض والموت- كما يشير الجدول التالي- محصورين بساحة القتال. ففي كل يوم، قد يتدحرج مدفع فوق قدم بحار، وقد يسقط بعض الناس من حبال الأشرعة والصواري. ومع وجود أعمال شائقة على سطح السفينة، أصبحت حالات الفتاق مشكلة قائمة في ذاتها. وقد بلغ عدد عمليات الشد التي أجريت على البحارة في البحرية الملكية سنوياً زهاء الأربعة آلاف عملية.

عدد الموتى من البحرية الملكية عام 1810

سبب الموت	العدد	النسبة
المرض	2592	٪50
حوادث انفرادية	1630	٪13
السقوط، التحطم، النار، الانفجار	530	٪10،2
بسبب العدو، عند قيامه بمهمة	281	٪5،4
بسبب العدوى، بسبب جراحة	150	٪2،9
جميع الأسباب	5183	٪100

وجاءت أعظم مشكلة صحية من الأمراض، وكان مرض الإسقربوط مشكلةً قائمةً في حد ذاتها، وكان مساعد الجراح يقوم بتوزيع الليمون الأخضر للحد من انتشاره. وفي الحقيقة نال البحارة البريطانيون لقب «الليمونيين»، الذي أطلقه عليهم نظراؤهم الأمريكيون في إشارة إلى ميل البريطانيين الشديد إلى الفاكهة الغنية بفيتامين سي. وجُعل استهلاك الليمون الأخضر على سطح السفينة إجبارياً عام 1798، وتم احتواء المرض. بيد أن أمراضاً أخرى كحمّى السجن، والتيفود، والحمى الصفراء، والملاريا، والكوليرا واصلت حصد أرواح البحارة.

وبلغ عدد الرجال المصابين بمرض الحمى الصفراء والملاريا عند انطلاق سفينة «برونزويك» إلى الجزر الهند الغربية عام 1081 مئتين وثمانين رجلاً. ومما لاشك فيه، أن من مهام مساعد الجراح، الاعتناء بالمرضى المصابين بأمراض مميتة، وبخاصة أولئك الذين يمرون في وضع حرج.

لابد أن العمل مع المتألمين، والنازفين، والمرتعبين، في ظروف منتنة لم يكن سارّاً على الإطلاق. فهذه المهمة خطرة، وكانت الظروف سيئة، رغم أنها عُدّت ملهاة عند مقارنتها بالحياة على سطح السفينة.

المُعْتَلون (Topman):

كان هؤلاء هم النخبة في طاقم السفينة، فقد كانوا الأقسى والأكثر لياقة بين البحارة، وكانت توكل إليهم مهمة رئيسة هي تعديل الأشرعة.



تدهن الحبال وحبال الصواري بالقطران لمنع تعفنها، ولهذا كان للمعتلين أيادٍ زلقة على الدوام نظراً لتسلقهم الحبال. ويطلق على البحارة لهذا السبب اسم عام هو جاك تار أو جاك القطران.

كانت السفينة الحربية البريطانية في القرن الثامن عشر تمتاز بثلاث صواري هي: صارية المقدمة، والصارية الرئيسة الضخمة، والصارية الثالثة في المؤخرة، وتمر بهذه الصواري عارضة يربط عليها الشراع، وتدعم الصواري الثلاث بشبكة ضخمة من حبال الأشرعة والصواري الفرعية. ويمتد من هذه الصواري والعوارض إلى العمود البارز على مقدمة السفينة، في الأسفل، أربعة وعشرون شراعاً ضخماً ومختلفاً، قد تحتمل مئات الوضعيات للاستفادة وبأفضل شكل، من الظروف الجوية المتوفرة.

وكان تغيير هذه الأشرعة بسرعة قضية حياة أو موت، فثني الأشرعة في عاصفة قطبية قد يضمن عدم انقلاب السفينة جراء الرياح العاتية، وإحراز عقدة بحرية إضافية عبر تجهيز الأشرعة بشكل مناسب قد يعنى الإفلات من عدوٍ يطاردك، أو قد يمكّن السفينة من إحراز غنيمة لا تقدر بثمن. وكان المعتلون متمرسين في تسلق الحبال الأفقية التي تشكل عتبات السلم للوصول إلى قمم الصواري، وبمجرد وصولهم هناك، كان عليهم الزحف فوق العوارض ليقوموا بعملهم مع الأشرعة.

وعلى المعتلي القيام بمهماته على أكمل وجه، وفي وقتٍ قصيرٍ جداً، وظروفٍ جويةٍ سيئةٍ قد تتلاطم خلالها السفينة بين أمواج البحر العاتية، وقد تترنح قمة السارية، خلال موجة عاتية، كمالبندول. ومع اشتداد هبوب الرياح وتكوّن الجليد على العوارض وحبال الأشرعة، فإن الحوادث شرٌ لا مفر منه.

وقد لا يبدو عمل هؤلاء سيئا لو أن كل ما يقومون به هو ما تحدثنا عنه وحسب، فما سبق ليس سوى جزء بسيط من عملهم المستمر على مدار الأسبوع، المليء بالمهمات القاسية والمنفرة.

كانت هذه التعليمات تلقى بانتظام من قبل قبطان السفينة على مسمع طاقمه، عوضاً من موعظة يوم الأحد. كانت العقوبات قاسية جداً، وكانت العبارة «سوف يتم إعدامه» لازمة دائمة. أما أكثر العقوبات تكراراً فقد كانت الجلد، إذ يتم ربط المسيء إلى حاجز مشبكٍ، وجلده عدداً محدداً من الجلدات باستخدام سوط القطة، وهو سوط من تسعة حبال ينتهي كل

منها بوزن معدني. ولم يكن العقاب يكفي بجلد المذنب ست جلدات بكل ما أوتيت من قوة كما قد يعني هذا المصطلح، فقد وردت حالات تم جلد أشخاصٍ فيها ثلاثمئة جلدة.

مواد الحرب لعام 1749

19. سيلقى من تسول له نفسه القيام بعمل تخريبي بغض النظر عن دافعه إلى ذلك، سواء كان من أفراد الأسطول أو مرتبطاً بالأسطول، عقوبة الإعدام، عند إثبات التهمة عليه عن طريق محكمة عسكرية. وسيلقى من تسول له نفسه التلفظ بكلمات تحريضية، أو تدعو إلى التمرد، عقوبة الإعدام، سواء كان من أفراد أسطول أو مرتبطاً بالأسطول، أو أي عقوبة أخرى قد تقرها المحكمة العسكرية. وسيلقى أي ضابطٍ، أو بحّارٍ أو جنديٍ من الأسطول أو مرتبطا بالأسطول يجيز لنفسه التعامل بامتهانٍ مع ضابطه الأعلى رتبةً، وهو على رأس عمله، عقوبةً ملائمةً لطبيعة جرمه، ووفق حكم المحكمة العسكرية.

20. سيلقى كل فرد من الأسطول يقوم بإخفاء أي ممارسة، أو مخطط تخريبي، أو تمرّدي- وللمحكمة تقرير هذا الأمر- عقوبة الإعدام، أو أي عقوبة أخرى قد تراها المحكمة العسكرية ملائمة. وسيلقى كل شخص من الأسطول، أو مرتبطٍ بالأسطول يقوم بإخفاء كلمات تخريبية، أو تمردية ضد جلالة الملك أو الحكومة، أو أي كلمات أو ممارسات أو مخططات تهدف إلى عرقلة أداء الخدمة على أكمل وجه، دون اطلاع ضابطه المسؤول على هذه الأمور؛ أو عند حضوره لأي عمل تخريبي أو تحريضي، ولم يقم ببذل أقصى ما يستطيع لإفشال هذا العمل، ما تراه المحكمة العسكرية مناسباً من عقوبة على فعلته.

21. وعلى كل فردٍ من الأسطول، إذا ما وجد سبباً للشكوى على طريقة تزويد الأفراد بقوتهم اليومي، إعلام قبطانه، أو قائده العام بهدوء تام، وحسب ما تقتضي الحالة، ليتم اتخاذ علاج مناسب وحسب ما يقتضيه الوضع؛ وعلى الرئيس، أو القبطان، أو القائد العام الآنف ذكرهم، العمل سريعاً لعلاج هذا الإشكال؛ ولا يسمح لأي شخص في الأسطول مهما كانت الأسباب، محاولة الإخلال بالنظام، وسيلقى من يقوم بهذه الفعلة العقوبة المناسبة التي تقررها المحكمة العسكرية وفق درجة الإساءة.

22. وسيلقى أي ضابطٍ، أو بحارٍ أو جنديٍ أو شخصٍ في الأسطول، يقوم بضرب الضابط الأعلى رتبة منه، أو سحب السلاح عليه، أو يحاول سحب سلاحه أو رفع أي سلاح في وجهه، وهو على رأس عمله، ومهما يكن السبب، وفي حال إدانته بهذه التهمة عبر المحكمة العسكرية، عقوبة الإعدام؛ وسيلقى كل من أدين من المحكمة العسكرية بالقيام بالشجار مع الضابط الأعلى رتبة منه، وهو على رأس عمله، أو عصيان أي أمرٍ قانونيٍ وجّهه له الضابط الأعلى رتبةً، عقوبة الإعدام، أو أي عقوبة أخرى مشابهة وفقاً لطبيعة الجرم ودرجته، وحسب ما ترى المحكمة العسكرية.

23. وسيلقى كل من يتشاجر، أو يتقاتل مع أي شخصٍ آخرٍ، أو كان قد استخدم عباراتٍ أو إشاراتٍ محرضةً أو مهينةً، وكانت الغاية منها إثارة الفوضى أو إحداث شجار، سيلقي– عند إدانتة بهذا الجرم– العقوبة المناسبة له، وكما تراه المحكمة العسكرية.

24. ينبغي عدم التفريط بأي ذرةٍ من ملح البارود، أو أي طلقةٍ أو عتادٍ، مما هو مخزنٌ في الأسطول، وعدم وجود اختلاسات منها، بل يجب حفظ هذه المؤن والمختزنات بعناية فائقة، وسيلقى المسيئون والمحرضون عقوبة ملائمة

لجرمهم، كما تراه المحكمة العسكرية عادلاً بحقهم. (وهؤلاء الأشخاص يخضعون لقانون الانضباط البحري).

25. وسيلقى كل شخصٍ من الأسطول يقوم، عن قصد، بحرق، أو إشعال النار بأي مخزنٍ أو مخزن ملح بارودٍ، أو سفينةٍ، أو قاربٍ، أو كيتش، أو مركبٍ، أو حبالٍ، أو أثاثٍ لا تعود ملكيتها حينها لعدوٍ، أو قرصانٍ، أو متمردٍ، سيلقى، إن أدين بهذا الجرم، من قبل المحكمة العسكرية، عقوبة الإعدام.

26. يجب توخي الحذر في إدارة سفن جلالة الملك وتوجيهها، ويجب ألاّ تتعرض أي سفينة عن قصد أو جهل أو أي سبب آخر، للمحاصرة، أو أن تندفع فوق صخور أو رمال، أو تتصدع، أو تتعرض للخطر، وسيتعرض كل من تثبت مسؤوليته عن هذا الجرم لعقوبة الإعدام، أو أي عقوبة قد تراها المحكمة العسكرية مناسبة.

27. ولا يجوز لأي فرد من أفراد الأسطول أو مرتبط به، أن ينام خلال فترة مناوبته، أو أن يخلَّ بالقيام بالواجب الموكول إليه، أو أن يترك محطته؛ وسيلقى من يقوم بهذه الأفعال عقوبة الموت، أو أية عقوبة أخرى قد تراها المحكمة العسكرية ملائمة، وكما تستدعي ظروف القضية.

28. وسيتم إيقاع عقوبة الإعدام بحق كل من يرتكب جريمة قتل، وفق حكم المحكمة العسكرية.

29. وسيلقى كل شخص في الأسطول يقوم بارتكاب رذائل اللواط مع بشر أو حيوان، عقوبة الإعدام وفق حكم المحكمة العسكرية.

30. وسيلقى كل من يقوم بالسرقة عقوبة الإعدام، أو حسب ما تراه المحكمة العسكرية مناسباً، بعد النظر في الظروف.

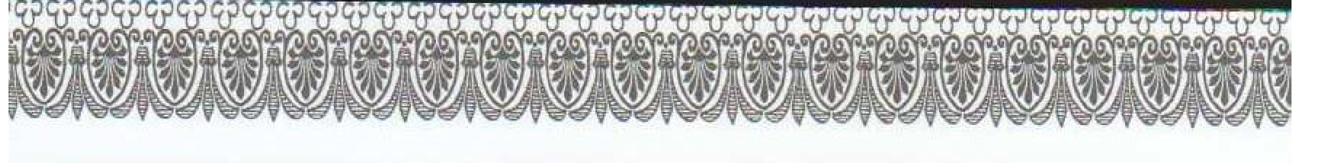
ورغم كل ما تحدثنا عنه، كان البحارة يحصلون على وجبة دسمة يومياً، فقد كانت صفائح المطعم المربعة مليئة بمصدر لا ينفد من الطعام الكئيب المقزز. ولم تكن قائمة الطعام الأسبوعية تتغير كثيراً، فقد كان النظام الغذائي قائماً بشكل أساسي على اللحم المحفوظ عن طريق تمليحه ووضعه في براميل، ولجعله قابلاً للأكل، كان يجب غمره بالماء للتخلص من الملوحة. ويستمد البحارة حاجتهم من النشويات من كعكة قاسية أو بسكويت البحر. ولا بد أن هذا الخبز القديم المكون من الماء والطحين قد غزاه السوس، الذي قد يضيف إليه المزيد من البروتين، ولكن بشكل مقزز. وقد غابت الخضراوات عن هذا النظام الغذائي باستثناء البازلاء المجففة والمنقوعة بالماء.

قد لا يبدو هذا النظام الغذائي سيئاً بالنسبة إلى ذوق عمّال عاشوا في القرن الثامن عشر، بقدر ما نراه سيئاً الآن. ومع ذلك، فإن وجود بند من بنود الحرب ذي علاقة بالشكاوى حول الطعام، لهو دليل بيّن أن على الأمور في المطبخ لم تكن دائماً على خير ما يرام.

ومما يعزّي النفس على الدوام أن هناك الكثير من المشروبات؛ ويستطيع كل بحار تناول غالونٍ من البيرة يومياً مع وجبته المكونة من رطل من الخبز، ورطل من اللحم. نعم، يستطيع كل شخص تناول ثماني بنتات (البنت يعادل نصف لتر). غير أن هذه البيرة كانت خفيفة – وليست كحولية تماماً. بيد أن أكثر مشروب قد يسبب ضرراً، هو المشروب المسكر الممزوج بالماء ويدعى (جروج).

وكانت حصة كل رجل على سطح السفينة نصف بنت (ربع لتر من مشروب الرم)، الذي يخلط بالماء لصنع مشروب جروج. لهذا كان الرجال يقومون لعملهم، وقد عبوا ثمانية بنتات من البيرة المخففة، واثني عشر بنتاً من خليط الروم والكوك، ويمكن القول إن المعتلين كانوا يزحفون على حبال الأشرعة والسواري وهم في حالة سكر دائمة.

إن السبب الرئيس وراء لف الأشرعة وتركها تضرب عنان الرياح هو القتال. ولا تعدو



وجبة الملاح المربعة. قد تكون براميل لحم الخنزير والبقر المالحة التي تمد هذه الوجبات بمكونها الأساسي الشديد الملوحة قد قطعت المحيط الأطلسي مرتين أو ثلاثة، وقد يكون قد مضى عليها أشهر أو سنوات.

هذه المراكب ذات الصواري الثلاث عن كونها بطاريات مدافع عائمة، وكانت إحدى أهم مهام المعتلي تشغيل هذه المدافع العظيمة.

وقد أتقنت طواقم السفينة تصويب مدافعها وتوقيت هجومها الكثيف مع وقع ارتفاع السفينة وانخفاضها بسبب الموج. ولم يتوقع منهم أن يكونوا قادرين على إطلاق مدافعهم بشكلٍ عشوائي فحسب، بل عليهم التصويب نحو السارية الرئيسة، وإشعال النيران بسفينة العدو قبل أن يتم تحميلها بركابها عن طريق طلقات مدفعية ذات عياراتٍ صغيرةٍ لتشتيت المدافعين الرابضين.

وقد تكون مدافع السفينة– في حال لم يتم التعامل معها كما يجب– قاتلةً كحال عدوهم تماماً. وقد يكون ارتداد المدفع عند إطلاقه أحد المخاطر الرئيسة التي يواجهها البحارة. فالمدافع موضوعة على عجلات وقد تدفعها قوة إحدى الرميات المليئة ذات الاثنين والثلاثين



يتناول القبطان غداءه بشكل مرفه، وبخاصة إذا كان يعمل لحساب شركة الهند الشرقية. وتستطيع أن ترى في كرتون جيلراي هذا القبطان وهو يترف ضيوفه في كابينته بالقرب من سلسلة عريضة من النوافذ الممتدة على عرض مؤخرة السفينة.

رطلاً إلى الخلف مسافة تبلغ خمسين قدماً، ويفوق هذا عرض السفينة نفسها، لهذا كانت المدافع مربوطة بحبال لتقليص مسافة ارتدادها إلى عشرة أقدام. وكان على آمر المدفع أن ينحني ليصل إلى البرميل ويشعل شرارة المدفع، وعليه أن يتمسك بثبات إلى الأسطوانة وهي تطلق قذائفها من الأعيرة.

وخلال عملية الإطلاق، قد تتعرض أي قدم أو حتى إصبع، تعترض طريق القذيفة، للسحق. وفي المعركة، كثيراً ما يتم الاستغناء عن بعض المدافع، وبذا يصبح «المدفع الطليق» مهمة مميتة لكل من قد يوجد على منصة المدافع. فكيف لهم التعامل مع أطنان من المعدن المتدحرجة للأعلى والأسفل مع الأمواج، مخترقة صفوف طواقم المدافع الأخرى.

ويقوم على تشغيل كل مدفع طاقم مكون من ستة أفراد، ويعرف كل فرد فيه مكانه، ويعلم أن عليه إطاعة أوامر إطلاق النار. وقد يشكل حشو ملح البارود في مدفع ساخن دون ترطيبه،

نهاية محتومة لجميع أفراد الطاقم. ولهذا تم إعطاء أفراد طاقم المدفع أرقاماً لتفادي حدوث أخطاء. ويقوم الرقم واحد، وهو قبطان المدفع بأعداد المدفع ومراقبة الهدف، وإعطاء الأوامر لتصويب المدفع، ومن ثم يقوم هو نفسه بإطلاقه، ويقوم رقم اثنين- بمساعدة رافعة- بإدارة ورفع برميل المدفع. ويقوم رقم ثلاثة بحشو المدفع بالعتاد المطلوب- كالطلقات المستديرة الضخمة، أو الطلقات العنقودية، أو الطلقات المتسلسلة، أو الطلقات الأسطوانية. ويقوم رقم أربعة بإخماد الشرارات في البرميل بمسحها قبل حشوها. ويقوم رقم خمسة بتحريك برميل المدفع وتمرير العتاد.

ويظهر الجدول الآتي الإصابات التي تكبدتها البحرية البريطانية ثمناً لسيادتها البحرية.

الإصابات البريطانية وإصابات العدو في الانتصارات الستة الأخيرة.

المعركة	البريطانيون			العدو (تقريبي)			
	القتلى	الجرحى	المجموع	قتلى	جرحى	المجموع	أسرى
الأول من يونيو 1794	287	811	89	1500	2000	3500	3500
خليج القديس فنسنت 1797	73	227	300	430	570	1000	3157
كامبرداون 1798	203	622	825	540	620	1160	3775
النيل 1798	218	677	895	1400	600	2000	3225
كوبنهاجن 1801	253	688	941	540	620	1160	3775
تراغلغار 1805	449	1241	1690	4408	3545	6953	7000
المجموع	1438	4266	5749	9068	7245	16،313	22،657

وثمة رقم ستة كذلك.

في العادة تتم تغطية منصة المدفع بالرمل ليقوم بامتصاص الدم، وإعطاء الطاقم قدرة على الثبات، وورد في بعض الروايات عن تدفق الدم عبر الفتحات في جوانب السفينة في بعض الاشتباكات. ويظهر الجدول ارتفاعاً ملحوظاً في أعداد الإصابات حتى في جانب المنتصر،

ولا بد أن أصوات إطلاق المدافع المزعجة، وصراخ المصابين والمحتضرين، وأصوات تحطم مقدمة سفينة العدو مع هيكلها، كانت جميعها مخيفةً جداً. ومن الصعب علينا أن نتخيل عملاً أسوأ من كونك رجلاً تعمل في ظل هذه الظروف، سوى أن تكون غلاماً.

قرد البودرة/ ملح البارود (Powder Monkey):

كان الرقم ستة هو قرد البودرة، وكان مسؤولاً عن مد آمر المدفع بملح البارود الذي يحتاجه في إعداد المدفع. حرص طاقم المدفع على الاحتفاظ بأقل عددٍ ممكنٍ من طلقات المدفع بالقرب من المدفع، لأن ملح البارود سريع الاشتعال، وكان على قرد البودرة أن يعدو في سباق متتابع من ساحة القتال عند منصة المدفع، إلى المستودع في أعماق السفينة.

وللقيام بهذا العمل السريع، تم توظيف غلمان قد يبلغ عمر بعضهم ست سنوات. وفي



تبدو على هذا الولد، من مجموعة بحرية مشكلة حديثاً على نمط المجموعات التاريخية، المظاهر الملازمة لقرد البودرة.

الحقيقة، قد يقوم بهذا العمل كل من لم تكن له علاقة بالمدفع. وقد توجد على سطح السفينة نساء يفوق عددهن توقعاتنا، وهؤلاء كن يقمن بهذا العمل أيضاً. ونستمد معرفتنا حول هذا الأمر من قيام الحكومة بمنح ميداليات بحرية لأولئك الذين اشتركوا في القتال في معركة النيل، حيث قام كثير من النساء بالتقدم للحصول على هذه الميداليات. (ونظراً لاحتلال الرجال المراتب العليا في الخدمة ، تم رد هذه الطلبات).

وكان المستودع غرفة مبطنة بالنحاس موجودة في قلب السفينة؛ ويساعد النحاس في الحفاظ على جفاف البودرة، وهو- على عكس الحديد- لا يصدر شرارات قد تشعل ملح البارود، ويقوم المدفعي الرئيس في غرفة التزويد بملء الخرطوشات بملح البارود، ويقوم بتسليمها لقردة البودرة عبر ستارة مبللة تعرف «بشاشات لا تخش شيئاً»، التي تحفظهم من الحرارة والوهج الداخل. ولكن لم تكن هذه الاحتياطات ذات جدوى على الدوام، ففي معركة النيل، وصلت كرة مدفع ملتهبة إلى مستودع ذخائر السفينة الفرنسية «الشرق»، ولم يتم العثور على أي جثة جراء الانفجار.

وكان «قردة البودرة» على دراية تامة بما قد يستطيع ملح البارود فعله، وبدا أشد المواقف رعباً في عملهم هو رحلة عودتهم من غرفة التزويد، عبر الممرات الضيقة وعلى السلالم، إلى مجزرة المدافع حاملاً خرطوشة من ملح البارود قد تقتلهم على الفور. وشكل هذا العمل طريقاً أمام الشباب للوصول إلى المجد، أو منفذاً للتخلص من فقرهم المدقع. بيد أن حقائق الحرب لابد أنها قد وضعت نهاية مفزعة وسريعة لطفولتهم.

ومع هذا، فهناك عزاء وحيد لهؤلاء؛ فإذا ما بقوا على قيد الحياة، ووضعوا أيديهم على سفينة للعدو، فإن جميع الطاقم- بما فيهم قردة البودرة- سيقتسم الغنيمة المالية، وكان لهم أيضاً حق الشعور بالفخر كونهم جزءاً ممن جلب لبريطانيا الشهرة، والحديث هنا عن البحرية الملكية. ومع هذا لم يتح لبعض هؤلاء الأطفال تجربة هذا العزاء.

ويقودنا هذا إلى ما يمكن عده بلا منازع أسوأ مهنة في العهد الجورجي.

أسوأ مهنة على الإطلاق

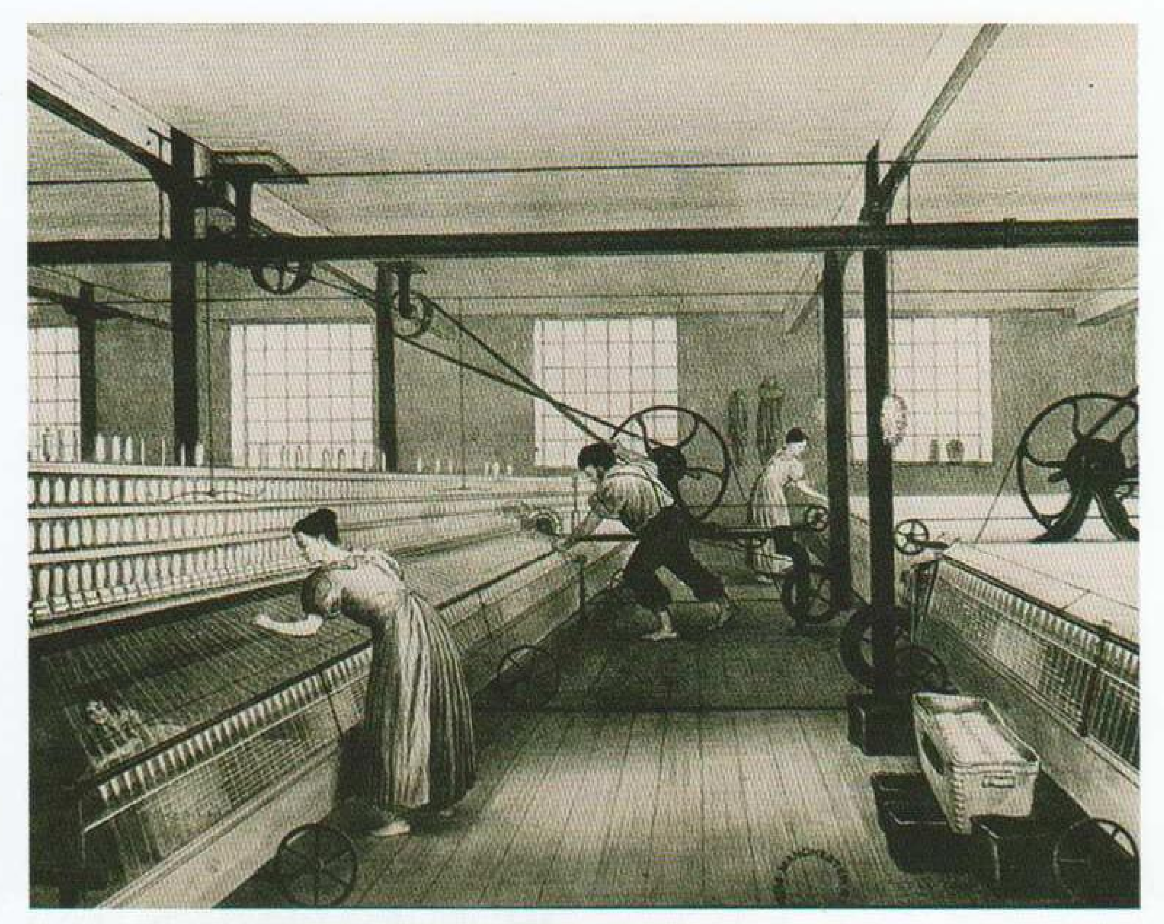
نقاب آلة الغزل (Mule Scavenger):

شكلت مصانع القطن والصوف في شمال إنجلترا القوة الدافعة وراء الثورة الصناعية، فقد شهد القرن الثامن عشر قفزة نوعية في التكنولوجيا، التي قادت إلى عمليات إنتاج ضخمة، وأسهم اختراع هارغريفز للنول عام 1765، واختراع اركرايت لآلة الغزل عام 1769، واختراع كومبتون عام 1779 للنسّاجة في إحداث ثورة في عالم الغزل والنسيج، وأصبح الكثير من مالكي المصانع مغالين، وقصيري النظر في استخدامهم لهذه التكنولوجيا، واغتنموا كل فرصة قد تدفعهم نحو سهولة الإنتاج وزيادته، ولهذا، هبَّ هؤلاء لاستخدام المحرك البخاري- عندما اخترعه جيمس وات- كي يزيدوا قوة الماء التي تدفع النول.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالعمالة، كان هؤلاء بعيدين كل البعد عن التفكير الإيجابي، فقد كانوا أقرب إلى السيد الإقطاعي منه إلى صاحب عملٍ متنوّرٍ، وضمت المراتب الدنيا من عمال المصانع بعض أكثر الأعمال سوءاً في التاريخ، ويقبع المبتدئون في أدنى المراتب، وأكثرهم حداثةً ووضاعةً هم نقابو النساجة.

وكان ينظر إلى شاغلي هذه الوظيفة كمجرد سلع. ونستطيع تلمس هذه الفكرة بوضوح من خلال تتبع تاريخ أحد المصانع، ألا وهو كواري بانك في ستايل، الواقع على أطراف مانشستر. ويعد كواري بانك الآن متحفاً رائعاً للفترة الصناعية، فهو لا يضم آلات ذلك العصر فحسب، وإنما يتجاوز ذلك ليضم سجلاً حياً للناس الذين عملوا في تلك المصانع.

وقام مالك المصنع عام 1791 ويدعى صموئيل كريغ، وهو الذي كان يعدُّ أقسي صاحب عملٍ في ذلك العصر، بابتكار طريقة غير مألوفة لمشكلة نقص العمالة. فقرر شراء بعض الأطفال المتهنين من إصلاحية الأحداث المحلية، كما قام ببناء دارٍ للمبتدئين كلفته 300 جنيه إسترليني، أسكن فيها تسعين طفلاً، وأسهم هذا الاستثمار في إيجاد روح تجارية جيدة. ودفع هذا الأبرشيات لأن تعرض على مالكي المصانع حلويات قد تبلغ حصة الطفل منها من رطلين إلى أربعة أرطال، إذا وافق مالكو المصانع على إخراجهم من الإصلاحيات. وبهذا حصل مالك المصنع على ماله قبل أن يباشر هؤلاء المبتدئون عملهم. وشكل هؤلاء المبتدئون



تظهر الصورة التي تعود للعام 1823 الآلة التي على الجامعين والمنقبين العمل عليها مدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم. ويظهر في يسار الصورة منقبٌ يقبع تحت الآلة لجمع أجزاء القطن المتساقطة. قد تبدو هذه الآلة بالأبيض والأسود غير مضرة، بيد أن لحظة غفلة قد تجعلها تشوه وتقتل.

نصف القوة العاملة في «كواري بانك» البالغ عددهم ستين ولداً وثلاثين بنتاً؛ كان بعضهم في الثامنة من عمره. وكان هؤلاء يستيقظون مع بزوغ الفجر في مساكن تؤمن لهم فراشاً واحداً لكل زوج منهم ليبدؤوا مناوبة قد تطول اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة، وتلقوا مقابل عملهم هذا طعاماً وإقامة، ومصروفاً يبلغ بنسين في الأسبوع.

وكانت الأعمال الابتدائية التي قد يشغلها الممتهن في بداية مشواره العملي هي «التجميع»، وتتطلب هذه الوظيفة الانحناء فوق النول للف أطراف القطن المتكسرة بعضها مع بعض، أما العمل الآخر فهو «التنقيب»، ويتطلب النظر في النساجة التي اخترعها كومبتون، وكانت تسمى حينها «ميول» (Mule) وهي ذات الكلمة التي تعني بغلاً.

وضمت هذه المهنة خطورة التعرض لحادث قد تترتب عليه مشاكل صحية طويلة

الأمد، وكانت هذه المهنة مملة وقاسية في آن واحد. وتطلب القيام بها العمل في ظروف مهنية جديدة، ألا هي المصنع.

وبالطبع، لم يكن مصنع «كواري بانك»–وهو في ذروة تشغيله– مزعجاً كمنصة المدفع على السفينة، لكنك تعلم تماماً أن المدافع ستتوقف في وقت ما، في حين أن أصوات الخبط والقعقعة الصادرة عن الآلات كانت سرمدية، وشكلت ضجة مربكة جعلت الاتصال البشري حينها مستحيلاً تقريباً.

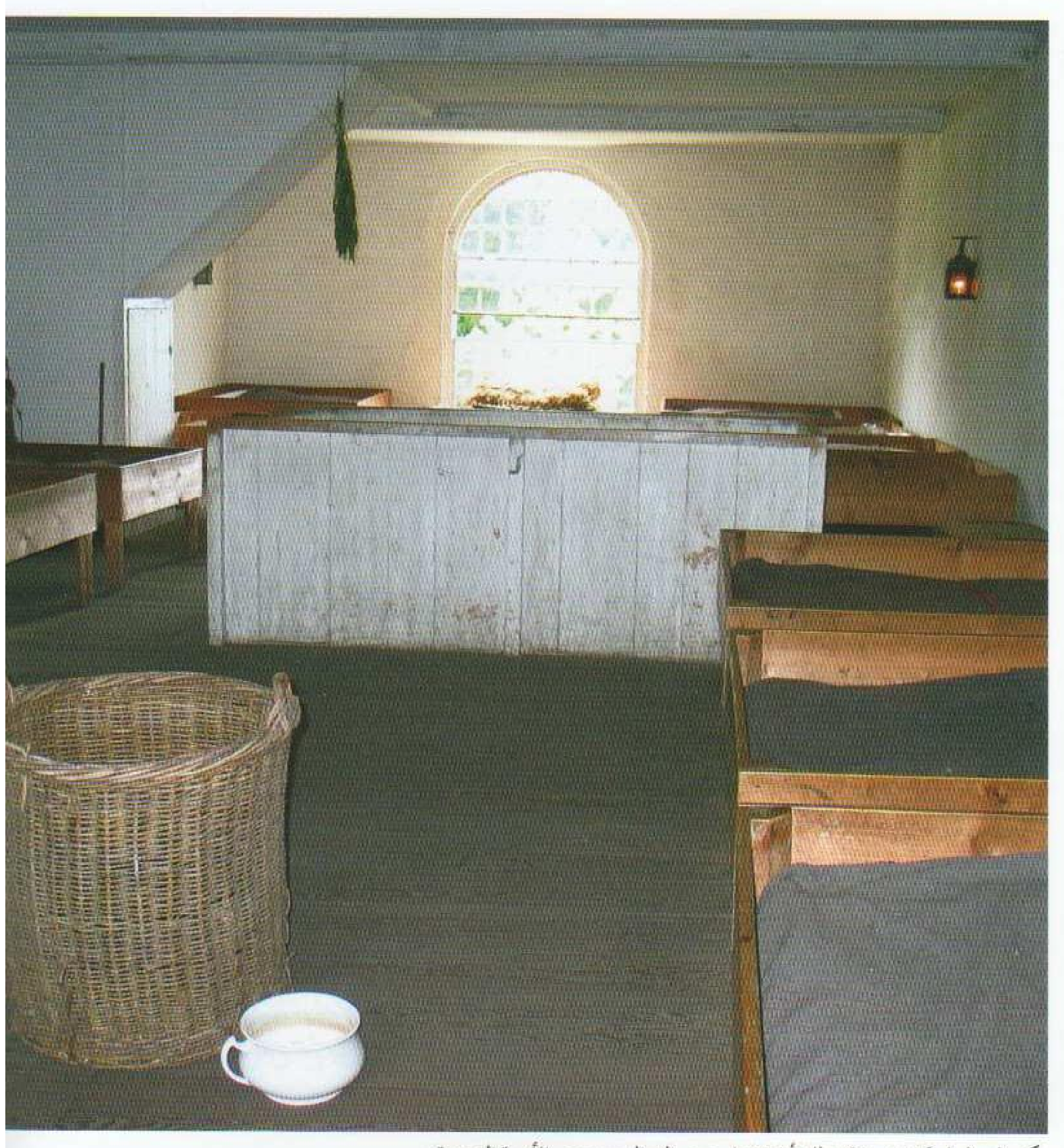
أضف إلى ذلك الحرارة الخانقة والهواء الثقيل. فلمنع القطن من الجفاف، كان يجب المحافظة على جو العمل دافئاً، ورطباً. وقد يتسبب غبار القطن المتطاير في إصابات معدية للعين، ومرض الرئة المسمى بسينوسيس (Bissinosis). والعبارة التي نستخدمها هذه الأيام للإشارة إلى كوننا منهكين، ومستهلكين، ومنبوذين هي «كالعمل في مصنع»، وهذه العبارة مستمدة من أثر العمل في هذه الصناعة الوليدة على وضع الناس الجسدي.

كان عمل النّقاب بسيطاً، ففي أثناء تحرك النساجة إلى الأمام والخلف لنسج الخيوط إلى بعضها، قد تتساقط بعض الأجزاء، وقد يتجمع زغب القطن في الأسفل وعلى الأجزاء المتحركة. ويجب جمع هذه الأشياء لتتم إعادة استعمالها مرة أخرى وتجنب وقوع الحوادث.

ويتلقى الحائكون أجرهم وفق عدد القطع التي يقومون بإنتاجها، ولهذا لم يكن النول يتوقف لأي سبب كان. ويقوم النقابون، صغار السن، بالعدو جيئة وذهاباً على أيديهم وأرجلهم تحت النول وفي أيديهم فرشاوات وأكياس، محاولين تجنب الأذرعة المعدنية، وزاحفين للابتعاد عن طريق الآلات. وكان غبار القطن الخانق الذي يملأ غرف المصانع سريع الاشتعال. ولهذا كان النقاب يعمل بقدمين عاريتين عوضاً من ارتداء قبقابه الاعتيادي ذي النعل المسماري، الذي قد يصدر شرارة تؤدي إلى حريق.

وكانت سلامة هؤلاء الأطفال ترتكز على مزامنة حركاتهم مع وقع النساجة. فإذا ما علقت يد بخيوط النول، أو انتهى بها الأمر في مكان خاطئ عند عودة الذراع المعدنية الثقيلة إلى مكانها، فإن كارثة محققة قد تحدث. وفي ذاكرة المصنع، لا يتم تسجيل سوى الحوادث الضخمة، ففقدان إصبع أو يدٍ لم يعد جديراً بالذكر.

ولا يخفى على أحد أن الزحف على اليدين والركبتين طوال الوقت مرهقٌ جداً، وأن



سكن العمال في كواري بانك. لك أن تتخيل حجم العمال من حجم الأسرة الصغيرة.

الأطفال الصغار غير حذرين معظم الوقت. وقد يصبح التركيز مستحيلاً بعد قضاء اثنتي عشرة ساعة في تلك الحرارة. لهذا لم يكن أمر وقوع الكثير من الحوادث مستغرباً. وتم تسجيل الحادثة التالية في كواري بانك:

وقع في السادس من مارس عام 1865 حادث مأساوي لغلام يدعى جوزيف فودين كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً. فبينما كان يكنس تحت إحدى الآلات. علق رأسه بين العارضة الدولابية والحامل- الذي كان يعود إلى مكانه – مما أدي إلى سحق رأسه بالكامل – وكانت وفاته فورية.

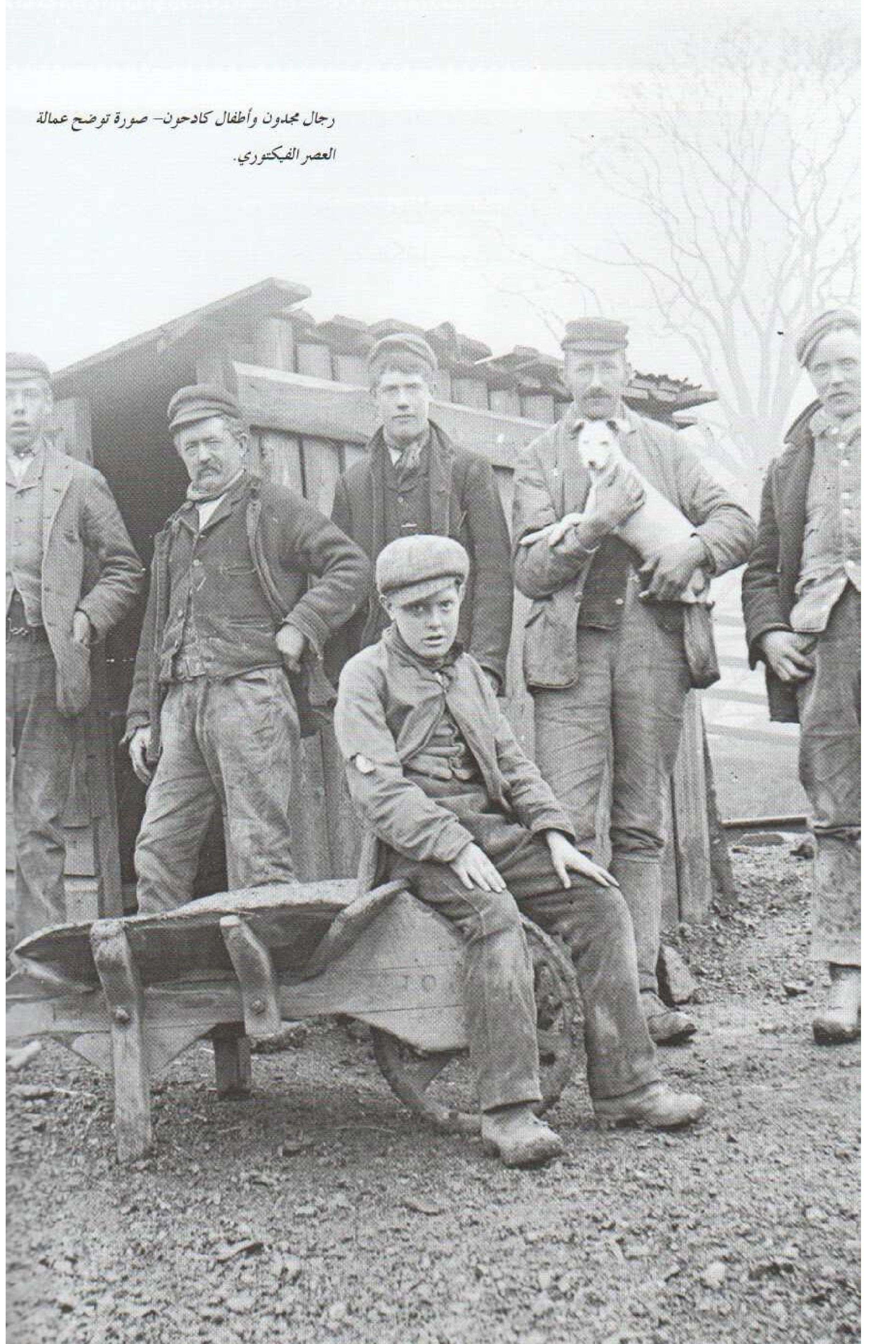
بيد أن المشرفين لم تأخذهم شفقة إزاء تقصير هؤلاء الصغار، فأي تقصير في العمل كان عقابه الضرب بعصا أو حزام. وفي إحدى المصانع، كان ثمة حوض مائي يغمس فيه أي طفلٍ وُجد يترنح نعساً.

وكان هناك بالطبع هاربون من هذا السجن الافتراضي، فتوماس بريسلي، الذي فقد السبابة في إحدى الآلات قد قرر مع مبتدئ آخر يدعى جوزيف سيفتن، شق طريقه نحو الحرية. ولقد كشف بريسلي في شهادته أمام قاض، في ميدلسيكس بعد هروبه أن المبتدئين لم يتم منحهم استراحة طعام مناسبة. «وكانت ساعات عملنا تبدأ الساعة السادسة صباحاً صيفاً وشتاءً، وتستمر حتى السابعة مساءً، وكانت وجبة الفطور تأتينا على الدوام إلى المصنع، ويتم منحنا، خلال يومين في الأسبوع فقط، ساعة لتناول العشاء».

أنتج «كواري بانك» 342,578 متراً من القماش. وتضاعف الإنتاج بعد عقد من الزمن. واعتقد مالكو المصانع كصموئيل كريغ أنهم سيخسرون الكثير، ولن يجنوا شيئاً إن عاملوا عمالهم بطريقة أفضل.

ورغم ما سبق، أخذ البندول خلال القرن التاسع يتأرجح، وتغيرت الظروف بشكل كبير. واستهل هذه التغيير عام 1818 عندما بدأ غازلو القطن في مدينة مانشستر إضراباً عاماً. وقاد هذا النزاع إلى وقوع مجزرة بيترلو المفزعة. ولكن لم يكن بمقدور أحد الوقوف في وجه حركة حقوق العمال. وبحلول عام 1833، حظر قانون المصانع توظيف عمال لم يبلغوا التاسعة من العمر أو استعمالهم، وبدا حينها أن الأمور على وشك أن تتحسن.

قد لا يكون هذا الأمر صحيحاً، فالعمال يناضلون لتحقيق ظروف أفضل، غير أن العصر الفيكتوري كان على وشك أن يبزغ فجره بما يضم من أعمال سيئة تخصه.



رجال مجدون وأطفال كادحون- صورة توضح عمالة العصر الفيكتوري.

الفصل السادس

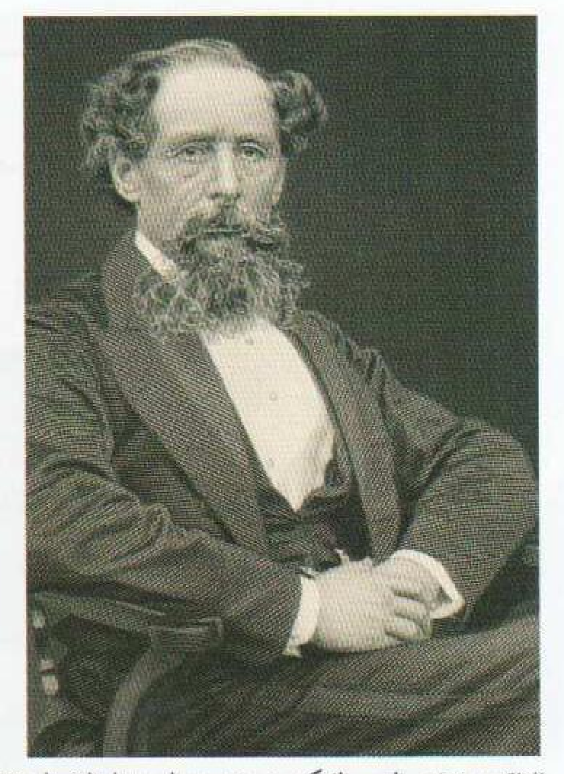
أسوأ المهن في العصر الفيكتوري



أصبح وقع التقدم العلمي والاجتماعي خلال سنوات حكم الملكة فيكتوريا استثنائياً، بيد أن الجانب الآخر للمعجزة الفيكتورية اقتصادياً وتكنولوجياً، تمثل في حياة سمتها العامة الوضاعة واليأس، وقد كانا سائدين لدى السواد الأعظم من السكان ومتزايدين على الدوام. وترك لنا كتّابٌ من أمثال تشارلز ديكنز، والسيدة نماسكيل والسير آرثر كونن دويل صورة حية للجانب المظلم من الحياة الفيكتورية. ومهما كانت تلك القصص مأساوية، في واقع الامر، فإن الحقيقة كانت أسوأ بكثير.

وقد هجر الملايين من سكان الريف- مدفوعين بفقرهم المدقع- حياة الريف، متجهين صوب المدينة النامية، وبذا أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من عالم الآلات المترامي الأطراف، الذي يعج بالدخان. وأصبح أسلوب الحياة الجديد، الذي اتبعه الكثير من هؤلاء المدنيين الفقراء بعيداً كل البعد عن مُثل الحياة الفيكتورية المحترمة. وانتشرت أوكار الأفيون، وأصبح تعاطي المخدرات أمراً شائعاً. ورغم الطلاوة البلاغية التي اتسمت بها المسيحية الفيكتورية، فإن أقل من خمسين بالمئة من السكان كانوا يذهبون إلى الكنيسة.

قام الفيكتوريون بفحص كل شيء تطاله أيديهم وتصنيفه، ونستطيع تلمس آثار هذه الطريقة التحليلية في الاختراعات العلمية العظيمة التي حدثت في القرن التاسع عشر، وفي التقدم العلمي النوعي الذي حدث عبر تشارلز داروين، ونظرية التطور التي اقترحها. وقد طال أسلوب الاستقصاء هذا الجانب الاجتماعي. فلأول مرة في التاريخ، بدأ الناس في جمع ملاحظات جادة حول ما يقوم به الفقراء، وكيف يعيشون. ولتشارلز ديكنز نفسه تجربة شخصية عرّفته كُنْه أسوأ الأعمال، فعندما بلغ الثانية عشرة من العمر، امتهن لصق الطوابع



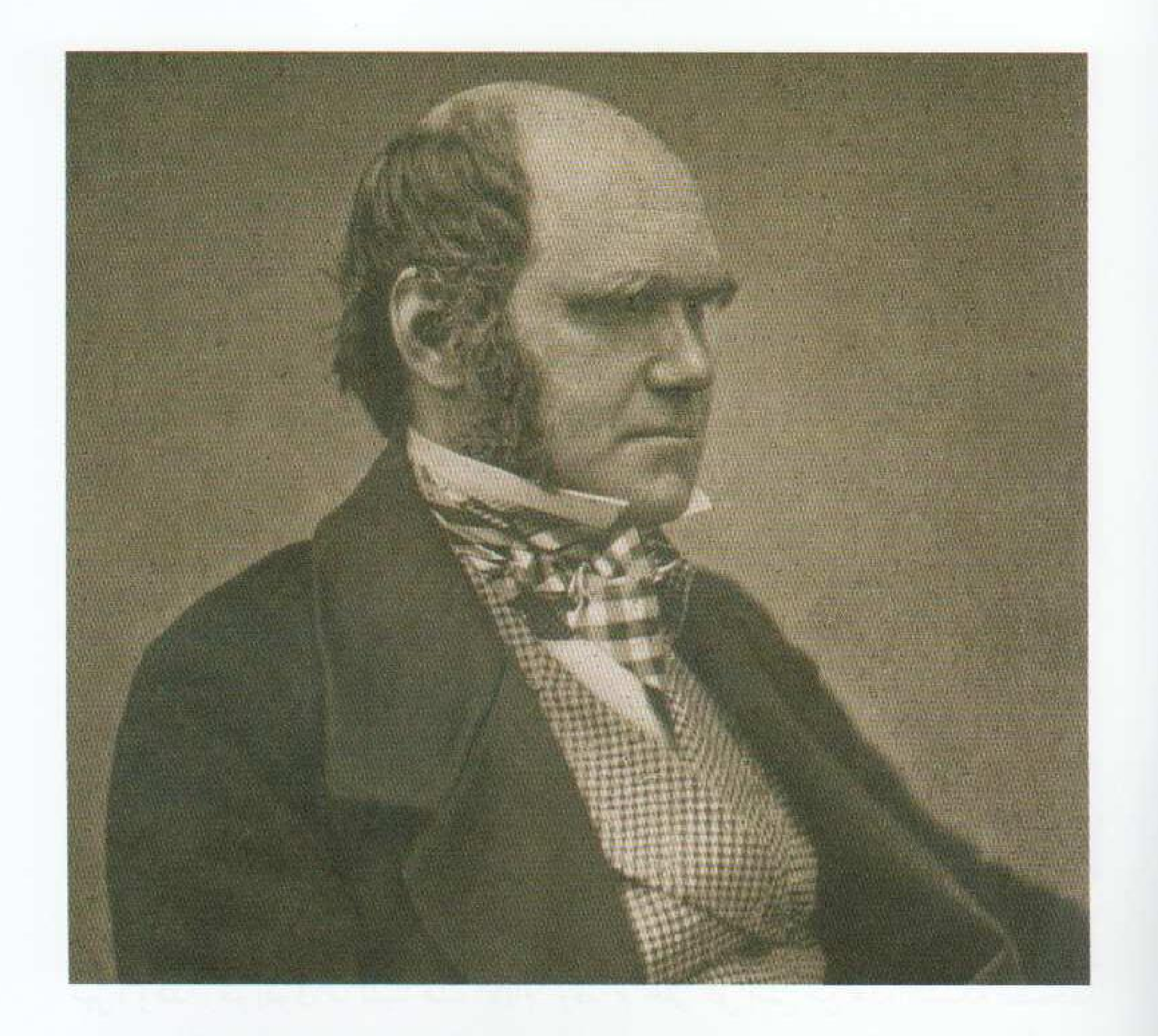


ثلاثة من مشاهير العصر الفيكتوري وهم من اليمين إلى الشمال: تشارلز ديكنز، وهنري مايهيو، وتشارلز داروين.

الممل في مصنع وران بلاكنغ بالقرب من ستراند في لندن، وأهله ذلك لتصوير الجوانب المشينة في المجتمع الفيكتوري في جميع رواياته. ولقد ترك المجال مفتوحاً أمام الآخرين، وعلى الأخص الصحفي هنري ماي هيو لتوثيق أدق التفاصيل في حياة العمال.

كرس هنري ماي هيو نفسه للقيام بمشروع يهدف إلى تقصي جميع جوانب حياة الفقراء، وجمع قصصاً عنهم من عُمّال لندن الذين قابلهم بنفسه، وقام بوصف ظروف العمل التي كانوا عليها. وهو هنا يصف جزيرة يعقوب في بيرموندساي:

سطعت الشمس على مجرى ماء ضيق، في أثناء مرورنا بفتحات التصريف التي كانت تعجّ برائحة لا تحتمل. ولقد ظهر لون هذا المجرى في ضوء النهار كلون شاي أخضر ثقيل، وبدا قاسياً كقطعة رخام سوداء في الظل. وفي الحقيقة، كان كالطين اللين، أكثر منه ماء متطيناً. ومع هذا تلقينا تأكيدات مفادها أن هذا هو الماء الوحيد الذي كان السكان البؤساء



مضطرين لشربه. وفي أثناء تحديقنا بفزع شديد في هذا الماء، رأينا المياه القذرة ومياه التصريف تصب بما تحمله من قاذورات في هذا المجرى، ورأينا صفاً كاملاً من الحمامات العامة لكلا الجنسين، وقد تم بناؤها عليه. وسمعنا دلاء القاذورات وهي تندلق في هذا المجرى... وسألنا إن كانوا يشربون هذا الماء بحق.

وكان الجواب أنهم مضطرون لشرب هذا الماء، وأنهم دونه سيستجدون قطرة الماء أو سيضطرون إلى سرقتها.

وتوجز الطرق الحديدية أفضل ما في العصر الفيكتوري وأسوأه. فقد غيرت حياة من يستطيع استخدامها بشكل مؤثر جداً. وتمكن قاطنو المدن- أفراد الطبقة الوسطى- عبرها من الانتقال إلى الشاطئ، وتم خلالها نقل منتجات الريف الطازجة إلى قلب المدن دون أن تفقد نضارتها؛ كما أتاحت شبكة الخطوط الحديدية المجال أمام الصناعات لنقل منتجاتها بفاعلية أكثر، وأصبحت أقصى بقاع الجزر البريطانية متاحة للجميع، ولم يكن لهذا التغير الجذري أن يحدث لولا آلاف الرجال الذين كدحوا ساعات طويلة، وعرضوا أنفسهم لخطر دائم، وعانوا إصابات بالغة.

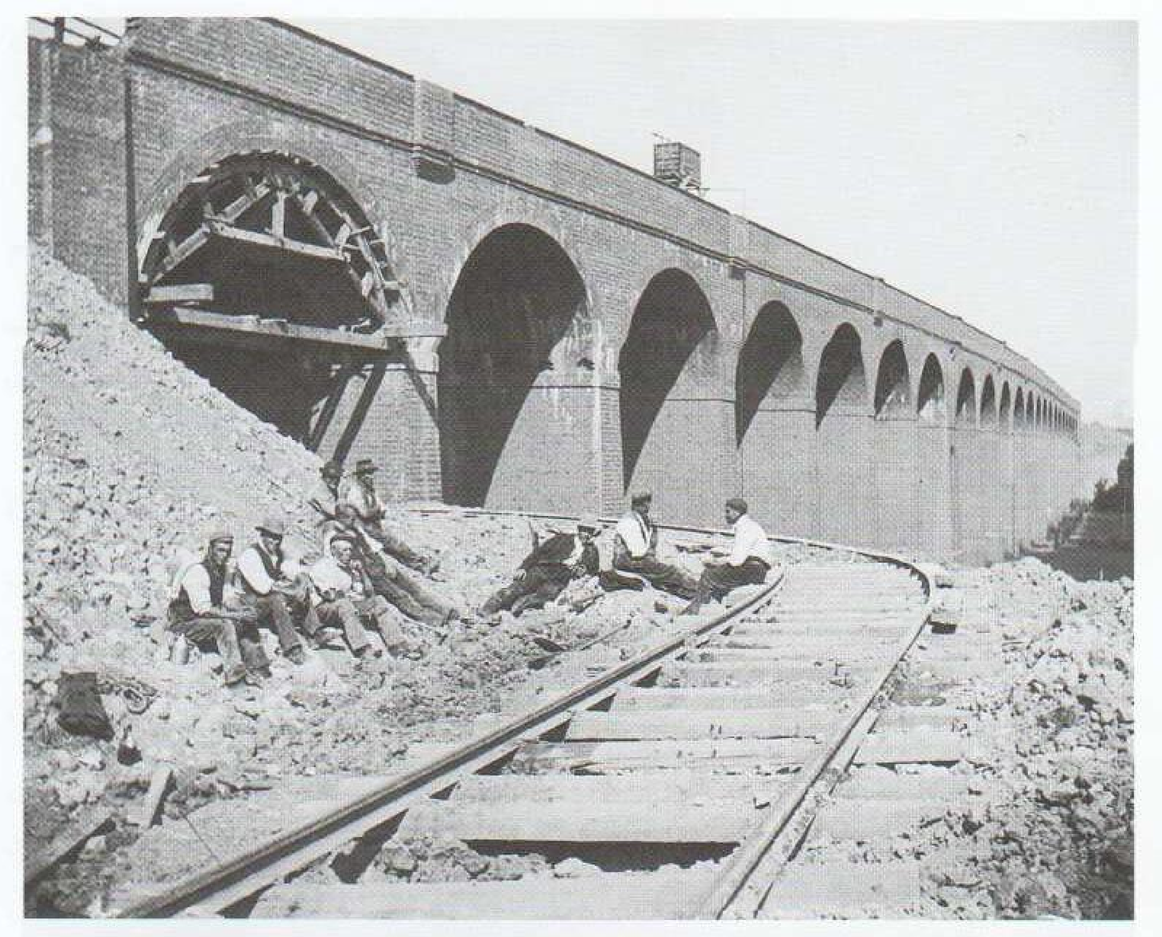
حفار السكك الحديدية/ الماهن (Navvy):

اشتقت كلمة (Navvy) وتعني «ماهن» من الكلمة (Navigator) وتعني «الملاح» أو «المستكشف» إشارة إلى الرجال الذين شقوا قنوات الملاحة العظيمة، غير أن حفر شبكة من القنوات كان مجرد تدريب بسيط على عملهم الهائل في مد شبكة ضخمة من السكك الحديدية، سرعان ما غطت جميع أرجاء بريطانيا.

فقد بلغ طول السكك الحديدية عام 1830 سبعةً وتسعين ميلاً؛ وارتفع العدد عام 1840 إلى ألف وأربعمئة وسبعة وتسعين ميلاً. وبلغ، عند وفاة الملكة فيكتوريا، اثنين وعشرين ألف ميل، وهذا رقم يفوق ما لدينا هذه الأيام. وقد تم حفر كل إنش من هذه الشبكة الضخمة ومدّه يدوياً، أو لنقل عبر ملايين الأيدي.

وكان على المُهّان إعادة تشكيل الأرض أمامهم، فقد كان عليهم رفعها عندما تنخفض، وحفرها أو المرور عبرها عندما ترتفع. وكانت أدواتهم الوحيدة هي العربة، والمحفار، والمعول. وعُدّ عملهم هذا بعيد المنال.

وقد بلغ عدد المُهان في بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر مئتين وخمسين ألفاً، جاؤوا من جميع أرجاء بريطانيا كلانكشاير، ويوركشاير، وإسكتلندا، وغدا معظمهم، بعد مجاعة البطاطس العظيمة، إيرلنديين. وأقام هؤلاء في أكواخ بنيت بالقرب من الخطوط التي كانوا يمدونها. فقد كان الكوخ الواسع منزلاً لعشرين رجلاً؛ وتكلفة السرير بنساً ونصف البنس في الليلة. وقامت مُدن كاملة من تلك الأكواخ في هذه المستعمرات الصغيرة، أطلق

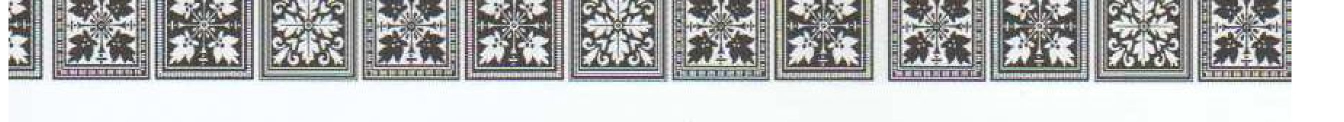


كانت سكك الحديد التي مدها الماهنون معجزة هندسية شبه كاملة. وتظهر في هذه الصورة شبكة السكة الحديدية المتقنة وقد التفت تحت جسر ضخم.

عليها أسماء مثل «باثي غروم» (bathy grom) وجيركو (Jericho). وبلغ عدد القاطنين في هذه التجمعات المدنية المؤقتة في وودهيد، الواقعة بين مانشستر وليفربول عام 1845م، ألفاً وخمسة وأربعين رجلاً.

وبدا هؤلاء كجيش غازٍ حظي بكراهية السكان المحليين، الذين كانوا يخافونهم أيضاً. وقد أعلن الملازم بيتر ليكون من سكة حديد لندن وبيرمنغهام عام 1838م، أن المُهّان كانوا «مصدر رعب للريف المحيط، فقد شكلوا طبقة قائمة بذاتها مثل الغجر تماماً... ولا يماثل سلوكهم الوحشي سوى همجية لغتهم».

واستمتع هؤلاء المُهّان بمكانتهم المنبوذة، فقد كانوا يرتدون ملابس متميزة، كالبناطيل المصنوعة من جلد الخلد، وقمصان الخيش ذات الطبقتين، المناسبة لأداء عملهم الشاق،



كانت أنفاق السكة الحديد تحفر في المنتصف، وكان المهان يحفرون في الأعلى لشق صدوع التهوية، ومن ثم يقومون باستخدام المتفجرات والقوة المحضة بحفر الأنفاق باتجاهين لتسريع العمل.

ومعاطف مخملية خيطت على شكل مربعات، وجزمات ذوات كعب مسماري، وصدريات تلونت بألوان الطيف السبعة مما يرتديه القراصنة في العادة، ومناديل زاهية الألوان، وقبعات بيضاء من اللباد عندما يكونون في استراحة.

وكان هؤلاء يعرفون بألقاب كـ «جاك القاتل» أو «جو الغجري» بدلاً من أسمائهم الحقيقية، وكان لهم قوانينهم وقواعدهم الهمجية الخاصة بهم. وقد قاموا باختراع حفل زواج خاص بهم، يقوم فيه الزوجان بالقفز فوق مكنسة في غرفة مليئة بالمهّان، ومن ثم يتمّان الزواج في الغرفة نفسها، أمام الحضور الذي يأخذ بالتناجي والهمس.

كانت حياة هؤلاء المهُان قاسية جداً، وكان يتوقع من الماهن، اعتماداً على حصته اليومية من الطعام– التي تبلغ رطلين من لحم البقر، وغالوناً من البيرة– أن ينقل عشرين طناً من التراب في كل مناوبة له. وعُدَّ بناء الحواجز التي تمر فوقها السكك الحديدية عملاً صعباً في حد ذاته. فقد كان على عربات التراب والصخر أن تصل إلى أعلى الارتفاعات المراد الوصول إليها، وذلك عبر ممرات خالية باستخدام حبلٍ مربوط معرض للانقطاع على الدوام. ويقوم على جر العربات حصان مربوط ببكرة في إحدى طرفيها العربة، وفي الطرف الآخر حزام أحد العاملين. وعند إعطاء الإشارة، يتقدم الحصان إلى الأمام رافعاً العربة فوق الحاجز. وكانت هذه الطريقة تعرف بـ (Making a running) وتعني «إحراز سبق»، وكان على الماهن، الذي يسحبه الحصان، أن يرتقي المنحدر الذي قد تبلغ درجة انحداره خمساً وأربعين درجة لتوجيه العربة الثقيلة. فإذا ما كان الحصان ثابتاً، فإن جميع الأمور ستسير على خير ما يرام، ولكن إن انزلق أو تعثر فوق سبخة ما، فإن العربة ستنقلب. وكان على الماهن– إذا ما حدث ذلك– أن يدفعها بعيداً عنه، كي لا تسقط فوقه في أثناء سقوطه، والعربة في الأسفل.

ومن مهام الماهن أيضاً حفر الأنفاق؛ وهو العمل الذي عد أكثر خطورة من سابقه. فالضوء الوحيد الذي كان مستخدماً في الظلام الدامس ضوء الشمعة، ولهذا كانت احتمالية أن تشعل هذه الشعلة الضعيفة فتيل المتفجرات، قائمة على الدوام. وكانت الحوادث شائعة إلى حد مخيف، فقد لاقى اثنان وثلاثون رجلاً حتفهم خلال بناء نفق (وودهيد)، الذي استمر من عام 1839 إلى عام 1845، وبلغ عدد المصابين بجراح بالغة مئة وأربعين رجلاً، في حين أن عدد المصابين بجراح خفيفة قد بلغ أربعمئة رجل. ويشكل هذا العدد ثلاثة بالمئة من مجموع

من الأطفال، قد يبلغ عدد أفرادها الأربعين أو الخمسين، تغادر قراها عند الساعة السادسة في الصباح، لتمشي ما معدله ميلان أو ثلاثة أميال للوصول إلى العمل، كجزءٍ من عملهم الطويل الذي يمتد أربع عشرة ساعة. ويزودون، فور وصولهم إلى المزرعة التي يعملون فيها، بدلاء أو سلال ليقوموا بتعبئتها بالحجارة، التي عليهم تفريغها في عربة. وفي أثناء زحفهم على الأرض، ساعة تلو أخرى، كان ثمة رجل يحمل سوطاً يمشي خلفهم، ويقوم بضربهم إذا ما أبدوا أي تكاسل في العمل. ويتلقى هؤلاء بنساً واحداً مقابل كل سلة كبيرة من الحجارة. ويتوقع منهم القيام بعملهم في جميع الظروف الجوية بما فيها الريح، والبرد، والثلج المخلوط بالمطر، كما كانوا يتناولون طعامهم البارد تحت سياج المزرعة. ولم يكن لهؤلاء عطل رسمية، باستثناء أيام المطر الشديد والآحاد.

وكان العمال القرويون في إيست آنجليا- فضلاً عن قسوة حياتهم اليومية- معرضين «لحمى المستنقعات». وكان من أعراض هذا المرض الغامض، ارتعاش شديد، وتعرق، وألم في الأطراف. وكان يعتقد أن السبب الكامن وراء هذا المرض هو الجو الخانق الناجم عن تعفن الخضار، غير أن هذا المرض لا يعدو أن يكون شكلاً من أشكال الملاريا الذي قد تسببه عضة من بعوضة تنشأ في جو المستنقعات الرطب. ويتناول العمال، لتخفيف حدة الألم، شكلاً من أشكال الأفيون الذي كانوا يدعونه «كمفورت»، وهو يؤخذ كدخان أو حبوب.

وقد أوردت مجلة لينكولن ميركوري في تقريرها عام 1846:

> لقد ازدادت حالات تعاطي الأفيون، واللودنوم، والأثير، والمورفين، وعدد المتعاطين بين سكان مستنقعات كامبردج شاير ولينكولن شاير في ازدياد دائم إلى حد مخيف. والتعاطي شائعٌ بين كبار السن، والعجزة، والشباب. وقد أصبح من الشائع رؤية الرجل أو المرأة في العشرينيات أو الثلاثينيات أو الأربعينيات من العمر بملامح شديدة الشحوب، وقامات متمايلة، وخطوات متثاقلة، يسعون للحصول على سمهم، الذي قد لا يزيد سعره عن ستة بنسات.

وألقي على عاتق الأطفال في الريف القيام بمجموعة كبيرة من المهن الأخرى، التي تتطلب ساعات عمل طويلة في أوضاع سيئة، والملل سمتها العامة، فبعضهم عمل كمفزع طيور، ولقد قام هؤلاء بالجري طوال اليوم حاملين ما يخشخشون به. وبعضهم عمل كمستدعي سمك الرنجة، وكان هؤلاء يقفون دون حراك فوق جرف منتظرين إشارات قدوم مجموعات سمك الرنجة ليستدعوا الصيادين.

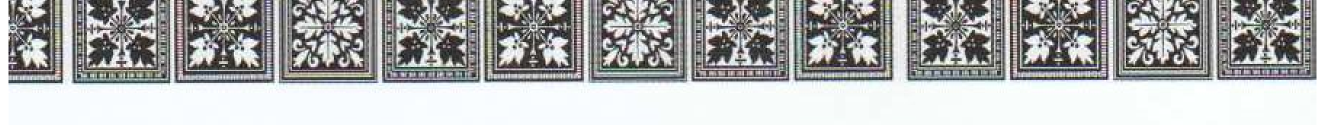
ولكن، لم يكن أطفال المدن محصنين من القيام بأعمال مفزعة. فالمصانع أنتجت أطناناً من السخام، وأصبحت مباني غلاسكو، وبيرمينغهام ومانشستر الفارهة، المبنية من الطوب الأحمر، والمناطق المكتظة ذات الشرفات في لندن، مغطاة جميعها بالأوساخ، وكان السبب وراء ذلك هو الفحم، الذي استخدمته أعداد الناس المتزايدة لتدفئة بيوتهم، واستخدمته الصناعة بلا هوداة. ونشر الفحُم السخام، الذي يعني منظف المداخن.

منظف المداخن (Chimney Sweep):

إن صورة الغلام منظف المداخن وهو يتسلق ظلمة أنبوب المدخنة، لهي واحدة من سمات الحياة الفيكتورية. وتعد هذه الوظيفة بحق واحدة من أسوأ المهن في ذلك العصر، فقد تم إبقاء الأطفال جوعى وهزيلين كي لا يعلقوا في المداخن. وأصبحت مساحة فتحات المداخن في العصر الفيكتوري ضيقة إلى حد غير مقبول، وعلق داخلها الكثير من الأولاد؛ ولقي بعضهم حتفه، وكان هؤلاء، في ظل ارتفاع مداخن المنازل في المدينة، معرضين لخطر السقوط، وبهذا أصبحت الأطراف المكسورة شائعة.

وكان الغلمان المتسلقون أطفالاً قام منظف المداخن باختيارهم من الشارع بمجرد النظر إليهم، سعياً منه لتوفير أجور مرتفعة. وقد تكون شخصية توم في أعمال تشارلز كينغزلي، التي تشبه شخصية أوليفر تويست- طفل الشارع عند تشارلز ديكنز- محاولة واعية لجعل جمهوره يرى فرداً من فئةٍ، لا فئةً لا اسم لها من العاملين.

> انفجر بالصراخ عندما تيقن أن عليه تسلق فوهة المدخنة المظلمة، حاكاً ركبتيه وكوعيه بجدران المدخنة حتى انسلخ الجلد عنها؛ وعندما دخل



ماسح المدخنة والطفل المتسلق. يستطيع صغار السن أن يحشروا أنفسهم في أضيق المداخن، كما افتقد هؤلاء براءة الطفولة المعهودة نتيجة قيامهم بهذا العمل.

السّخام إلى عينيه، وهو ما يحدث في العادة في كل يوم يعمل فيه؛ وعندما قام رئيسه بضربه، وهو ما يحدث في العادة كل يوم؛ وعندما لم يكن لديه ما يكفيه من طعام، وهو ما يحدث كل يوم.

تشارلز كنغزلي، أطفال الماء

ولكن، هل كان الفيكتوريون يكترثون لأمر هؤلاء؟ في الحقيقة، نعم. فلقد سُن قانون عام 1840، أي بعد بداية الفترة الفيكتورية بثلاث سنوات، يحظر قيام أي شخص لم يبلغ الحادية والعشرين من عمره بدخول مدخنة.

غير أن غرامات خرق هذا القانون كانت تافهة، وكثيراً ما خُرِق، وذلك لأن المكانس الممتدة التي تم اختراعها حديثاً في تلك الفترة، كانت باهظة الثمن بشكل فاق أجر الغلمان المتسلقين. ولم يبدأ العامة بالتوقف عن اتباع سياسة غض النظر عن أوضاع هؤلاء الأطفال، إلا بعد أن أخذ تشارلز كينغزلي بالكشف عن أوضاع هؤلاء الأطفال في منشوراته الاجتماعية الساخرة المسماة أطفال الماء (The Water Babies) بين الأعوام 1862 و1863. وقام اللورد شافتسبري باقتراح قانون جديد رفعت به الغرامة إلى عشرة جنيهات إسترلينية.

وبحلول الفترة التي كان هنري ماي هيو يكتب فيها؛ أي بعد بداية الفترة الفيكتورية بخمسة وعشرين عاماً، جعلت حركة الإصلاح منظفي المداخن يتحسرون على الأيام الخوالي الحلوة.

أكد لي أحد منظفي المداخن الكبار، الذي كان عادةً يستحم في ماريليبون مرةً أو مرتين في الأسبوع، أن عادة الاغتسال قد أصبحت شائعةً بين زملائه أصحاب وكالات تنظيف المداخن أكثر مما هي الحال عندما كان فتى متسلقاً، هذا رغم أن العديد من أصحاب الوكالات هذه الأيام يتناولون طعامهم وشرابهم وينامون وهم يلتحفون السخام. وكان يقوم بخلع ملابسه، ويضطر إلى دخول حوض بارد في بعض الأحيان، وحوض ماءٍ ساخن في أحيانٍ أخرى، بينما تقوم خليلته— ونحن هنا نستخدم كلمته—

بتنظيفه. وقد أصدر مخبرو أحكامه اعتماداً على ما رآه وما شاهده خلال خبرته التي تتراوح بين الثلاثين والأربعين عاماً أن الفتيان المتسلقين، باستثناء عددٍ قليل منهم، كانوا نادراً ما يغتسلون، وكانوا ينظرون إلى الاغتسال كعملية غير مرغوب فيها، بل إنها شكل من أشكال العقاب. وقد يقوم سيد الفتيان المتسلقين بجلبهم إلى سيربنتاين للاستحمام، لكن، لسوء الحظ، لقي أحد الفتيان حتفه غرقاً، مما جعل أمر جلب الفتيان للاستحمام أمراً صعباً للغاية.

هنري ماي هيو، العمالة والفقر في لندن، المجلد الثاني

صائد الجرذان (Rat Catcher):



صائد جرذانٍ يحمل قفصاً أصغر بكثير من قصص جاك بلاك الضخم.

شكلت الجرذان مشكلة كبيرة في الشوارع والمجاري القذرة خلال الفترة الفيكتورية في بريطانيا، وبخاصة في المدن الكبرى. ويتم في العادة استدعاء صائد الجرذان للتعامل مع هذه المشكلة عندما تتأزم الأمور وتخرج عن نطاق السيطرة. وفي حال استدعائه، قد يظهر صائد الجرذان أمام بيتك مزوداً بكل ما تحتاجه هذه المهنة من متطلبات؛ زجاجة ضخمة من سم مكونه الأساسي الزرنيخ، وكلب صيد ذي شعر قصير جداً.

ويتلقى صائدو الجرذان زهاء أربعة شلنات لتخليص المنطقة من الجرذان، وسد جميع الفجوات. ولم يكن صيد الجرذان يعني بالضرورة قتلها، بل إن معظمها يصاد

حياً. ويقوم صائد الجرذان فيما بعد ببيع الجرذان بثلاثة بنسات لكل جرذ، مما قد يرفع دخله بشكل كبير.

ولكن كيف كان يقوم بعمله؟ ترك ماي هيو لنا صورة حية لأحد صائدي الجرذان هو جاك بلاك. كان جاك صاحب حانة فاشلاً ارتقى ذروة عمله كصائد جرذان ملكي خلال فترة حكم الملكة فيكتوريا. ولم يكن هناك من مرتاب في أدائه لعمله. ارتدى جاك بنطالاً من قماش مُحَزَّز، وسترةً مخملية، وحزاماً جلدياً غريباً مرسوماً عليه جرذان، وحمل جرذاً كحيوانٍ أليف، يدخل عبر كُمّه ليصل إلى جيبه. وكانت له رائحةٌ قويةٌ ناجمةٌ عن استخدامه زيت الزعتر واليانسون اللذين كان يفرك جسمه بهما، لاعتقاده أنهما يجذبان الجرذان.

ويصل صائد الجرذان عند استدعائه ومعه كلاب الصيد، وأبناء مقرض، وهي حيوانات مفترسة قد يشتري الواحد منها بأربعة بنسات من سوق ليدنهال. كما يجلب معه قفصه الحديدي الضخم الذي قد يتسع لألف جرذ متلوٍ، ويقوم بسد جميع منافذ الجرذان باستثناء واحدٍ، يرسل عبره حيوانات أبناء مقرض لجعلها تدفع الجرذان لتنحصر في منطقة معينة، ومن ثم يقوم بمد ذراعه عبر الفتحة الوحيدة المتاحة للجرذان، فيمسك بها واحداً تلو الآخر. وكانت عملية وضع اليد هذه ناجحة جداً، فقد تمكن من الإمساك بسبعمئة جرذ حي ضمن عقار واحدٍ في مدينة كامدن.

ولهذا كان تعرض صائد الجرذان للعضات أحد مخاطر عمله. وكانت جرذان التصريف الصحي وجرذان الشوارع تحمل أمراضاً معدية. فقد تعرض جاك لمرضٍ جعله يتغيب عن عمله ثلاثة أشهر كاملة، وهذا بالطبع يعني انعدام الدخل خلالها. وقد تورم جلده خلال مرضه، ولم يعالجه سوى شرب الجعة القوية. ولم تكن عضات الجرذان تتطلب عناية فائقة، فلقد ورد عن جاك بلاك نفسه قوله: «لا أستطيع أن أذكر لك كل مكان تلقيت فيه عضة، فأصبح إبهامي، الذي- كما ترى هنا - مجروحاً على الدوام. ومع هذا فقد مضت سنوات قبل أن أتعرض لجرح».

وتكمن المفارقة في أن السبب الوحيد الذي من أجله خاطر صائد الجرذان بحياته، وتحمل الألم والعدوى هو الإمساك بالجرذان ليتم قتلها علناً أمام العامة. ويقوم أصحاب الحانات سعياً

منهم وراء ربح وفيرٍ، بعقد أمسيات قتل جرذان غير قانونية في حلبة خشبية داخل حاناتهم. ويتم خلال هذه الأمسيات، إطلاق سراح كلاب الصيد بين تجمع جرذان متذبذب، وتتم قبل عملية القتل، وضع رهانات على عدد الجرذان التي قد يتمكن كل كلب من قتلها، أو فيما إذا كان بمقدور الكلب الصمود أمام الجرذان الضاربة.

وكانت هذه التجارة مربحة عند مقارنتها بالأعمال الأخرى، فقد قامت إحدى الحانات بشراء ستة وعشرين ألف جرذ خلال سنة واحدة، قامت عشرون عائلة مختلفة بالإمداد بها. والمبلغ الإجمالي الذي أنفقته إحدى حانات إيست إيند على الجرذان هو ثلاثمئة وخمسة وعشرون جنيهاً إسترلينيا، أي ما يعادل سعر بيت متواضع.

شكلت الجرذان في لندن مشكلة مستعصية، تأثر فيها الغني قبل الفقير، وكانت الشركات التجارية من زبائن جاك بلاك، فضلاً عن رجال الدين، والملكة نفسها. والجرذان حيوانات تأكل النبات والحيوان؛ وعندما تجوع، قد تقضم لقيمات من الخيول، وقطعان الماشية، كبيرها وصغيرها، وحتى الأطفال الصغار.

تقوم الجرذان، كالأرانب تماماً، بأكل بعضها، وهذا ما شاهدته بأم عيني، وقد رأيتها تتجنب أكل جلود الحيوانات الميتة– وهي هنا تشبه القطط – وتتناول اللحم الجميل النظيف، لدي أقفاصٍ حديدية صنعتها بنفسي قد تتسع لألف جرذ مرةً واحدةً، ولطالما امتلأت هذه الأقفاص بالجرذان. قد لا يصدق أي منكم عدد الجرذان الذي تضمه هذه الأقفاص، وكيف تتقاتل ويمزق بعضها بعضاً. إنه لشيء عجاب! لم أجد خلال احتفاظي بعددٍ كبيرٍ من الجرذان، أياً منها مختنقاً، ولكن إن لم تطعمها يومياً، فقد تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً، وتقوم بهذا كآكلي لحوم البشر.

وفي إحدى الليالي، كان لدي مئتا جرذٍ في قفص، وضعته في غرفة جلوسي وتمكن كلب أحد الرجال من الوصول إلى القفص وفتح الباب، فأطلق جميع الجرذان في المكان. فدخلت الغرفة على الفور، وكنت قد عرفت

أنها قد أصبحت طليقة من رائحتها.

واضطررت لأن أبحث عنها -وأنا جاثٍ على ركبتي- تحت الأسرة، والمقاعد، وفي جميع أرجاء المكان. وتمكنت قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة من الإمساك بها جميعاً ووضعها في القفص، وقمت ببيعها فيما بعد لاستخدامها في المباريات لاحقاً. وكنت خائفاً جداً من أن تقوم بقضم جزءٍ من جسد الأطفال. بعد أن كنت قد احتفظت بها في منزل لاقى فيه بعض الأطفال قضمات جرذية.

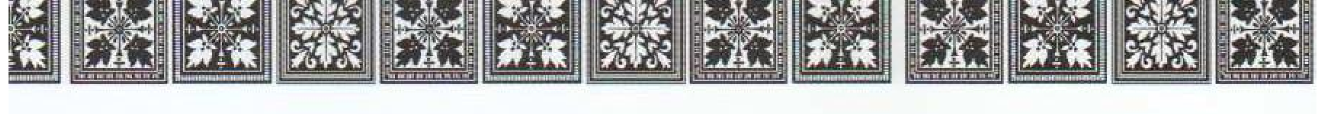
هنري ماي هيو، العمالة والفقر في لندن المجلد الثالث.

وقام صائدو الجرذان بتحسين دخلهم عبر عرض بضاعتهم، وكان جاك يدع الجرذان تتسلق فوق ذراعيه، وعلى جسمه، بينما يقوم بالتمليس عليها واللعب معها. وكان لصائدي الفئران عملٌ إضافيٌ آخر، فقد كانوا يبيعون السم، ويثبتون فاعليته أمام زبائنهم المستقبلين عبر إطعام السم للجرذان في أقفاصها ومشاهدتها وهي تقضي.

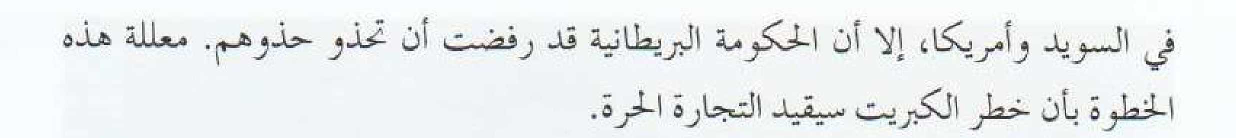
غير أن السم لم يكن مستخدماً مع الجرذان فقط، بل إن رواد الصناعة كانوا في سعادة عامرة لتعريض عامليهم لموادٍ ضارة في سعيهم لجني أرباح طائلة. وليس هناك من مجموعة عمال عانت الأمرين من عواقب جشع رؤسائها في العمل أكثر من صانعي الكبريت.

صانع الكبريت (Match Maker):

كانت عيدان الثقاب خلال القرن التاسع عشر تصنع عبر غمس العيدان الخشبية الصغيرة في الفسفور الأبيض. وتسببت الأدخنة الناتجة عن هذا المركب الكيميائي السام بإيجاد وضع مخيف عُرِفَ «بالفك المنخور» الذي تسبب في تهديد حياة صانعي أعواد الثقاب. وأعراض هذا المرض هي ألم في الأسنان، وانتفاخ في اللثة والفك، ومن ثم تأتي الخراجات والإطلاقات المقززة الناتجة عن التهاب صديدي حاد داخل الأنسجة، وتبدأ عظام فك المصابين بالمرض بإصدار ضوء شبحي، كما هي حال ألعاب الأشباح التي تضيء ليلاً. والعلاج الوحيد كان عملية جراحية مؤلمة ومشوهة، يتم فيها استئصال الفك تماماً. وعلى الرغم من حظر الفسفور



أبناء مقرض وكلاب الصيد، وهي عنصر أساسي في وظيفة صائد الجرذان، فقد كانت تقود الجرذان المرتعبة إلى يدي صائد الجرذان اللتين تنبعث منهما رائحة الينسون.



في السويد وأمريكا، إلا أن الحكومة البريطانية قد رفضت أن تحذو حذوهم. معللة هذه الخطوة بأن خطر الكبريت سيقيد التجارة الحرة.

إن مصلحة لويس وآن، القائمة على وارف رود في بيثنال غرين، لهي مكان شديد الصغر، يعمل فيه ستة رجال وثمانية عشر ولداً. ويتكون المكان من شقتين صغيرتين. إحداهما منحدرة السطح، بينما الأخرى زريبة لعربة. ويبلغ طول مساحة هذه الزريبة وعرضها- وفقاً لتقديراتي الشخصية- عشرين قدماً بأحد عشر قدماً فقط دون وجود تهوية من أي نوع. والباب موجود في أحد أطرافها، والنافذة الوحيدة قريبة منه. ويستخدم هذا المكان لغايتين كغرفة غمس وتجفيف، ومكان لمزج الكبريت والفسفور وتسخينهما. ويساعد الغامس في مزج المحلول طفلٌ صغيرٌ رأيته إلى جانبه يحرك المزيج؛ وفي الواقع كان ينحني فوق حجر الغمس. وستدرك بمجرد دخولك هذا المكان أن الرائحة الصادرة خانقة تماماً، وتستطيع أن تجزم أن أحداً لن يتحملها فترة من زمن مهما كانت وجيزة. والسقيفة الأخرى لا تختلف عن سابقتها؛ فهي دون تهوية، وتبلغ أبعادها ثلاثين قدماً بعشرة أقدام. وتتم في هذه السقيفة، الخطوات المتبقية لإنتاج أعواد الثقاب وتستطيع مشاهدة دخان أبيض دائم من أعواد الثقاب.

تقرير السيد وايت حول مصنع أعواد ثقاب لويسيفر، اللجنة المشكلة حول عمالة الأطفال، التقرير الأول المجلد (18)، 1863.

وتستحضر بائعات أعواد الثقاب الفيكتوريات لدى الكثير من الناس صورة عاطفية لِلَقيطات يجبن الأرض المغطاة بالثلج دون حذاءٍ يقيهن برد الثلج، سعياً منهن لبيع أعواد ثقاب مفردة. غير أن بائعات الكبريت في مصنع براينت وماي في لندن كُنَّ رائدات حركة حقوق العمال. فقد كُن يعملن أربع عشرة ساعة متواصلة مقابل أجرٍ لا يتعدى خمسة شلنات في الأسبوع، هذا قبل الغرامات. فبعض المخالفات كالكلام، أو إسقاط أعواد الثقاب، أو



بائعات الكبريت اللواتي صنعن تاريخ العلاقات الصناعية دون إدراك منهن.

الذهاب إلى الحمام دون إذن، قد تخسف رواتب هؤلاء الفتيات فتغدو بمعدل ثلاثة بنسات إلى شلن واحد.

وكانت ساعات العمل تبدأ في الساعة السادسة والنصف صباحاً في الصيف، والثامنة في الشتاء، وتنتهي في الساعة السادسة مساء، وإذا ما تأخرن، يغرّمن نصف راتب يوم.

غير أن هؤلاء الفتيات كُنَّ مشاكسات. وفيما يلي وصف أحد المعلقين لهن: «كان لهن أزياؤهن الخاصة، وكن يستمتعن باستخدام العديد من الألوان. ولم يعد بإمكانهن العيش دون قبعاتهن الواسعات وريشاتهن الضخمة «كما لا يستطيع آري العيش دون بنطاله المنتهي



أني بزانت الداعية والصحفية التي تبنت قضية بنات الكبريت.

بجرس. وكن يتباهين بجزماتهن ذوات الكعب العالي وكن ينظرن إلى شراريب القماش كمسألة حياة أو موت».

نظم عاملو مصنع براينت وماي بقيادة الصحيفة المدافعة عن حقوق العمال آني بيزنت، إضراباً ناجحاً للمطالبة بأجور أعلى وظروف عمل أفضل. وساعدهم في هذا، ظهور منافس مؤمن بمطالبهم. فقد قام جيش الخلاص عام 1891 بفتح مصنع كبريت خاص به في أولد فورد، إلى الشرق من لندن، حيث صنعت أعواد الثقاب باستخدام الفسفور الأحمر غير المؤذي. وكان جيش الخلاص يدفع ضعف ما كان براينت وماي يدفعانه لعمالهما مع إضافة بنسين أيضاً. ومع هذا تمكنا من بيع ستة ملايين علبة من الثقاب سنوياً تحت الاسم التجاري «ضوء في أظلم فترة بانجلترا».

ويُظهِر تقرير كتب بعد الاضطراب بثلاث سنوات مدى التحسن الذي شهده مصنع براينت وماي.

> ظروف العمل أكثر إنسانية الآن، وتم تخفيف الأعباء الملقاة على العاملين بشكل كبير مع إدخال الآلات المحسنة.
>
> ويمكن القول: إن العاملين في المصنع بشكل عام ينتمون إلى طبقة لائقة صحياً تماماً. فإحدى النساء التي تمت مقابلتها كانت قد عملت في المصنع مدة عشرين عاماً، وكانت مازالت ممشوقة القوام كما تتمنى. ومع هذا، فمن غير الصحيح أن نعد التسمم بالفسفور قد أصبح ضرباً من الماضي؛ فمازالت هناك حالات كبيرة من المرض المسمى «الفك المنخور». إن أولى أعراض المرض هو ألم في الأسنان وترافقه الخدود المتورمة. وبمجرد ظهور أعراض المرض، قد يفقد المريض عدة أسنان للحفاظ– إن أمكن ذلك– على كامل الفك.
>
> **مونتيغ ويليمز، شرقاً وغرباً.**

قد تكون العاملات في براينت وماي قد ضحين بكل شيء عندما بدأن إضرابهنّ، غير أن



صورة مرعبة للإصلاحية، وتكشف الوجوه المقبوضة والعيون الغائرة زيف الابتسامات المرسومة لأجل الكاميرا.



جبال من الحجارة المتراكمة التي تنتظر أن تكسر على أيدي عاملي الإصلاحية ليكسبوا قوت يومهم.

فعلتهن هذه تدل على مدى البؤس الذي كنَّ يعشنه. أما الفقراء الذين كانوا بلا عملٍ، فإن الرمز الفيكتوري القائم كان يستدعيهم، ونقصد به هنا الإصلاحية.

المهن في الإصلاحية (Workhouse job):

تم، على مدى قرون سابقة، إيصال معونات إغاثة الفقراء إلى الناس في بيوتهم، غير أن المشرعين في بدايات القرن التاسع عشر قد تلمسوا، في جوٍ مشحونٍ مشابه للجدل الدائر الآن حول المساعدات، أن النظام القديم قد شجع الناس على أخذ الصدقات دون أن يشمروا عن ساعد الجد في العمل، ولهذا جرى عام 1834– أي قبل بداية الفترة الفيكتورية– تعديل قانون الفقراء الذي أنشأ المؤسسات المشابهة للسجن، كتلك التي عرفناها في أوليفر تويست.

وضُمّت الأبرشيات في إنجلترا وويلز البالغ عددها خمس عشرة ألف أبرشية في اتحادات قانون الفقراء، وكان لكل اتحاد إصلاحيته الخاصة به، وهذه البيانات مصممة بشكل خاص لتوفير إقامة مفصولة لأصناف مختلفة من الفقراء، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، قادرين أم عاجزين، بالإضافة إلى الأطفال.

وكان القصد من الإصلاحيات أن تعمل وفق مبدأ «الأقل أهلية»، وصممت الظروف بحيث تكون أقل ملاءمة لظروف العمال الأقل دخلاً، وكانت المهن المتاحة للعامة في الإصلاحية عقابيّة، حتى إن بعضها كان أسوأ من عقوبات السجن الحقيقية.

كاسر الحجارة (Stone Breaker):

كان معظم نزلاء الإصلاحيات طاعنين في السن أو فتياناً في ريعان شبابهم، لم يكونوا قادرين على القيام بعملٍ شاق. ولكن إذا ما قدم إلى الإصلاحية متشرد قادر أو عامل غير منتظم، فعليه أن يتوقع جرعة إضافية من الابتزاز الجسدي الشاق.

وزودت عملية تكسير الحجارة عمليات تمهيد الطرق بموادها الخام. وينكب كاسر الحجارة باستخدام مطرقة كبيرة على حجارة ضخمة الحجم محاولاً تكسيرها إلى أجزاء صغيرة. ويجب ألا تتجاوز أحجام الأجزاء المتقطعة عدة سنتمترات مربعة، فإذا ما كانت كبيرة بحيث يستحيل أن تمر عبر مشبك حديدي مصمم لهذه الغاية، يتم إرسالها إلى الكاسر ليقوم بكسرها إلى الحجم المناسب. ولكن العمل لا ينتهي أبداً، وبمجرد انتهاء كاسر الحجارة من تكسير الحجر المسجى أمامه، ثمة حجر آخر ينتظر، وكانت مكافأته لقاء ساعات عمله الشاقة أدنى متطلبات قوته.

جامع نكيث[2] الحبال (Oakum Picker):

وهذه وظيفة قذرة، ذات رائحة مقززة وقاسية على الأصابع، يتم في العادة خص كبار السن من النزلاء الذكور بها. وتطلق الكلمة (oakum) على أجزاء الحبال القديمة المتناثرة في أحواض بناء السفن، ويتم في العادة دهنها بالقطران لحمايتها من المطر. وتفصل أجزاء الحبال

---

(2) النكيث: المنكوث وهو المنقوض من الحبال.



جامعو نكيث الحبال في الإصلاحية. إن كومة بهذا الحجم كفيلة بسلخ جلد أكثر الأصابع قسوة.

المتعددة الأطوال بعضها عن بعض عبر طرقها بمطرقة خشبية. وبعد ذلك يتم حل الضفائر الرفيعة إلى خيوط. ويتمكن جامع نكيث الحبال حالما يتم فك جميع الطبقات، من الوصول إلى ضفائر الألياف كل على حدة. وهذه الحبال لزجة نظراً لاستخدام القطران الذي يصعب التخلص منه باستخدام المطهرات الحديثة. ولك أن تتخيل الأوقات الصعبة والمملة التي كان على النزلاء قضاؤها، وقد قاموا بتلطيخ كل شيء طالته أيديهم بالقطران.

وفي نهاية الأمر، تفصل الخصل الرفيعة جداً عن غيرها، وتلف على شكل كرات صغيرة، ويتم إرسالها إلى مصانع السفن لتوضع بين صفائح السفن، وتغلف بالقار لجعلها مضادة للماء. وتسمى هذه العملية «بالسّدّ».



كل شيء في الإصلاحية يخضع لنظام صارم غير سارّ على الإطلاق، بما في ذلك الوجبات التي صممت كي تكون وظيفية لا اجتماعية.

ويتوقع من كل رجل أن يلتقط رطلاً ونصف الرطل من نكيث الحبال يومياً، ونصف رطلٍ من جانب النساء. ولم تكن هذه المهنة مدفوعة الآجر- كما هي الحال مع باقي أعمال الإصلاحية- هذا إذا استثنينا الإقامة والطعام.

اضطر الناس، مع التهديد الدائم الذي شكلته الإصلاحية، وبخاصة لكبار السن والعجزة، إلى القيام بأي شيء لكسب كسرة من خبز. ويصف هنري ماي هيو مجموعة كاملة من الناس وقد دفعهم بؤسهم لامتهان أشكالٍ مختلفةٍ من أنواع التسلية المتجولة: «كعازف الأجراس الأعمى»، و«عازف الأرغن اليدوي الفرنسي مع أطفاله الراقصين»، و«بيني ناحت الصور الجانبية» ، وشخصيات كوميدية كـ«بيلي بارلو»، و«بيني المهرج المؤدي»، و«الرجل الصافر»، و«عارض تجارب البنادق الإيطالي ذي الرجل الواحدة». ويظهر عند اقتراب الخامس من نوفمبر مؤدون لحركات غاي فوكس، الذين كانوا يرتدون ملابس مشابهة لتلك

التي كان يرتديها، لكن دون إشعال نار احتفالية بهم.

كما قام هنري ماي هيو بتبويب عدد من المهن المرتبطة بتجميع الفضلات. ومن المغري لنا بحق- إذا نظرنا للأمر من وجهة النظر البيئية السائدة في عصرنا- أن نعتقد أننا من قام باختراع إعادة التدوير. فلقد قام الفيكتوريون بضخ فضلاتهم في الهواء والأنهار كما لو كانوا يعيشون يومهم فقط، غير أن نزرا يسيراً من هذه النفايات يذهب سدى، فثمة شخص يستطيع أن يجني بضعة بنسات عن طريق جمع أنفس ما في النفايات وبيعه لاحقاً.

الباحث عن أعقاب السيجار (Cigar-End Finder):

وكانت وظيفة تقتضي أن يقوم ممتهنها بالبحث عن أعقاب السيجار التي لم يفسدها اللعاب، وذلك لإعادة تدوير التبغ الموجود داخلها.

أخبرنا ماي هيو عن أطفالٍ إيرلنديين كانوا يجوبون طريق «راتكليف العام» والطريق



نساء في ساحات الغبار يقمن بغربلة الغبار والسخام للحصول على مكنوناتها الغريبة.

التجاري، وطريق مايل إيند في لندن بحثاً عن أعقاب السيجار، وفتات الخبز. ويقوم هؤلاء الأطفال، بمجرد جمعهم لمجموعة كافية من أعقاب السيجار، ببيعها مقابل نصف «بيني» لشراء دقيق الشوفان، الذي كان يتم غليه مع فتات الخبز، لتحضير أكثر الوجبات اقتصاداً.

بدا من السهل على هؤلاء الأولاد إيجاد أعقاب السيجار في شارع ستراند وريجنت، وكان الباحثون المهرة يجمعون ما يقارب أو يزيد على الكيلوغرام في بعض الأحيان، وهذا- لاشك- عددٌ كبيرٌ من أعقاب السيجار. ومن ثم يقومون ببيعها إلى مشترٍ في زقاق روزماري، كان يدفع لهم ستة بنسات مقابل الـ500 غرام. وكان هذا الرجل يقوم ببيعها إلى مصنعي التبغ، الذين كانوا يخلطون التبغ المعاد تدويره مع المحصول الجديد، سواء على شكل سيجار أو سعوط.

بائع الشاي المتجول (Tea Hawker):

كان ثمة سوقٌ لبيع أوراق الشاي المستخدمة، إذ كان بائعو الشاي المتجولون يمرون ببيوت الحارات باباً باباً ليجمعوا بواقي أوراق الشاي من أباريق الشاي الأنيقة في أحياء لندن الراقية، ويقوم هؤلاء بشراء أوراق الشاي من الخدم الموجودين في البيوت الكبيرة مقابل مبلغ زهيد.

ومن ثم يقوم هؤلاء بوضع أوراق الشاي على أطباق ساخنة لتجفيفها، ويبيعونها لأصحاب بعض المحال التجارية المجردين من المبادئ، الذين يقومون بخلط الشاي المعاد تدويره مع الشاي الجديد لزيادة الحمولة. وإذا كان مقرراً لهذه الأوراق أن تكون قسماً من حمولة الشاي الأخضر، فيتم صبغها أولاً بمحلولٍ من النحاس. ونظراً للارتفاع الباهظ في سعر الشاي، أصبح الغش فيه تجارة مزدهرة. وقد وردت إشاعات أنه تم بيع زهاء أربعة آلاف طنٍ من أوراق الشاي القديمة في لندن خلال عام واحد.

رجل النفايات (Dustman):

قد تعني كلمة (Dustman) هذه الأيام الشخص المعنيّ بجمع النفايات بمختلف أنواعها، ولكنها كانت ذات معنى وظيفي متخصصٍ خلال الفترة الفيكتورية.

كان الفحم خلال تلك الفترة مادة الطاقة الرئيسة. وكانت لندن وحدها تستهلك ثلاثة



رجل نفايات يصرخ ليعلن قدومه أو يحلم بنصف ليتر من البيرة الباردة ليزيل الوسخ من حلقه.

ملايين ونصف مليون طنٍ سنوياً. ونتج عن هذه الكمية الهائلة الكثير من الرماد والسخام. وتمثلت مهمة مسؤولي الأبرشيات في ضمان إزالة نواتج الاحتراق هذه بسرعة، وذلك عن طريق متعهدي الغبار الذين استخدموا الخيول، والعربات والسلال، والمجارف. وكان لهم حق الوصول إلى أكوام النفايات، حيث يستطيعون التخلص من هذه المواد، وجني مال وفير من هذا الغبار إذ يتم فصل التربة الناعمة عن الشوائب الخشنة، وبيعها لتستخدم كسمادٍ نباتي، أما الشوائب الخشنة فتستخدم في صنع الطوب. وينقل كل متعهد عشرة آلاف حملٍ من الغبار سنوياً. وليتمكن هؤلاء من نقل هذا الوزن الضخم، كانوا يوظفون المغبّرين.

وهؤلاء رجالٌ ولدوا للقيام بهذا العمل. فقد بدؤوا عملهم هذا وهم أطفالٌ يقومون بغربلة أكوام الغبار، وانتهى بهم المطاف متغبرين مهرة. وجاب «المعبئون» و«العمال» الشوارع بعربات ذات صناديقٍ مبنية بعناية ومغطاةٍ في العادة بالقذارة. وكانوا يصرخون قائلين «غبار» للإعلان عن قدومهم، ويقوم المعبئ بتعبئة سلته التي يحملها العمال إلى العربة بالغبار، حيث يقوم بتسلق ودلق ما في السلة في العربة، ويعاود الكرة مرة تلو الأخرى. وعندما تمتلئ العربة، تقاد إلى ساحة الغبار حيت يتم إفراغها هناك.

ويقوم المغبرون بجمع الغبار في يوم، وكنس الشوارع في اليوم الذي يليه. وكانت لهم ترتيباتهم الخاصة مع ملاك الأراضي لإفراغ بالوعاتهم، وكان هؤلاء يتلقون أجراً منخفضاً، غير أنه منتظم؛ فقد كانوا يحصلون على ثمانية بنسات مقابل كل حمل من الغبار، ولهذا كان من مصلحتهم أن ينقلوا أكبر عدد من الأحمال إلى الساحة. وبمجرد إيصال الأحمال إلى الساحة، يقوم أطفال ونساء بغربلة المحصول؛ وهؤلاء- كما هو متوقع- كانوا يقومون بأسوأ الأعمال.

> كان منظر المغربلات في إحدى ساحات الغبار التي زرتها غريبا جداً، فقد كن يغصن حتى أوراكهن في الغبار، مصطفات في نصف دائرة أمام الكومة التي يتعاملن معها حينها. وأمام كل واحدةٍ منهنّ تلٌّ صغيرٌ من تراب تمت غربلته. وكان منظر المجموعة بأكملها وهي تعمل غريباً، وبدت عباءاتهنّ القطنية الخشنة مثنية خلف ظهورهنّ، وكانت أكمام أذرعهن مكفوفة حتى

أكواعهن، وكانت قبعاتهن السوداء مسحوقة ومدقوقة كقبعات صائدي الأسماك. وكن يرتدين فوق عباءاتهن مئزراً جلدياً قاسياً، يمتد من رقابهن حتى أطراف تنانيرهنَّ. ويمتد فوق هذا المئزر مئزرٌ جلديٌ آخر، أقصر من سابقه، غير أنه مبطنٌ بكثافة، ومثبت حول الخصر بخيط سميك أو رباطٍ. وتقوم هؤلاء النسوة بدفع الغربال عنهن بعيداً، ومن ثم يقمن بجلبه نحوهن بعنف واضح، ويضرب الغربال مئزرهن الجلدي الخارجي بقوة كبيرة قد ينتج عنها في كل مرة صوتٌ أجوفٌ، كقرع طبل. وكانت جميع النسوة العاملات هنا في منتصف العمر، باستثناء واحدة كانت طاعنة في السن؛ فقد كانت- كما أخبرتني- في الثامنة والستين، وقامت بهذا العمل مذ كانت فتاة، وكانت ابنة مغبرٍ وزوجة أو امرأة مغبرٍ، ووالدة نسلٍ من المغبرين اليافعين، سواء أكانوا أبناء أم أحفاد ، وكان هؤلاء جميعاً يعملن في ساحات الغبار في الطرف الشرقي للمدينة.

هنري ماي هيو، العمالة والفقر في لندن ، المجلد الثاني

ويكمن الجانب السلبي في هذه الحياة، أنك تقضيها في كومة أوساخ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها غير صحية أو خطرة كالعديد من المهن الفيكتورية الأخرى، بل كان المغبرون- وبشكل مثير للدهشة- مجموعة لائقة من الرجال حسب ما يقول ماي هيو. ورغم أنه ليس هناك أرقامٌ نستطيع من خلالها أن نجزم بصحة هذا القول، إلا أن هناك رواياتٍ تناقلها الناس عن مغبرين بلغوا التسعين، وعن مغبر يدعى «وود» بلغ المئة من العمر.

رجل الخرقة (Rag Man):

أدار ستيبتو وابنه ما يمكن اعتباره مصلحةً تجاريةً متطورةً في بيع الأشياء المستعملة، ولاسيما عند مقارنة عملهما بعمل رجل الخرقة الذي كان يتجول لأميالٍ، حاملاً لوازم عمله في حقيبةٍ مغلفة بالشحم، وممسكاً بعصاً كان يستخدمها في تقليب أكوام القمامة المتروكة خارج المنازل بحثاً عن شيء يستطيع بيعه. وكانت هذه الوظيفة تنافسية؛ فقد كان هؤلاء ينهضون

من النوم عند الساعة الثانية فجراً لتمشيط منطقتهم المختارة قبل وصول رجال خرق آخرين هناك. ويعدُّ ممر بيتكيوت ومايفار- حيث يقوم صانعو الملابس اليهود برمي أكوام من الخرق غير النافعة- أفضل المواقع في لندن. ويقوم رجال الخرقة بالتجول عبر لندن لثماني ساعات في اليوم، قد يقطعون خلالها مسافة ماراثونية تبلغ عشرين أو ثلاثين ميلاً، حاملين ما زنته خمسة وعشرون إلى خمسين رطلاً من الخرق على ظهورهم.

وكان هناك طلب شديد على الخرق- فلقد بلغ عدد الخرق التي تم استيرادها عام 1851 عشرة آلاف طن، وبيع الرطل الواحد منها لمشترين في الشارع بنصف بيني. وكان الورق- قبل استخدام لحاء الشجر- مصنعاً من القماش. وقد أعدت الطبعات الأولى من روايات ديكنز على ورقٍ مصنعٍ- جزئياً- من الخرق التي كان جامع الخرق يجمعها. (وكان هذا الورق متيناً، ويدوم فترة طويلة جداً. تعاني المكتبة البريطانية هذه الأيام من مشاكل جمة في الحفاظ على الكتب الحديثة، ولاسيما الطبعات ذوات الغلاف الورقي المطبوعة على ورق مصنع من لحاء الشجر الحامضي، فقد يتعفن بعد فترة قصيرة. ومازالت الكتب الفيكتورية جيدة كما لو أنها جديدة.

نابش العظام (Bone Grubber):

يقوم نابش العظام بما تعنيه هاتان الكلمتان- فلقد كان ينبش الأرض بحثاً عن عظام قديمة. ولم تكن تلك مهنةً يختار الناس القيام بها بملء إرادتهم. فالعظام الوسخة المتعفنة ذات رائحة مقززة، والعمل ذو دخلٍ متدنٍ جداً. وقد يمتهن الناس هذه المهنة بعد ظروفٍ قاسيةٍ تدفعهم إلى القيام بما لا يحتمل. وقد يكون نابشو العظام عاملين في المجال الزراعي تم الاستغناء عنهم بعد جني المحصول، والعديد منهم كانوا حفارين عاطلين عن العمل. وقد قابل هنري ماي هيو أحد نابشي القبور، الذي اكتسب معطفه الممزق لون القمامة التي كان يعمل بها، وكان مدهوناً بالشحم الملتصق بالعظام التي جمعها. وبدا الرجل، بعد أن اختلط شحم معطفه بالغبار، كما لو أنه مغطى بالدابوق. (وهي مادة لزجة تستخدم لاصطياد الطيور).

ويقوم نابش العظام ببيع ما يجمعه لموزعين قد يستخدمونها في عدة أمور. فيتم انتقاء العظام الضخمة وإرسالها إلى فرنسا لينحتوا منها مقابض لفراشي الأسنان وفراشي الحلاقة،

وحلقات التسنين، ومقابض السكاكين، والأمشاط الرخيصة. أما باقي العظام فيتم غليها لإزالة الجيلاتين والمواد الدهنية، التي قد تستخدم في صنع الصابون. ويتم سحق ما تبقى لاستخدامه كسماد مخصب. ولكن ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من العمل في ساحة غبار، أو أن تبدأ عملك عند الساعة الثانية صباحاً، لتقطع ما يزيد على عشرين ميلاً بحثاً عن عظام متعفنة أو خرق؟ لتعرف الجواب حاول أن تكون منقب المجاري /شبكة التصريف الصحي.



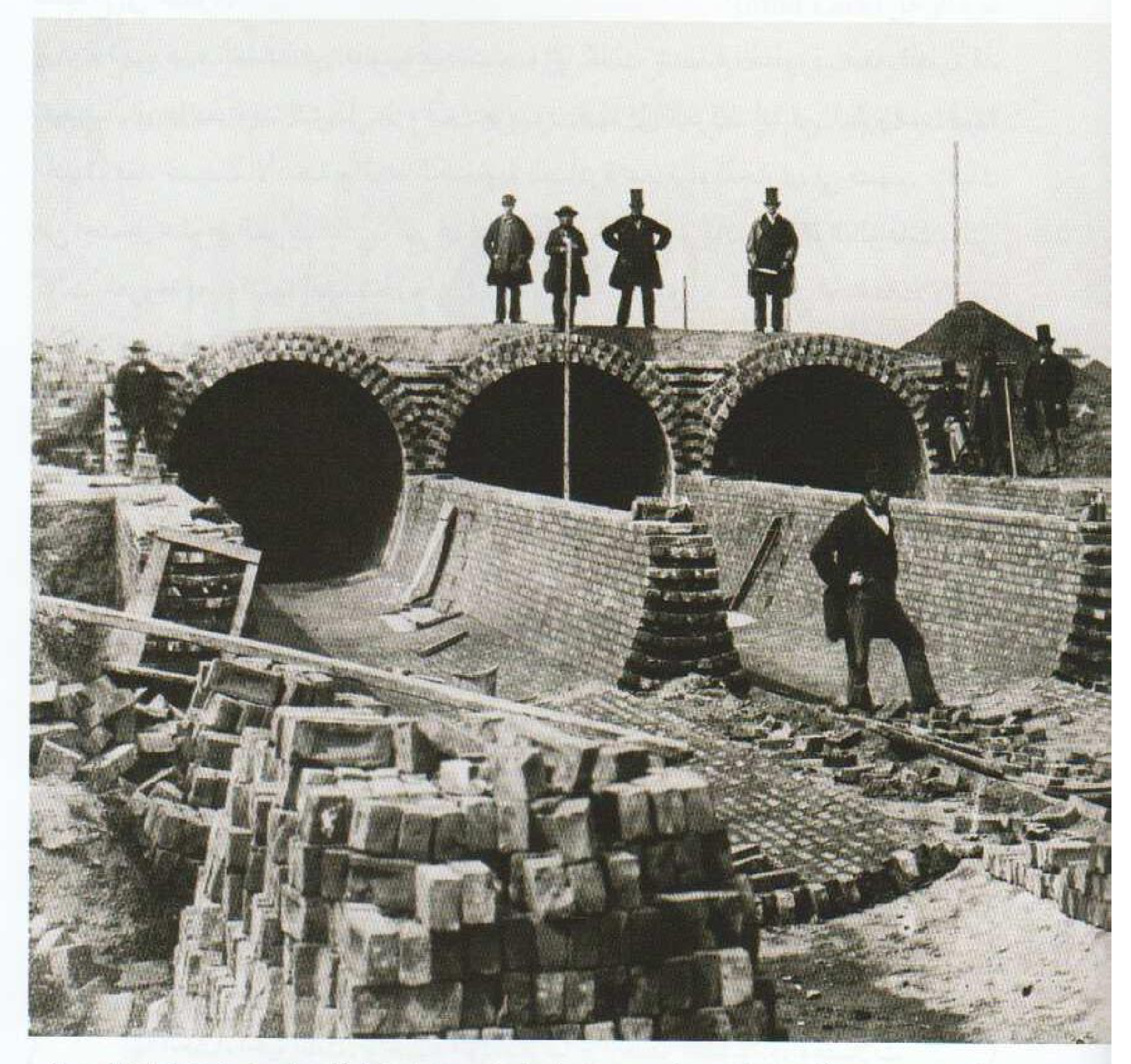
منقب شبكة الصرف الصحي (Tosher):

كان منقبو شبكات الصرف الصحي ملوك الباحثين في النفايات؛ فقد كانوا يمارسون عملاً غير قانوني، ومقززاً في أكثر المواقع التي يمكن وصفها بأنها فيكتورية بحتة، إنها شبكات الصرف الصحي.

وقد أنتجت لندن وحدها خلال خمسينيات القرن التاسع عشر 31,650,000,000 غالوناً من مياه المجاري سنوياً، اندلقت جميعها في نهر التايمز. ونتيجة هذا قتلت الكوليرا عام 1853، عشرة آلاف لندني، وكان يجب القيام بإجراء حيال ذلك. غير أن البرلمان لم يظهر أي تعجل حتى عام 1858، عندما أدى صيفٌ حارٌ طويلٌ إلى «حادثة رائحة لندن النتنة» التي أجبرت أعضاء البرلمان على هجر مكاتبهم. وكانت الحادثة تلك الشرارة التي كانوا بحاجتها للبدء. فلقد سن تشريع حول هذا الشأن خلال ثماني سنوات، وقام المهندس العظيم جوزيف بازلغيتي بإعادة توجيه فضلات لندن بعيداً عن نهر التايمز،

عبر شبكة من الأنفاق وقنوات الصرف المبنية بالطوب؛ تمتد إلى ما يزيد على ألف ومائة ميل.

ولكن لم يكن الغائط أو البول هما المادتان الوحيدتان اللتان كانت المصارف وأحواض الحمامات تنزلانهما. فلقد وجدت جميع المواد الغريبة طريقها عبر مجاري الصرف الصحي. وقضى منقب شبكة الصرف الصحي أو صائد المجاري، حياته في شبكات من الأنفاق- رغم سن قانون يحظر قيامهم بهذا- بحثاً عن قطع نقود معدنية، ومجوهرات، وأدوات المائدة،



لم يكن بازلغيتي يتصور أن بنائه الأعجوبة الهندسية، نظام الصرف الصحي في لندن، قد آمن بيئة عمل مناسبة لملوك المنقبين؛ منقبي شبكات الصرف الصحي.

وقطع من الفحم والحديد، وكتل من المعادن القديمة.

كان جميع منقبي شبكات الصرف الصحي ذكوراً، يتمتعون بقوة جسدية تمكنهم من التعامل مع الأداة الرئيسة في عملهم، إنها عمود طويل -قد يزيد طوله على مترين- منته بمجرفة لتغرس في الماء العكر. وارتدى هؤلاء مئزراً وبنطالاً من قماشٍ كتاني، ومعطفاً طويلاً ناعم الملمس ذا جيوبٍ كبيرةٍ لحمل الأشياء القيمة، وتدلى على ظهر كل منقبٍ كيسٌ، ورُبط مصباح إلى صدره.

ولم تكن هذه العملية غير قانونية فحسب، وإنما كانت شديدة الخطورة. فبعد المطر، قد تفيض البالوعات، وقد تتشكل ظروفٌ يتعرضون فيها إلى الغرق. أما في الظروف الجوية الحارة، فقد تتسبب الأدخنة والمواد الكيماوية الصادرة عن مياه المجاري في قتلهم. ناهيك عن احتمال سقوط الطوب المبني. غير أن أعظم مصدر قلق لهم كان جرذان البالوعات، التي كانت معروفة بعدوانيتها الشديدة، ولهذا كان منقبو المجاري يعملون في جماعات لا تقل عن ثلاثة، وكانوا يحاولون خلال عملهم إلا يتفرقوا في حال تعرضهم إلى هجوم من قبل القوارض الغاضبة.

وقد يجني منقبو المجاري مالاً وفيراً. فقد يجدون كميات كبيرة من قطع النقود المعدنية التي يقتسمونها فيما بينهم، وقد يجني منقب المجاري ثلاثين شلناً من رحلة واحدة، غير أن معدل ما يجنيه الفرد هو ستة شلنات في اليوم. وهذا مالٌ لا يستطيع موظفٌ عادي جَنْيه. ورغم الرائحة العالقة بهم دائماً، فإنهم لم يلقوا المعاملة الشائنة التي لقيها منظفو المداخن أو نابشو العظام. وقد يكون السبب في ذلك أن الخطر المحيق بعملهم، وعدم شرعيته، جعلاهم أبطالاً محليين.

ووجد أن الرواسب تضم المركبات الصادرة عن مصنع الجعة ذاتها، فضلاً عن مصانع الغاز، ومصانع المواد الكيماوية والمعدنية، فهناك الكلاب والقطط والجرذان الميتة، وسقط الحيوانات المذبوحة من المذابح، وقد نجد بها أحشاء الحيوانات، وجميع أنواع أوساخ أرصفة الشوارع، وفضلات الخضار، وروث الإسطبل، وفضلات زرائب الخنازير، والغائط البشري،

ولكن حالما تحط هذه المياه رحالها في نهر التايمز، فإنها تزود «قبرات الوحل» بمكان عملها. ورغم اسمها الشاعري، إلا أن قبرات الوحل كانت بعيدة كل البعد عن القيام بأعمالٍ تبعث المسرّة.

وتطلق عبارة «قبره الوحل» على كل طائر يمشي في الماء الضحل على حواف النهر. وتم استخدام الاسم للإشارة إلى الناس الذين كانوا يبحثون عن الفتات الذي لم يستطيع منقبو المجاري الإمساك به. غير أن هذا الوصف لم يكن دقيقاً؛ فقد كان العمل بعيداً كل البعد عن القبرات. ونهر التايمز خلال القرن التاسع عشر لم يكن وحلاً، بل كان مكب فضلات بشرية.

ويعد هؤلاء النسخة الفيكتورية لأطفال العالم الثالث، الذين نراهم على شاشات التلفاز يعبثون في أكوام القمامة بحثاً عما قد يفيدهم. وكان لدى قبرات الوحل خيارات ضيقة؛ فإحدى كنوزهم قد تكون مسماراً نحاسياً من سفينة يجري تجديدها في وابنغ؛ غير أن كنوزاً كهذه كانت نادرةً أيضاً، لأن قبرات الوحل كانوا يتعرضون للمطاردة، كي يبتعدوا عن السفن. وأصبحت حياتهم أكثر تعقيداً نظراً لارتباط عملهم بالمد؛ فإن لم يتمكنوا من ملء أوانيهم بكنوزٍ قد يجلبها المد معه، فإنهم سيبقون تلك الليلة جوعى.

وكان هؤلاء– ويبلغ عمر بعضهم ست سنوات– يزحفون بين البوارج الراسية في أرصفة مختلفة على نهر التايمز، حفاةَ الأقدام، تلفهم خرقٌ باليةٌ قد لا تستر أجسادهم. وكانوا يمشون في الوحل ببطءٍ حانين ظهورهم على الدوام، ولم يكونوا يحادث بعضهم بعضا بل كانوا يعملون في صمت رهيب. وقاموا– في ظروف الجو الباردة– بتدفئة أقدامهم المتجمدة في الماء الساخن، الذي كان يجري على حواف النهر خارجاً من مجاري المصانع التي كانت تعمل على البخار. وكان هؤلاء، عند ارتفاع منسوب المياه إلى حد لا يستطيعون معه ممارسة العمل، يحاولون جني مالٍ إضافي بذهابهم إلى المدينة، وقيامهم بفتح أبواب العربات للركاب.

وكان ماي هيو قد قابل أحد قبرات الوحل البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، ولم يكن يرتدي سوى بنطال، وقد بدت قدماه متقرحتين لعدم ارتدائه حذاء، وكان والده حمَّالاً يقوم بتفريغ الفحم من على البوارج، ولقي حتفه على إحداها، وانهار عمل والدته بسبب آفة البطاطا. وكان هذا الطفل يرفع بنطاله في لفات بعضها فوق بعض، ويخوض في الوحل وقد انغرست قدماه حتى ركبتيه، وكان على الدوام حافي القدمين. وقد تعلق في قدميه بعض

> والرماد، والغلايات، والأواني الصدئة، والأدوات الزجاجية المكسورة كالجرار، والأباريق، وأواني الزهور، والطوب، وأجزاء خشبية، وطين عفن، وقاذورات من مختلف الأنواع، وحتى الخرق.
>
> **هنري ماي هيو، العمالة والفقر في لندن، المجلد الثاني**

قبرة الوحل (Mud Lark):

قد تكون ظروف عمل منقبي المجاري سارّة كثيراً إذا ما قارناها بظروف عمل قبّرات القمامة؛ فمياه المجاري التي شكلت مصدر رزقٍ لمنقبي المجاري كانت تختلط بمياه جارية.



يعد من أطلق عليهم «قبرات الوحل»، حسب قول هنري ماي هيو «وفقاً لمنظرهم، أكثر الأشخاص الذين قابلتهم خلال تحقيقاتي احتقاراً»

المسامير وقطع الزجاج. لكنه يعاود- بمجرد الانتهاء من تضميد جراحه- غرس قدميه في الوحل قبل حدوث المد. «فإن جاء المد قبل أن أجد شيئا، فإنني سأجوع حتى ينحسر المد»، وقد يتركه انغراس مسمار نحاسي في قدميه مقعدا لثلاثة شهور.

ربما ظننت هنا أننا قد انتهى بنا المطاف في قاع العمالة الفيكتورية، فقد يكون الخوض حافي القدمين عبر مياه المجاري رهيباً، لكنه ليس كاستخدام كلتا يديك عاريتين في عمل مقزز. فإن صدف أن قابلت جامع روث الكلاب، فلا تصافحه بيدك.

جامع روث الكلاب (Pure Collector):

تأتي الكلمة (pure) حسب قاموس تشامبرز (Chambers) صفةً لها المعاني الآتية: نظيف، وغير مغبر، وغير مخلوط، وعفيف؛ وقد تأتي اسماً يعني روث الكلاب أو أي مادة مشابهة.

ويشكل القسم الثاني من هذا التعريف المادة الخام لجامع روث الكلاب. وقد يكون استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى نكتة، بادئ الأمر، غير أن الكلمة تعنى فضلات الكلاب. ويقوم جامع فضلات الكلاب بالتجوال في الشوارع، حاملاً دلواً يضع فيه فضلات الكلاب (والقيام بهذا العمل لا يعنى بالضرورة أنهم استخدموا مجرفة)، ومن المؤكد أن هذه الوظيفة مؤهلة لأن تكون أسوأ الأعمال على الإطلاق، ولكن لا، فجامع فضلات الكلاب لم يكن يكترث لفضلات الكلاب، إن لم يكن هناك من يريد أن يدفع له أجراً مقابلها، بل إن فضلات الكلاب قد يطلق عليها اللفظ نقي «Pure» إذا ما قورنت باستتباعات عملٍ أخر. وقد يكون جامع فضلات الكلاب أسوأ عملٍ له علاقة بالنفايات، غير أن رائحة فضلات الكلاب المقززة ليست سوى جزءٍ من خليط شديد القتامة من الروائح والخبرات التي قد تجسد أسوأ عملٍ إطلاقاً، وعلى مر الأزمان؛ وهو العمل الذي قد يتلقى وسام شرف أسوأ عمل: جائزة الأوسكار لأسوأ عملٍ في التاريخ.

أسوأ عمل في التاريخ

قد تكون قد ذهبت مباشرة إلى نهاية الكتاب لترى المهنة الأسوأ، لكنني على يقين أنك إذا قمت بدورك على أكمل وجه، وتتبعت التسلسل التاريخي لأسوأ المهن عبر الفترات التاريخية المتلاحقة، محاولاً التخلص من رواسب العمالة المتراكمة في القاع، ستكون لديك فكرة جيدة لمكامن الفظاعة التي قد توسم بها أسوأ الأعمال على الإطلاق.

هناك خمس صفات متكررة ظهرت في أسوأ الأعمال التي ذكرت، ولكن بدرجات متفاوتة، فهناك العمل القاسي والمضني كقلب التربة الأنجلو-سكسونية باستخدام محراث خفيف، وعمل حاملي كراسي الركاب المتنقلة، أو شق خطوط السكك الحديدية خلال العصر الفيكتوري.

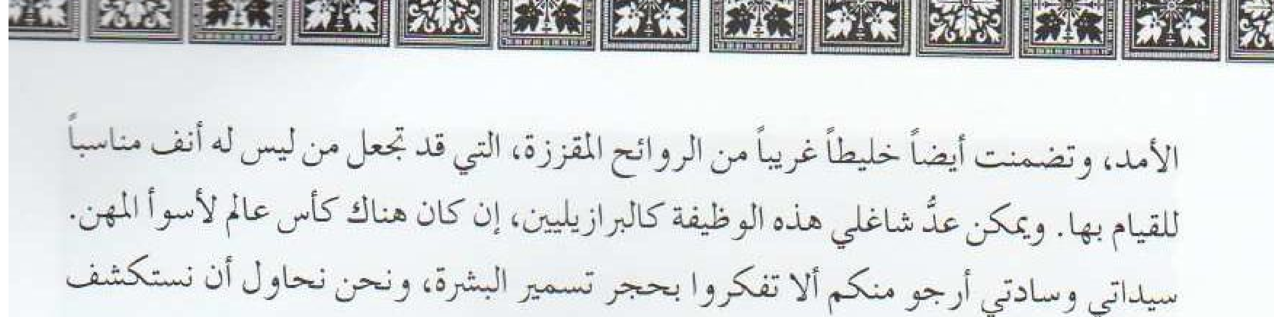
وهناك الأعمال القذرة الشنيعة على اختلاف أنواعها سواء كانت الغوص في أحشاء الأغنام للحصول على أوتار كمان، أو الغوص حتى الكاحل في حوض القصارة.

أما إن كان المقياس هو الراتب المتدني، فإن قبرات الوحل هي الوظيفة الأكثر تنافساً هنا، إلا إن كنت عبد سك النقود، الذي كان يسك النقود بلا أجر يذكر.

والخطورة في العمل تأتي على شكلين: أولهما احتمال الموت المفاجئ المحزن في حرب، كالموت الذي قد يواجه مساعد المفجر أو قرد ملح البارود؛ إما ثانيهما فهو الخطر الغادر المتمثل في المهن المرتبطة بالأمراض، كتلك التي عانى منها صانعو الكبريت أو الغلمان الممثلون الأمرَّين.

وأخيراً، هناك السأم، وهو الجانب الذي يشكو منه معظم الناس هذه الأيام في وظائفهم. غير أن العمل كمحاسبٍ في إحدى المتاجر الكبيرة، أو التحديق في شاشة كمبيوتر، يعدان أقل سأماً من مهنة ناسخ اللفائف الأنبوبية أو مهنة الناسك.

وليست أسوأ مهنة على الإطلاق سوى خليطٍ فريدٍ من تلك الخصائص الأربع التي تم ذكرها. وعدت هذه المهنة- إذا نظرنا للأمر من الناحية الإيجابية- ذات دخلٍ جيدٍ، غير أن المردود المالي لم يكن ذا قيمةٍ عند مقارنتها بالمغالاة التي كانت تتصف بها هذه المهنة في جوانبها الأخرى. فقد كانت مهنة قذرة ومملة ومتعبة، وقد تتسبب بمشاكلٍ صحيةٍ طويلة



الأمد، وتضمنت أيضاً خليطاً غريباً من الروائح المقززة، التي قد تجعل من ليس له أنف مناسباً للقيام بها. ويمكن عدُّ شاغلي هذه الوظيفة كالبرازيليين، إن كان هناك كأس عالم لأسوأ المهن. سيداتي وسادتي أرجو منكم ألا تفكروا بحجر تسمير البشرة، ونحن نحاول أن نستكشف عالم دابغي الجلود غير الاعتيادي.

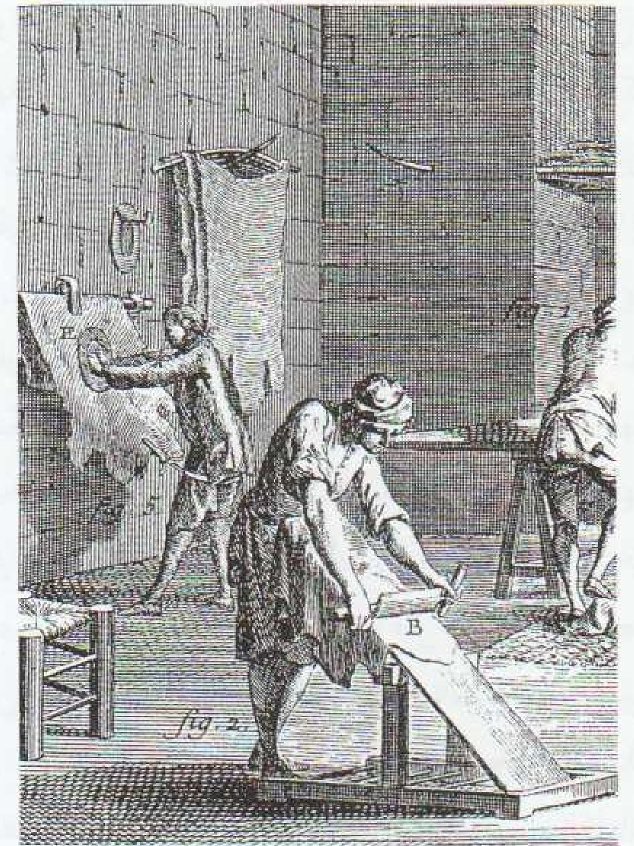
دابغ الجلود/ الدباغ (Tanner):

قد تكون مهنة دابغ الجلود مؤهلة كي ترشح كأسوأ مهنة في أي فصل من فصول هذا الكتاب السابقة. غير أن هناك أسباباً وجيهة لظهور هذه المهنة في نهاية الفصل الفيكتوري. فالدباغون يصنعون الجلود، التي أحرزت مكانة فضلى خلال العهد الفيكتوري بالمقارنة مع غيره من العصور. وكانت الجلود، قبل ظهور المواد الصناعية، تستخدم في صنع مآزر الحفارين، وأحزمتهم، وأحذيتهم، وكذا بالنسبة إلى منقبي المجاري وصائدي الجرذان، وعمال المصانع. كما صنعت منها أيضاً أسرجة الخيل المزخرفة، وأرسانها، وألجمتها، وغمامات أعينها، وجميع الأدوات المتعلقة بالخيول والعربات. ودخل الجلد ضمن الأحزمة المستخدمة في الآلات البخارية التي مدت جميع المصانع والمعامل، مجسدة الاقتصاد العالم الصناعي.

لطالما كانت دباغة الجلود وظيفةً يحاول الجميع تجنبها؛ فقد أشار المؤلف الايطالي الطبي الرائد رامتزيني إلى وضع الدباغين غير الصحي في أواخر القرن السابع عشر.

وينطبق هذا الكلام على الدباغين الذين ينقعون جلود الحيوانات في حفر مليئة بالجير والعفص، ويدوسونها بأرجلهم، ومن ثم يغسلونها، وينظفونها، ويلطخونها بالشحم الحيواني، لأسباب متعددة. وأقصد هنا أنهم مصابون بالاكتئاب بسبب الرائحة النتنة الدائمة والأنفاس القذرة. ويستطيع كل من يراهم أن يشاهد بشرتهم الشديدة الشحوب، وأجسادهم المنتفخة، ونظراتهم المخيفة، وأنفاسهم المكبوتة، وكان جميعهم عابسين. وقد

لاحظت تفشي مرض الاستسقاء بين العديد منهم، وكيف لا، وهم يقضون كل وقتهم في مكان رطبٍ، وفي جو أفسدته الانبعاثات الفظيعة الصادرة عن الجلود المتعفنة. وهنا يراودني السؤال الآتي: كيف لزرائب الحيوانات والبيوت المجاورة ألا تتأثر بهذه الرائحة؟ وكيف للاقتصاد ألا يتدهور؟ فقد لاحظت أن الخيول ترفض المرور- مهما حاولت، وبأي طريقة كانت- بالقرب من هذه المعامل، وبمجرد أن تشتم هذه الرائحة العفنة تجري بأقصى ما تستطيع نحو زرائبها، دون أن تعير اللجام أي انتباه. ربما لهذه الأسباب، كانت البنايات التي يتم فيها التعامل مع الجلود، كما هي الحال مع الأعمال القذرة الأخرى، موجودة بالقرب من أسوار المدينة، أو- كما هي الحال في ميدونا- خارجها، لمنع تلوث الهواء.



قارن هذه المنحوتة التي تصور عمل الدباغ في القرن السادس عشر مع الصورة المقابلة لتكتشف انعدام تطور العمل عبر فترة دامت 500 عام أو يزيد.

بيرنادرينو راماتزيني، حول أمراض العاملين، 1700



تظهر هذه الصورة رجال من بيرموندساي في لندن، وهم يقومون بإزالة الشعر وكشط الأنسجة المليئة بالدهن من جلود الثيران. ومازالت هذه الوظيفة أقل الوظائف قبولاً في كوليتون تانيري في ديفن، وهو المكان الوحيد، الذي مازال يستخدم الطرق التقليدية التي استخدمت في العصر الفكتوري. اكتشفت – عندما جربتها – أن السكين تنزلق فوق الجلد، وأن الدهن يتعلق بها، ويجب أن تتم إزالته من على النصل، مما قد يجعل يديك تتشرب رائحته الكريهة. وبالطبع قد تصبح يداك زلقتين، فتغدو عملية الإمساك بالسكين صعبة جداً.

لكن، رغم احتلال الجلود مكانةً متميزةً خلال العصر الفيكتوري، إلا أنّ مكانة الدابغين آلت إلى الانحطاط. فالعملية التي يتم خلالها حفظ الجلود من التعفن كانت مقززة على الدوام. ولطالما كانت دباغة الجلود إحدى الوظائف التي يتم إقصاؤها إلى أطراف المدينة، بل أجبر الدباغون – كما هي حال ناضحي الحفر الامتصاصية، وصابغي النيلج، والقصارين– على البحث عن دابغين أو دابغات، لإقامة علاقة عاطفية معهن أو الزواج منهن، غير أن مكانتهم كمنبوذين قد أصبحت متفاقمة خلال العصر الفيكتوري.

تعززت مكانة الجلد الفريدة – كما كانت على الدوام – بشدة عن طريق العامل الإنجليزي، حتى أصبحت تحتل مكانة مشابهة للماغنا تشارتا– الميثاق الإنجليزي العظيم– أو مكانة بعض الهتافات كـ «بيت الرجل الإنجليزي قلعته» و«حفظ الله الملكة». وينظر الرجل الإنجليزي للجلد بالثقة العمياء ذاتها التي ينظر فيها إلى بيرته. ولن يقبل بعد الآن استخدام منتجات مطاطية بديلة عن الجلد، كما أن استخدام الخمور الفرنسية أو عصير الليمون بديلاً عن البيرة الإنجليزية غير مقبول. وبغض النظر عن الشكل الذي قد يظهر فيه الجلد، إلا أنه يعكس مقداراً مكافئاً من الاحترام. ويظهر شغف الإنجليز بالجلد بوضوح، عندما نعلم أن الجلد أحد الأحلام التي تداعب عقول الشباب. وقد يبدأ حلم الغلام بامتلاك سوطٍ حقيقي ذي أشرطة جلدية، أو أن يختار بين هذا، وارتداء بعض الأعمال الجلدية المقيتة ذات اللون الطيني، قبل أن يتخلص من مئزر الطفولة والأحذية ذات الطوق. ويحق لمن تزينت قبعته الأولى بقمة جلدية، عوضاً من هيئة وضيعة من الكرتون المطلي بالورنيش، أن يمشي رافعاً رأسه عالياً. وعلينا أن نعترف أننا رغم انفكاكنا عن العادة القديمة بتغطية أطرافنا السفلى بجلد الغزال، فمازلنا نظهر شوقاً عارماً إلى تلك الحالة، وذلك عبر تسمية المواد التي تصنع منها البناطيل بجلد أنثى الظبي، أو لف سيقاننا حتى الركبة بمزيج رفيعٍ ومتأنقٍ من جلد الحصان أو البقرة؛ حتى إن بائع الفاكهة المتجول ذا الفكر المنحط الذي

عدَّت أحذية ويلنغتون بالنسبة إليه موضع احتقار وازدراء، وربما ضحك ساخراً من البناطيل الفضفاضة أو تلك التي قد تصل للركبة، كان يظهر عليه الميل الذي اجتاح الأمة نحو الجلد، وذلك عبر اشتراطه ارتداء أحذية مرتفعة الساق ذات ألسنة طويلة لتتقاطع مع الرباط، بما لا يقل عن ثلاثة إنشات. وليس هناك من شيء قد يضمن لك حرية المرور إلى أفضل غرفة في الحانة أفضل من حقيبة ذات لون بني تقليدي، مختوم عليها الكلمات «جلد مكفول»؛ وإذا ما كانت تحمل التوصية الآتية: «قاسٍ»، فإن الدرجة الرفيعة التي ستتلقاها سترسخ إلى الأبد.

جيمس غرينوود، رحلات غير وجدانية أو طرق بابيلون الملتوية، 1867

وقد أصبح لكل مدينة في بريطانيا الفيكتورية، نظراً للحاجة الماسة إلى الجلد، مدبغتها، وحيثما توافرت المواد الخام بغزارة، تم إنشاء أكثر من مدبغة. فعلى سبيل المثال، يعرض سوق أوكسفورد شاير في مدينة وانتج أكثر مما تحتاجه تلك المدينة من جلود. وقد بلغ عدد ساحات الدباغة في إحدى المراحل ثلاثمئة، تقوم بضخ روائحها العارمة، وبث حجاب قتامة في المجتمع.

أقصي الدباغون إلى الشرق من لندن خلال العصر الفيكتوري، ويقع سوق بيرموندزاي للجلود، أو لنقل سوق جلود الحيوانات في شارع ويستون، ويبعد عن جسر لندن مسافة عشر دقائق مشياً من جهة ساري. إن الحي الذي يقع فيه هذه السوق مكرسٌ بأكمله للسلاخين (Fleshers) والدباغين، والهواء يعج بروائح سيئة. وسكان هذا الحي مميزون. ويا له من منظر عندما تدق الساعة الثانية عشرة، ويأخذ الرجال بالرجوع من أعمالهم، فملابسهم ملطخة بالكثير من البقع، وبناطيلهم فقدت ألوانها بسبب القطران، وارتدى بعضهم مآزر، وطماقات مصنوعة من الجلود غير المعالجة، وحولهم تحوم رائحة الدم... وتمتلئ المخازن المحيطة بالجلود

المدبوغة، وجميع الساحات خلف الجدران المرتفعة ليست سوى مدابغ، تعج بعشرات الآلاف من الجلود المنقوعة في الحفر. وعلى كل زائر يود الذهاب إلى سوق الجلود في بيرموندازي الحصول على أمرٍ مسبق لزيارة واحدة من أعظم منشآت الدباغة. وما لم يتم ذلك، فإن الزيارة في حد ذاتها لن تكون جديرة بعناء السفر، ولن تكون بديلاً حسناً لخلائط الروائح الشنيعة التي تسود المكان.

تشارلز ديكنز، الأصغر، قاموس ديكنز لمدينة لندن، 1879.

ويحصل الدباغون على جلودهم مباشرة من الجزارين المحليين أو من المسلخ. وقد تمت منذ عهد المصريين القدماء دباغة جلود الأبقار، والعجول، والثيران، والخنازير، والخيول، والأغنام وحتى الكلاب. وكان لكل جلدٍ خصائصه المميزة. فجلود العجول مصدر للجلد اللين (كرقاقات الكتابة المستخدمة في أناجيل ليندزفارن)، أما الثيران والأبقار فتعد مصدراً للجلود القاسية المستخدمة في الأحذية والملابس القاسية.

ولم يكن جلد الإنسان بلا خصائص أيضاً. فقد تحدثنا عن سارق الجثث المشهور إدموند بيرك، الذي انتهى به الأمر كمحفظة معروضة في متحف إدنبرا. وقد ورد عن البطل الإسكتلندي ويليم والاس (قلب شجاع) أن قام بسلخ جلد أحد أعدائه الإنجليز وحوّله إلى حزام.

ومع هذا، حاول الدباغون تجنب الانقياد للإغراء بدبغ جلود أصدقائهم وأقربائهم، وركزوا عوضاً من ذلك على جلود الحيوانات. وتُجلب، في بداية الأمر، كمية ضخمة من جلود المسالخ، التي تكون حينها تقطر دماً، ويقوم الدباغ بقصقصتها، وتمليحها، وغسلها، ومن ثم توضع في حفرة ذات رائحة كريهة للتخلص من الشعر، وتطرية الأنسجة. ويتكون المحلول الموجود في هذه الحفر من الجير المطفأ والماء. وقد يكون دباغو العصور الوسطى قد استخدموا البول، الذي عد– في تلك الفترة وكما هي الحال هذه الأيام– مادة يسهل الوصول إليها، ومتوفرة في كل مكان. وقد تبقى الجلود في حفر الجير أسابيع، فتتعفن خلالها وتصبح لينة وتحتاج إلى رفق شديد. ومن ثم يقوم الدباغ، عندما يعتقد أن الجلود قد أصبحت



دباغون من العصر الفكتوري يحملون أدوات عملهم. ولنا أن نفترض أن الصبية الظاهرين في الصورة هم الجيل القادم من الدباغين، لكنهم لم يعوا حينها أنهم قد ولدوا لممارسة أسوأ مهنة في التاريخ.

جاهزة، بإخراجها ووضعها على كرسي مقوس عظيم يسمى «بعارضة السلاخة»، حيث تتم عليه إزالة الشعر، واللحم المتعفن من الجهة الداخلية.

وكان العمل أقسى مما يدو، فقد كانت الجلود المغموسة بالجير ثقيلة وزلقة جداً. وما إن يأخذ الدباغ بنشرها، حتى تأخذ كتلٌ ضخمةٌ من الشعر، تعج برائحة الجير اللاذعة، بالتشكل على يديه.

وبمجرد وضع الجلد على الأريكة، يبدأ الدباغ عمله الممل في إزالة الشعر باستخدام سكين مقوسة ذات مقبضين. ولقد حققت هذه المهمة مكانة استثنائية، لأنها مزجت بين العمل الجسدي الجالب للسأم والتركيز الشديد. فيجب- خلال هذه المرحلة- إزالة جميع منابت الشعر بالكامل، لتعذر إزالتها في حال دُبغ الجلد. فأحدنا لا يريد أحذيةً أو حقائب يدٍ، وقد توشحت ببواقي شعر هنا وهناك.



لم يعتمد الدباغون على جامع فضلات الكلاب لتزويدهم بما يحتاجون منها، بل قاموا بتربية كلاب ضخمة في أماكن عملهم كانت تفيدهم على ثلاثة صعد: الحراسة، وصيد الجرذان، ومصدر لما يحتاجون إليه من الفضلات.

وعند الانتهاء من إزالة الشعر كله، يُقلب الجلد، ليقوم الدباغ - باستخدام السكينة ذاتها - بإزالة جميع الأنسجة الدهنية التي قد تكون -بعد غمرها فترة طويلة- قد انتفخت وتهيجت بسبب السائل الجيري. ويتم حفظ هذا الدهن، ويرسل ليصنع منه الصابون.

ورغم أن الأمور سيئة إلى هذا الحد، فإنها تأخذ- عند الوصول إلى هذه المرحلة- بالمزيد من الانحدار؛ فهي المرحلة التي يتم خلالها استخدام فضلات الكلاب، فيجب وضع الجلود المزال عنها الشعر والدهن في حفرة أخرى للتخفيف من حدة الجير، ولتطرية الجلد بشكل أفضل. وتصر تعليمات الصحة والسلامة هذه الأيام على استخدام بديلٍ صناعي. غير أن المادة المخففة في العصر الفيكتوري كانت مزيجاً مقززاً من الماء، وفضلات الكلاب الموجودة على الدوام في إحدى جوانب غرفة إزالة الشعر.

ولكن لماذا فضلات الكلاب؟ قد تحوي هذه الفضلات عناصر متبقية من معدة الكلب. وتتصف هذه الأحماض والأنزيمات بقدرتها الطبيعية على تحليل اللحم والجلد وهضمهما. إن غمس الجلد لفترة وجيزة في محلول فضلات الكلاب، يزيل الجير عن الجلود، ويشبعها بما يكفي من البكتريا والإنزيمات لجعلها لينة ومرنة.

ورغم أن الجلود لا تمكث في الحفرة سوى فترة وجيزة جداً، إلا أن الفضلات قد تبقى في الحفرة لتختمر أسابيع. ويفضل الدباغون الفضلات القديمة على الجديدة، ويقوم الدباغون، كما لو أن رائحة الجير العفنة، وحفر التخفيف لم تكفهم سوءاً، بإضافة تحسيناتهم الخاصة بهم على هذه العملية. فقد قاموا، لتسريع عملية الدباغة، بتسخين المحاليل المختلفة مستخدمين أنابيب بخارية تم مدها تحت الحفر. لهذا أصبح خليط فضلات الكلاب حساء دافئاً، ينشر سحابة من الغائط. قد تمتد فوق المدبغة والمنطقة المحيطة.

وتكمن مهارة الدباغ في إبقاء الجلود في محلول التخفيف وقتاً مناسباً، قبل أن يقوم بإعطائها المعالجة الأخيرة، وهي نقعها في سائل الدباغة مدة عام كامل. وتحتاج عملية الدباغة مادة التنين كتلك الموجودة في الشاي. والاستثناء الوحيد هنا أن أوراق الشاي المستخدمة في عملية الدباغة هي شظايا من لحاء البلوط بحجم اليد. ويتم نقع الجلود في سائل معتق قوي من هذا الشاي، حتى يتم تصفية السائل عنها، وتجفيفها ببطء وحرص تحت غطاء مباشر.

ولإبقاء الجلود في جو جاف، يتم إشعال النار على الدوام، ولهذا امتزج في هذا المكان الدخان الصادر عن النار، وروائح حفر الدباغة، والروائح العطنة لحفر الجير، ورائحة المحلول المخفف المنتن. وأدى هذا الخليط من الدخان والبكتريا، والمواد الكيميائية إلى جميع أشكال التدهور الصحي، وحدوث أمراض انتقاص الحال. لا بد أن هؤلاء العمال كانوا مرنين إلى حد غير طبيعي، وينطبق هذا التعميم على زوجاتهم، اللواتي كُنّ يجهزن أنفسهن كل ليلة لشم رائحة كريهة.

وقد منحتنا عملية الدباغة– نظراً لتعدد مراحلها– اسمي عائلتين بريطانيتين هما تانر وباركر. ولقد ذكرنا سابقاً أن الدباغين كانوا بحاجة إلى كميات كبيرة من لحاء الشجر في الدباغة، والفقرة التالية إعلان من جريدة ديربي ميركوري عام 1793:

بحاجة إلى مقشري لحاء الشجر – لتقشير كميات ضخمة لموسم هذا العام 1793، من أخشاب البلوط في برادلي بالقرب من أشبرن. ونظراً لأن شجيرات البلوط مزروعة في سطور من خمس، فإن من يرغب بتقشير واحدة فقط، أو الصف كله، فعليه التقدم بطلب إلى السيد بكستون، الدباغ في آشبورن، أو للسيد فيرن، تاجر الأخشاب في برادلي.

وتجسد مهنة الدباغة مفهوم الوظيفة الأسوأ. فقد كانت عملاً شاقاً بحق؛ كما أنها– إن نظرنا إليها من منظور أبناء القرن العشرين السريع التقزز– منفرة إلى أبعد حد. ليس هذا وحسب، وإنما نُبذ الدباغون من مجتمعاتهم، ورغم كل هذا، كانت الدباغة مهنة تتطلب الحذق، فلقد وفرت فرص عمل لآلاف الأشخاص خلال العصر الفيكتوري. والأهم من ذلك، فلولا الدباغون والجلد الذي قاموا بصناعته، لما كان هناك محاريث تجرها الخيول، ولا خيالة، ولا فرسان، ولا خيول حرب، ولا مخطوطات مصورة، ولا لفائف أنبوبية، بل إن المجتمع والتاريخ سيتوقفان تماماً.

غير أن هذا الأمر ينطبق على معظم الوظائف المبينة في هذا الكتاب، فلولا حافد الفارس، وقرد ملح البارود، وناضح الحفر الامتصاصية، لما كان هناك في التاريخ معارك تسمى آجنكورت، وترافلغار، ولما كان هناك قصر هامبتون. نحن ندين بالكثير لهؤلاء الناس، الذين لم يحمل التاريخ أسماءهم، والذين قاموا بأداء أسوأ المهن عبر التاريخ. فقد أسهموا كثيراً في تكوين عالمنا وفق ما نراه الآن.

سابعاً

ما المهن التي غدت ألقاب عائلات؟
هل لديك سلف أو جد قام بإحدى أسوأ المهن؟

بدأت أسماء العائلات بالظهور في بريطانيا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وكانت هناك أربعة أنواع رئيسة من أسماء العائلة، أولها الذي يصف ارتباطاً بعائلة أو فرد كاسم روبنسون (Robinson) على سبيل المثال، وثاني هذه الأنواع ما كان لقباً يصف حالات جسدية أو عاطفية، كاسم براون (Brown) (اللون أو الشعر) أو رووت (Root)، الذي يعني مبتهج أو سعيد، وثالث هذه الأنواع ما كان مرتبطاً بمكان كـ «لندن» (London)؛ ورابعها ما كان يصف وظيفة ما.

قد تكون بعض الأسماء المرتبطة بعملٍ ما، واضحة بنفسها، ومن هذه الأسماء باربر (الحلّاق)، وبلمر (السبّاك)، وبيكر (الخبّاز) وما كان على شاكلتها. غير أن بعض الأسماء قد يكون مرتبطاً ببعض الأعمال التي اختفت منذ فترة ليست بالقصيرة. وبعض أسماء العائلات المرتبطة بمهن واضحة، على الأرجح، لم تكن واضحة تماماً. ففارمر (مزارع) لم يكن يعمل في الزراعة، بل كان يعمل في جمع الضرائب، وكلمة بانكر (موظف في بنك) لم تكن اسم عائلة مرتبطةٍ بعملٍ ما، بل كانت تعني «أحد الساكنين على أطراف التلة». وكان لبعض الأسماء ككلمة سلوتر (يذبح حيواناً) وغلاس (زجاج) اشتقاقاتها المزدوجة. فقد تعني أنه كان هناك جزارٌ أو صانع زجاجٍ في عائلتك؛ أو أنك انحدرت من إحدى القرى السبخية المعروفة بسلو (Slough)، أو أن لكَ أقارب إسكتلنديين لهم عيون غلاسية أي زرقاء، ويبدو هذا الأمر مخادعاً إلى حد ما. وليست هناك طريقة مؤكدة نستطيع عبرها أن نجزم بها، لكن على الرغم من هذا المأخذ، إليكم قائمة ببعض أسماء العائلات البريطانية التي اشتقت من مهن كان أجدادنا يقومون بها، قد يكون بعضها مشهوراً، وأخرى غامضة، وقد أشرت إلى بعض التغييرات الواسعة التي حدثت على الأسماء، وكانت التغييرات في التهجئة هي الأكثر شيوعاً، ومنها كلمة (Smoth) التي قد تكتب (Smyth) أو (Smythe)، وتركتها لتقدير القارئ.

وقد لا تكون جميع المهن السيئة قد اخترعت عندما بدأ تداول هذه الأسماء. ولهذا لن

نجد شخصاً اسمه جورج ميول سكافنجر (جورج نقاب الغزل)، أو زو سيدان تشار كاريير (زو حامل الكرسي المتنقل). ومع هذا، فإنني أشرت إلى أسماء العائلات القروسطية التي أصبحت فيما بعد إحدى المهن في القرون اللاحقة:

أركر (Archer) – النبال / رامي السهام.

أركرايت / هاتريك (Arkaright / Hattrick) صانع الصناديق

باجيلور (Bachelor) فارس شاب، أو شخص مبتدئ بالسلاح، وقد يكون حافد الفارس.

باكون (Bacon): جزّار الخنازير.

بادجرر (Badger): بائع متجول، أو قُبَيْسيّ، أو صانع حقائب.

بالي (Bailey): حاجب المحكمة/ وكيل أراض.

باكر (Baker) والصيغة المستخدمة للأنثى باكستر (Baxter): خبّاز

بانرمان (Bannerman): وهي كلمة إسكتلندية الأصل وتعني حامل الراية.

بانيستر (Bannister): صانع السلال/ السلاّل

باربر (Barber/ Barbour): الجرّاح الحلاق

باركر (Barker/ Barkes): الدبّاغ

بوكر (Booker): ناسخ أو القصّار

بومان (Bowman): النبّال

بوير / بوورز (Bowyer/ Bowers): صانع أو تاجر الأقواس.

برينر (Brenner): حارق الجير أو الفحم.

بروير / والصيغة للأنثى بروستر (Brewer/ Brewster): مُخمِّر شراب المزر.

بكمان (Buckman): مالك الماعز، أو مشتقة من (books) الكتب، بمعنى عالم.

بولنجر (Bullinger/ Pullinger): خبّاز مشتقة من الكلمة الفرنسية

(Boularger).

بولمان (Ballman): مالك ثيران

بتجر (Butcher، Bowcher، Bowker): جزّار/ لحّام

بتلر (Butler): خادم مسؤول عن قبو الخمر

بايرز (Byers): العامل في حظيرة الأبقار

كالندر (Callender): شخص يرق ويملس القماش الصوفي

كانتور (Cantor): القائد أو رئيس جوقة المرتلين في دير أو كاتدرائية.

كاربنر (Carbaner): صانع وبائع الفحم

كارل (Carl): فلاّح (مشتقة من Churl)

كاربنتر (Carpenter): نجّار

كارتر (Carter): سائق العربة

كارترايت (Cartwright): صانع العربات

كارفر (Carver): ناحت الخشب (وفي بعض الأحيان الحجر)

كاش (Cash): صانع الصناديق

تشافر (Chafer): حارق الجير

تشامبرلان (Chamberlain): ضابط مسؤول عن الحجرات الخاصة بالملك أو السيد (وهو الدور الذي لعبه فيما بعد موظف الحمام المتنقل).

كاندلر (Chandler): صانع الشمع

تشابلين (Chaplin): قسّيس

كارمن (Charman): سائق عربة نقل أو حَمّال

تشوسر (Choucer): صانع أحذيّة (مشتقة من الكلمة الفرنسية Chauces، وتعني غطاء للقدمين. انظر الكلمة الفرنسية الحديثة Chaussures).

تشكر (Checker): كاتب يعمل في نضد الحساب.

تشيزمان/ تشيزرايت (Cheese man/ Cheese wright): جبّان

كلارك (Clark): رجل يعمل في مراتب دينية ثانوية عالم، أو مسجل.

كليفر (Cleaver): الفصّام، شخص يقوم بتقسيم الخشب إلى نصفين باستخدام الأوتاد بدلاً من نشرها

كوكيريل (Cockerell): بائع الديوك، موزع الدواجن

كولمن/ كولير (Coleman/ Collier): الرجال الذين يقومون بحرق الفحم وبيعه.

كونر (Conner): مفتش شراب المزر

كونستابل (Constable): المسؤول عن أمن بيت، أو قلعة أو حي

كوك (Cookce/ Cock): طبّاخ

كوبر (Cooper/ Cowper): صانع البراميل، والدلاء، والأحواض

كوارد (Coward): راعي الأبقار

كريك (Creek): صانع سلال/ سلاّل مشتقة من كلمة (Creke) في إنجليزية القرون الوسطى، وتعني سلّة

كريبس (Cripps): صانع الأكياس ومشتقة من كلمة (Crippes) في الإنجليزية الوسيطة

كروبر/ كرابر (Cropper/ Crapper): الحَصّاد

كَريير (Currier): مطري المجلد

كتلر (Cutler): صانع السكاكين، أو مصلحها، أو بائعها

دوبر (Dauber): المجصِّص، باني البنايات من طين ومسّابك

ديكون (Deacon): الشمّاس

ديلفر (Delver): عامل المحجر

دوور (Dower): عَجّان، خبّاز

درابر (Draper): صانع وبائع القماش الصوفي

دروفر (Drover): الراعي

داير (Dyer): الصبّاغ

إيور (Ewer): الخادم الذي يزود الضيوف بالماء لغسل أيديهم.

فولكنر (Falkner): صيّاد يستعين بالباز

فيشر (Fisher): صائد أسماك

فلاكسمان / فليكسر (Flaxman/ Flexer): ملين وبائع الكتان.

فليتشر (Fletcher): صانع النبال وبائعها

فوريستر/ فورستر/ فوستر (Forester/ Forster/ Foster) حراج أو حطّاب

فوروارد/ فورمان (Foreword /Foreman): راعي خنازير مشتقة من الكلمة (Fur) في الإنجليزية القديمة وتعني خنزير.

فولر (Fowler): صائد الطيور البرية

فرير (Frear/Frier): راهب

فولر (Fuller/Voller): قصّار

فيرمج/ فيرمنجر (Furmage/ Firminger): صانع الجبن أو بائعها (مشتقة من الكلمة الفرنسية Formage).

غاردن/ غاردينر (Garden/Gardiner): بستاني

غارليك (Garlic): بائع الثوم

غارنر (Garner): حارس مخزن الحبوب

غيلدر (Gilder): طالي المعادن

غلاس/غلازير/غلاشير (Glass/Glazier/Glaisher): صانع الزجاج/ زجّاج.

غلاسمان (Glassman): تاجر الزجاج

غليمان (Gleeman): مغنٍ

غلوفر (Glover): صانع القفازات

غوتر (Goater): راعي ماعز

غولد سميث (Goldsmith): صائغ ذهب

غرانش (Grange): المسؤول عن مزرعة

غراسمان (Grassman): بائع الدهن

غرافز/ غريفز (Graves/Grieves): مشرف

غرينسميث (Greensmith): صائغ نحاس/ نحّاس.

غروم (Groom): خادم/ خدّام

هوول (Hall): عامل في بيت المزرعة

هامر (Hamer/Hammer): صانع المطارق

هانجر (Hanger): جلاّد

هاستر/هاستلر (Haster/Hastler): غلام السفود، مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة (haste) وتعني السفود.

هاتر (Hatter): صانع القبعات أو بائعها

هوكر (Hawker): مربي الصقور

هايورد (Hayward): الرجل المسؤول عن بناء السياج حول أكوام التبن لمنع قطعان الماشية من الاقتراب

هايرد/ هوردر (Heard/Hurd/Horder): راعٍ

هيكلر (Heckler): ملبس الكتان

هيفر (Heffer): راعي الأبقار

هينمان (Henman): الشخص المسؤول عن الدجاج

هيرميت/آرميت (Hermitte/Armette): الناسك

هيور (Hewer): قاطع الحجارة

هوغرد (Hoggard): راعي الخنازير

هولستر (Hollister): المسؤول عن بيت دعارة

هومر (Homer): صانع الخوذ

هود/ هودر (Hood/Hodder): صانع القلنسوات

هوكر (Hooker): صانع الكلابات

هوبر (Hooper): صانع أطواق أغطية البراميل

هورنبلوور (Hornblower): نافخ البوق، الرجل المكلف بنفخ البوق

لاستدعاء الناس للعمل.

هورنر (Horner): صانع الملاعق والأبواق من قرون الحيوانات

هوركس (Horrocks): لقب للإشارة لصانع السفن/ سفّان

هنت/هنتر/هنتسمان (Hunt/Hunter/Huntsman): صائد

هسبند (Husband): مزارع

هسي (Hussey): سيدة البيت

إنمان (Inman): قيم النزل

جاغر (Jaggar): حمّال

جنر (Jenner): مهندس، صانع الآلات العسكرية

جويل (Jewell): صانع الجواهر أو صائغ الذهب

جوينر (Joiner): نجّار

كييت (Keat): راعٍ

كيبل (Keeble): صانع الهراوات

كيلوغ (Kellogg): جزّار/ لحّام

كدمان (Kidman): الشخص المسؤول عن العناية بالأطفال

كتشن/ كتشنر (Kitchen/Kitchener): عامل في المطبخ

نايت (Knight): خادم الفارس

لاست (Last): صانع قوالب الأحذية

لافندر (Lavender): القصّار

ليج (Leach): طبيب

ليجمان (Leachman): خادم الطبيب

ليدبتر (Leadbetter): سائق أو حامل العربة

ليدر (Leader): سائق أو حمّال

ليغات (Legat): سفير

ليمر (Limmer): ناسخ المخطوطات

ثامناً

دليل أسوأ المهن

يقدم لنا القرن الحادي والعشرون تنوعاً فريداً من الخيارات المهنية. وأظن ملياً أن كلَّ مهنة قد تمتهنها– إن كنت تعيش في العالم المتحضر– سواءً أكنت طالباً، أم قادك الزمن إلى أن تتاجر بأمعاء الخنازير، أو كنت عالمَ آثار ذا أجرٍ متدنٍ، ستكون بشكل– لا يدع مجالاً للشك– أفضل من مهننا التاريخية السيئة التي تم ذكرها. ولكن، ماذا عسى أن تكون مهنتك إن كنت قد ولدتَ قبل مئة، أو خمسمئة، أو ألف سنة؟ إن الاستبيان الآتي، الذي تم تصميمه بدقة شديدة، قد يخولك إيجاد المهنة السيئة المناسبة لك بشكل تام.

1. دخلت محل بيع الصحف المعتمد لديك لشراء صحيفةٍ، وبعض حبوب النعناع. فرأيت عبرَ شباكِ المحل، بعض الرجال المقنعين يخرجون من المبنى المجاور. كيف ستتصرف؟

أ. تخرج مسرعاً من المحل، منقضاً على الرجل الذي شاهدته يطلق الرصاص من بندقيته، فتنال مجداً لا سابق له.

ب. تطلب من بائع السجائر الاتصال بالشرطة، بينما تقوم أنت بتدوين رقم السيارة الهاربة.

ت. تنظر إلى الأسفل، متظاهراً بالاستغراقِ في مجلة «آنجيلنغ تايمز».

ث. تجذبك مجلة «آنجلنغ تايمز» بحقٍ، وبخاصة صورة سمكة الشبوط، التي فازت بجائزة نظراً لكبر حجمها، فقد بلغ وزنها 64 رطلاً.

2. اقترح عليك صديقك أن تقضيا عطلة نهاية الأسبوع بالمشي في الجبال الويلزية. ماذا ستأخذ معك؟

أ. أحذية سميكة ذات بطانة صوفية، وجميع لوازم الجو، وشناكل التسلق، ونقار الثلج، وكيك كندل بطعم النعناع، ومئة متر من الحبال القابلة للشد.

ب. سترة ضد المطر، وبعض أحذية المشي، وقارورة قهوة، ودليل أر.إس. بي. بي. (RSPB) لطيور أوروبا.

ت. حذاءً رياضياً أو زوجاً من بناطيل الجينز القديمة في حال أن اضطررت للانزلاق على قفاك من مكان مرتفع، ونسخة من «دليل الحانات الجيد».

ث. نسخة من «دليل الحانات الجيد»، ومالاً يكفيك، بينما يقوم صديقك بالمشي في الجبال.

3. بينما كنت تقوم برمي عصاً لكلبك في المتنزه. استقرت العصا- وبشكل يماثل الحظ المشهود في الاستبيانات- في بركة ماءٍ آسنٍ غير مستخدم. تبع الكلب العصا، وتورط في محنةٍ قوامها الطين الكريه الرائحة، وفضلات الإوز، والوحل. كيف سيكون رد فعلك؟

أ. لا شيء، لأنك تعتقد أن الكلب يصلح لعيد الميلاد لا للحياة العملية.

ب. تمخر عباب هذه الأوساخ دون أن يكون لديك أدنى فكرة فيما إن كنت ستعلق فيه أم لا.

ت. تمخر عباب هذه الأوساخ بعد أن تخلع بنطال الليفيس، وقميصك.

ث. تستدعي مراقب المتنزه، وتقوم بتشجيعه، بينما يقوم هو بشق طريقه إلى الكلب.

4. تم وضع دليل هاتف جديد على عتبة بابك. كيف سيكون ردّ فعلك؟

أ. قد لا تلاحظ أي تغييرٍ نظراً لتراكم الفواتير، والصحف المجانية، والبريد غير المرغوب فيه على باب بيتك.

ب. تقوم بوضع دليل هاتفك القديم مكانه على الفور.

ت. تقوم بوضعه فوق الدليل القديم الذي يحوي بعض أرقام الهاتف الضرورية المؤشر عليها بعلامة.

ث. تقوم بنقل أرقامك المهمة إلى الدليل الجديد، ومن ثم تقوم بقراءة الصفحات الأولى لترى الميزات الجديدة التي ضمها الدليل الجديد، وحفظ جميع الأرقام المجانية عن ظهر قلب.

5. قامت حماتك بتمرير اسمك إلى البرنامج التلفزيوني: «ما مدى نظافة منزلك؟» وقامت إحدى باحثات البرنامج بطرق بابك لترى فيما إذا كنت ملائما لأن يقوم آفي وكيم بزيارتك. وكانت محطتها الأولى

مرحاضك وحمامك. كيف سيكون ردّ فعلها؟

أ. قد تضطرب المفتشة ويتغير لون وجهها حرجاً، وقد يتطلب إقناعها تناول بعض الويسكي.

ب. قد تفضي لك أنك مناسبٌ تماماً للبرنامج، لكنها تنصحك بأن تقوم بترتيب بعض الأمور.

ت. تقوم برفضك على أساس أنك غير قذرٍ بما يكفي.

ث. تحاول أن تسجلك في برنامج آخر مشابه لبرنامجهم يسمى «هايجين هتلرز».

6. تحاول شركتك أن تتماشى مع وضعٍ إضافيٍ جديدٍ فرضه أحد الزبائن المهمين، وقد أدى إلى تراكم العمل أمام الجميع. كيف ستتصرف؟

أ. تخبر رئيسك في العمل أنك ستعمل ليل نهار حتى يتم إنجاز العمل.

ب. تغوص في العمل كالآخرين، لكنك تأخذ بعض العمل معك إلى البيت دون أن تقوم بعملٍ إضافيٍ في المكتب.

ت. تواصل عملك كالمعتاد، فالمشكلة ليست مشكلتك، وليس هناك حافز للقيام بعمل إضافي.

ث. تحضر معطفاً إضافيا للعمل، وتضعه على مسند كرسيك ليعتقد الجميع أنك في مكتب آخر، تقوم بإنجاز عملك على أكمل وجه، في حين أنك تقضي استراحة غداءٍ طويلةٍ.

7. تجري حانتك المحلية مسابقات لليلة الجمعة. كيف سيكون ردّ فعلك؟

أ. ترفض الاشتراك في أي شيء له علاقة بمسابقة التهجئة.

ب. تشترك مرةً واحدة كنوع من التسلية، ولكن تفضل ألا يقاطَع تناولك للمشروب بأسئلة حول اسم جون واين الحقيقي وهو ماريون موريسون.

ت. تشكل فريقاً، قد تسميه بشكل مثيرٍ للسخرية «الأوغاد الغشاشون»، وتجري المنافسات بشكل منتظم.

ث. تقوم بالانزواء على نفسك في كل أسبوع، وتقضي الليالي الست الأخرى بقراءة كتب سخيفة.

8. قررت وقد أصابتك نوبة اندفاع في إحدى الحفلات أن تقوم بأداء قفزة البونجي (القفز الحر من مكانٍ مرتفع، بينما تكون قدماك مربوطتين بحبل) كوسيلة لجمع التبرعات. كيف سيكون ردّ فعلك؟

أ. تمضي قدماً، فهي سبب وجيه للضحك، دون أن تقلق بشأن الحصول على الكثير من الراعين.

ب. تشعر بالالتزام تجاه ما قلته. وتحاول خلاله أن تجمع أكبر مبلغ من المال، وأن ترتدي بناطيل مطاطية في حال أصابك الرعب.

ت. تهاتفهم لتتبرأ من التزامك، على أساس أن الوعود المقطوعة في حالة السكر لا يمكن تقديمها كدليل في المحاكم.

ث. تغير اسمك وتهاجر.

9. هناك وظيفة تريدها، ولكن أمرها مرهون بإرادة رئيسك المباشر؟ إلى أي مدى قد تذهب للحصول عليها؟

أ. تعمل جاداً معتقدا أن سجل عملك سيؤهلك للحصول عليها.

ب. تدعو رئيسك لتناول مشروب معك، وتذكره أو تذكرها بالأوقات الخوالي مع التأكيد أن يتذكر سجلك الوظيفي.

ت. تدعو رئيسك لتناول مشروب، ومن ثم تقوم، مدركا أنه يشاركك التوجهات الجنسية ذاتها، بعرض جسدك عليه.

ث. كل ما تم ذكره، إضافة إلى وجبة مكونة من خمس مراحل في مطعم أنيقٍ، والتزلف له، والخسارة أمامه في الغولف عن قصدٍ، عارضا نفسك وشريك عمرك للمشاركة في مشهد جنسي عبودي خسيس.

10. لسوء حظك، سقطت إحدى الجواهر الثمينة من زوج أقراط ثمين حافظت عليه عائلتك من أجيال خلت في عَشاء الكلب الذي سارع لبلعها. كيف ستتصرف؟

أ. تقتل الكلب، ومن ثم تقوم بنزع أحشائه للحصول على جوهرتك.

ب. تدعها تذهب، فهذه هي الحياة، ومن ثم تراجع التأمين فيها، وتحتفظ بالقرط الآخر لأسباب عاطفية.

ت. تنبش فضلات الكلب لليومين التاليين بعصا، يحدوك الأمل خلالهما بأن تجد الجوهرة.

ث. تقوم بجمع براز الكلب كهواية، ولهذا كان قيامك بغرس أصابعك في برازه بحثا عن الجوهرة أمراً سهلاً.

النتائج:

إن كنت قد اخترت الإجابة (أ) للسؤالين الثالث والعاشر، فلا تواصل قراءة النتائج، فأنت ملائم جداً لأن تكون قاتل الكلاب والقطط في فترة الطاعون. وإن كنت قد اخترت الجواب (ث) للسؤال العاشر، فلا تبحث إلا عن جامع فضلات الكلاب. أما إن كانت إجاباتك غير ذلك، فسجل النقاط الآتية:

(أ).10	(ب).5	(ت).0	(ث).-5
(أ).10	(ب).5	(ت). 0	(ث). -5
.3	(ب).30	(ت). 10	(ث).0
(أ)20.	(ب).5	(ت).0	(ث).-10
(أ).40	(ب).20	(ت).0	(ث).-10
(أ).0	(ب).5	(ت).-5	(ث).10
(أ).5	(ب).0	(ت).-10	(ث).-20
(أ).10	(ب).5	(ت).0	(ث).-5
(أ).5	(ب).0	(ت).10	(ث).30
	(ب).0	(ت).10	

ماذا يجب أن تفعل؟

النتيجة 100 فأكثر: ليس هناك ما تخشاه، وخاصة الأشياء الموحلة. إن كنت قد تساءلت يوماً عن مصدر رائحة غريبة، فقد تكون أنت مصدرها. وأنت مناسب للقيام ببعض أقسى المهن وأكثرها قتامة كالقصارة، وبناء بيتك من البراز كما كان يفعل الفلاح القروسطي، والعبث بأحشاء الأغنام كما كان يفعل صانع أوتار الكمان، أو التنقيب عن بيوض القمل، أو الدباغة، أو الاعتناء بالحمام المتنقل كنوعٍ من النقلة النوعية.

النتيجة : 70–100: أنت واثق في نفسك جداً، وشجاع كالأسد، لكنك لا تتصف بالكثير من الفوضوية. فقد تكون ملائماً لأن تعمل حافداً للفارس من أجل أن تصبح فارساً في المستقبل، لكنك ملائم أيضاً لأن تقوم ببعض أسوأ الأعمال التي تنطوي على خطورة عالية، كمهنة المعتلين، وقردة الخنازير، والحمالين، واالضباط الراكبين، ومساعدي المتفجر، وجامعي بيض الغلموت.

النتيجة: 30–70: لا تمانع بالقيام بما يتم إسناده إليك من أعمال كسب غير مشروعة وخطرة، لكنك لا تفضل أن تلقى حتفك في أثناء قيامك بهذه الأعمال. إن كنت جلداً بما يكفي، فعليك أن تجرب عمل حامل الكرسي المتنقل، أو عمل الباحث عن العظام أو أعقاب السجائر، أو منقبي شبكات الصرف الصحي، أو العاملين في مناجم الذهب في العهد الروماني، أو مشغلي عجلة الرافعة، أو الماهنين.

النتيجة: صفر–30: لا يستطيع أحد أن يقول إنك خجول من القيام بأي عمل، غير أنك مناسب للقيام بعمل يستدعي الجلوس كثيراً، حتى لو كان ذلك العمل سخيفا ومملاً. وعلى الرغم أنّ مهنة الجلاد تتسم بالقذارة، إلا أنها لا تستهلك الكثير من وقتك، وإن كنت لا تمانع أن تبتل أو تجلس فترة طويلة، فعمل مرشدي باث، أو عارض الفنان هو ما يناسبك. وإن كنت لا تشعر باضطراب عند رؤيتك الدم، أو القيح، أو طعم البول الغريب، فحاول أن تقدم طلباً لبعض الأعمال الطبية: كجامع العلق، أو الحلاق الجراح، أو مساعد جراح السفينة.

النتيجة: أقل من صفر: يا مسكين، كم أكره أن أقول إنك مقدر لحياة سمتها السأم. إن بعض الأوصاف التي قد يَنْعَتك الناس بها في غيابك هي: ممل، ومغرق بالتكرار، وغير ملهم. إن المهن التي تناسبك هي تلك الانفرادية، ولكن لا تقلق حيال ذلك، فأنت معتاد على قضاء الوقت وحيداً، وبخاصة في المناسبات الاجتماعية. وقد يكون عمل زخرفة المخطوطات نعيماً بالنسبة إليك. وقد يناسبك أيضاً عمل ناسخ المخطوطات الأنبوبية، أو صانع الدبابيس، أو الفحام، أو جامع نكيث الحبال. أما إن كنت مجدّاً في وحدتك، فما رأيك في التزام طريق الناسك الطويل الأمد.